روايات تاريخ الإسلام

فتاة القيروان

تتضمن ظهور دولة العبيديين الفاطميين في أفريقيا ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر، إلى إخراج مصر من الدولة الأخشيدية سنة ٣٥٨هـ، مع وصف الأخشيديين وجندهم.

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

obeikandl.com

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ (٠١) ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ (٠١) ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ (٠٧) ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

ALL RIGHTS RESERVED
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

obeikandi.com

أبطال الرواية

* المعز لدين الله	: الخليفة الفاطمي.
* جوهر الصقلي	: قائد المعز.
* الأمير حمدون	: حاكم سجلماسة.
* لمياء (فتاة القيروان)	: ابنة حمدون.
* أم الأمراء	: زوجة المعز.
* الحسين	: ابن القائد جوهر.
* سالم	: خطيب لمياء.
* أبو حامد	: داعية ضد المعز.
* كافور الإخشيدي	: ملك مصر.
* زينب بنت الإخشيد	: بنت ملك مصر.
* جعفر بن الفرات	: وزير كافور.
* مسلم بن عبيد الله	: شريف شيعي بمصر.
* يعقوب بن كلس	: يهودي من رجال الدولة.

obeikandl.com

مراجع رواية فتاة القيروان

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* معجم ياقوت .
* تاريخ ابن خلدون .
* تاريخ المقدسي .
* تاريخ اليعقوبي .
* تاريخ المقريزي .
* تاريخ ابن خلكان .

obeikandl.com

-١-

فذلكة تاريخية

قاسى الشيعة في عهد حكم بني أمية في الشام عذاباً شديداً، وصلب وسجن كثيرون منهم. وكذلك كان شأنهم في عهد العباسيين، ولا سيما في أيام المنصور والرشيد والمتوكل، فحملهم ذلك على الفرار إلى أطراف المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً، وكان فيمن فروا منهم في عهد الرشيد: إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى، أخو محمد بن عبد الله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته. فأتى إدريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين، وأقام بها متخفياً حيث وافاه بعض الشيعة سراً، وكان من بينهم صاحب البريد، فحمله إلى المغرب حيث رحب به الشيعة هناك وبايعوه، فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الإدريسية، وظلت من سنة ١٧٢ حتى ٣٧٥هـ. ولكن أمراءها لم ينادوا بأنفسهم خلفاء.

أما الفضل في تغلُّب الشيعة وارتفاع شأنهم فيرجع للدولة الفاطمية نسبة إلى فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم التي ينتسب إليها القائمون بأمر تلك الدولة، وتعرف أيضاً باسم الدولة العبيدية نسبة إلى مؤسسها عبيد الله المهدي.

وكان الشيعة قد بدأ ظهور أمرهم في المشرق على يد بني بوية في أواسط القرن الرابع للهجرة؛ ولما تغلب البويهيون على بغداد، كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمت بفتح مصر. وكان آل بويه يغالون في التشيع، ويعتقدون أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من مستحقيها، فأشار بعضهم على معز الدولة البويهي أن ينقل الخلافة إلى العبيديين أو إلى غيرهم من العلويين، فعارض ذلك خاصته وقالوا له: «ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، أما إن أقمت أحد العلويين خليفة تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فإنه لو أمرهم بقتلك لقتلوك!». فرجع معز

الدولة عن عزمه.

على أن ظهور الشيعة في الشرق هوَّن على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها، وكانت المهدية بافريقية عاصمتهم الأولى، وخلفاؤهم ينتسبون إلى الحسين بن علي، وللمؤرخين في انتسابهم اليه أقوال متناقضة، ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم إليه، وإن أنكر ذلك المتعصبون للعباسيين، تصغيراً لشأن الشيعة العلوية.

وكان المصريون يحبون علياً من صدر الإسلام، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان، ولكنهم لم يكن لهم شأن بعد ذلك في الانتصار للعلويين، لأن هؤلاء لجأوا إلى أهل العراق وفارس. فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس، وقتل محمد بن عبد الله الحسيني وبعض أهله من بني حسن، فر من وجهه جميع من بقوا من العلويين، ومنهم علي بن محمد بن عبد الله، فجاء إلى مصر وقام بدعوته بعض رجال الشيعة، لكنه ما لبث أن حُمل إلى المنصور واختفى.

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء بتقلب أحوال الخلفاء في بغداد، فإن تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم. فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب إلى عامله بمصر باخراج آل طالب إلى العراق، فأخرجهم سنة ٢٣٦هـ. ولما قدموا العراق أرسلوهم إلى المدينة، واستتر من بقوا في مصر على رأي العلوية، لأن عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة تزلفا إلى الخليفة. ويروى أن رجلاً من الجند في مصر اقترف ذنباً، فأمر يزيد بن عبد الله، عامل المتوكل على مصر يومئذ بجلده، فتوسل إليه الجندي بحق الحسن والحسين لكي يعفو عنه، فزاده ثلاثين جلدة! . ثم رفع صاحب البريد ذلك الخبر إلى المتوكل، فورد كتابه إلى العامل بأن يضرب ذلك الجندي مائة جلدة أخرى! . وتتبع يزيد هذا آثار العلويين، فعلم برجل منهم له دعاة وأنصار؛ فقبض عليه وأرسله إلى العراق مع أهله وضرب الذين بايعوه.

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧هـ. كتب إلى عامله بمصر بألا يقتني علوي ضيعة، وألا يركب فرسا، أو يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطراف مصر. . وأن يمنع العلويين من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد؛ فإذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمهم فيهم بغير أن يطالب ببينة، فقاسى العلويون عذاباً شديداً بسبب ذلك.

ولما استقل أحمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤هـ. اضطهد الشيعة لأنه تركي، ولأنه على رأي الخليفة العباسي، فاقتص آثار العلويين وحاربهم مرارا. حتى إذا ضعف أمر بني طولون بمصر، واختلت أحوال الدولة العباسية في بغداد، وتغلَّب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة؛ أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى، فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ. بقيادة جوهر الصقلي؛ كانت الأذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ففتح جوهر مصر بأيسر سبيل.

أما القيروان فكانت من المدن الإسلامية التي اختطها العرب بعد الفتح مثل البصرة والكوفة والفسطاط؛ اختطها عقبة بن نافع الفهري سنة ٦٠ للهجرة على مقربة من تونس، وهو الذي فتح أكثر المغرب. وفي أواسط القرن الرابع للهجرة صارت القيروان قصبة بلاد المغرب، وتقاطر الناس من أنحاء العالم لتعميرها، فقطنها العرب من قريش وسائر البطون في مصر وربيعة وقحطان، وأصناف من العجم من أهل خراسان، وأصناف من البربر والروم وغيرهم، وكان أهلها يشربون من ماء المطر الذي ينصب من الأودية إلى برك عظام يقال لها المواحل، وكان بنو الأغلب لما نزلوها في القرن الثالث قد ابتنوا على ميلين منها قصوراً لهم، ثم ابتنوا محلة على ثمانية أميال منها، سموها رقادة. حتي إذا نزلها الفاطميون في أول القرن الرابع للهجرة ابتنوا لأنفسهم حصناً مستديراً بالقرب منها سموه "صبرة" ويسمى أيضاً "المنصورية"؛ وقد جعلوا ذلك الحصن مستقراً لهم ولأهليهم، كما فعل المنصور إذ بنى بغداد قبل ذلك بقرنين. فالمنصورية بلدة مستديرة الشكل

قرب القيروان بناها اسماعيل بن القاسم بن عبد الله المهدي سنة ٣٣٧هـ واستوطنها وجعل قصره وسطها، وأجرى الماء فيها، وأنشأ بها أسواقا جميلة ومسجداً، وجعل لها سوراً عرضة ١٢ ذراعا؛ وهي منفصلة عن القيروان بعرض الطريق؛ ومن أبوابها: باب الفتوح، وباب زويلة، وباب وادي القصارين، وكلها مصفَّحة بالحديد.

وأول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق من نسل الحسين بن فاطمة الزهراء. قام له بالدعوة رجل شيعي اسمه أبو عبد الله الشيعي، وأعانته قبائل البربر، وبخاصة كتامة وصنهاجة، كما قام أبو مسلم الخراساني في المشرق بدعوة العباسيين بعون الخراسانيين. ولما استقر لعبيد الله المهدي الملك قتل أبا عبد الله الشيعي كما قتل المنصور أبا مسلم.

وكان عبد الله في أول الدعوة يقيم بالمهدية على ساحل تونس، ثم انتقل إلى القيروان وتوفي سنة ٣٢٢هـ، فخلفه ابنه القاسم ولقب بالقائم بأمر الله وتوفي سنة ٣٣٤هـ. فخلفه ابنه المنصور أبو طاهر وتوفي سنة ٣٤١هـ. فخلفه المعز لدين الله؛ وعلى عهده فتحت مصر على يد قائده جوهر الصقلي؛ وفي أيامهما جرت حوادث هذه الرواية.

-٢-

المعز لدين الله وقائده جوهر

خرج المعز في ليلة مقمرة من ليالي ٣٥٧هـ. إلى حديقة قصره في المنصورية قرب القيروان؛ وفي الحديقة بركة واسعة يصب فيها ماء جُرٍّ إليها من نبع في جبل قرب المنصورية، وقد فُرِّق هذا الماء على قصور المدينة ومسجدها وأسواقها بواسطة أنابيب من الرصاص، وصرف ما يبقى منه إلى القيروان. ولم يكن في المنصورية إلا الخليفة وأهله وحاشيته وأعوانه لا يشاركهم فيها أحد؛ وقد أحاطوها بسور ضخم عال منيع، أبوابه مصفَّحة

بالحديد، ولا تفتح إلا عند الحاجة، فكانت المدينة لهذا أشبه بالحصون. وكان المعز مطمئن الخاطر لا يخاف غدرا وهو داخل ذلك الحصن المنيع، حتى إذا توغل في الحديقة ولا شيء فيها من زخارف المدينة، أشرف على تلك البركة وليست هي مما يستوقف النظر أو يستلفت الانتباه، لكن لها شأنا خاصا يطرب له المعز ولا يطرب له سواه إلا قائده جوهر البطل الصقلي؛ وكان قد أسكنه في مدينته واختصه بقصر من قصورها وبالغ في اكرامه ورفع منزلته.

ولما وصل البركة، كان القمر قد تكبد السماء، فسارع البستاني إلى اعداد المقعد المخصص لجلوس الخليفة، وكان قد نزل في تلك الساعة وأهل القصر نيام؛ وانما أرّقه أمر شغل خاطره، وأخذ بمجامع قلبه، ولكنه لم يكاشف به أحداً من أعوانه، لأنه كان حريصا على سره لا يطلع عليه أحدا، إلا أنه نضج وآن إخراجه إلى حيز الفعل، شأن رجال العمل وأهل الحزم؛ على أنه في تلك الليلة ضاق ذرعاً بالاحتفاظ بذلك السر، فخطر له أن يكاشف به قائده جوهر.

وكان المعز عالي الهمة عظيم الهيبة واسع المطامع، أدرك الأربعين من عمره، وقد لبس في تلك الليلة رداء أبيض بسيطاً، والتف بالعباءة، وجعل على رأسه عمامة صغيرة؛ فلما استقر به الجلوس صفّق ونادى: « خفيف»، فأقبل غلام صقلبي كان المعز قد اختصّه بخدمته، فقال له: « ادع قائدنا جوهر».

فمضى خفيف، وما عتم أن عاد ومعه جوهر، وهو كهل في السادسة والخمسين من عمره، وخط الشيب فوديه، طويل القامة مهيب الطلعة، ثابت الجأش؛ وكان لما جاءه رسول المعز قد ذهب إلى فراشه، فنهض وارتدى ثيابه وخف إلى ملاقاة مولاه؛ فلما شعر المعز بقدومه تحفّز للنهوض ورحب به وبشّ له، فخجل جوهر من ذلك الاكرام فأكب على يد الخليفة فقبلها وقبل ركبتيه، وأوشك أن يقبل قدميه، فأنهضه المعز ودعاه

للجلوس بجانبه، فجلس تأدباً فبادره قائلاً: « مرحبا بقائدنا الحازم وحبيبنا الباسل».

فتأدب جوهر وقال: « إني عبد مولانا أمير المؤمنين أضرب بسيفه وأفديه بروحي».

قال: « بل أنت سيفنا المسلول وحامي دولتنا، وإني لا أجلس إلى هذه البركة، وأرى السمك يسبح فيها الا ذكرت بلاءك في سبيل الحق؛ إن هذا السمك يشهد بما لك من الفضل على هذه الدولة؛ أليست هذه الأسماك من نسل مما حملته إلينا في القلل من سمك البحر المحيط، يوم فتحت افريقيا وأخضعت قبائلها؛ لا أنسى يوم جئتنا بتلك القلل وفيها السمك من ذلك البحر العظيم اشارة إلى ما أدركته من الفتوح العظيمة التي لم يسبق إليها سواك، فلا غرو إذا اختصصتك بصداقتي وآثرتك على سائر بطانتي وأهلي».

فخجل جوهر من هذا الاطراء وقال: « العفو يا مولاي، إني لم أفعل شيئاً إلا باسمك؛ والله انما نصرني بك لأنك سلالة أحق الناس بالخلافة، أعني ابن عم الرسول (صلعم) وصهره؛ فأنت ابن فاطمة الزهراء، وحسبك هذا نسبا لا يعلى عليه».

فأسكته المعز قائلاً: « إن الحق لا يعلو دائماً، فكم ظل أجدادي العلويون يجاهدون ويذوقون أنواع العذاب ممن استأثروا بالسيادة دونهم؛ ولو أتيح لهم سيف مثل سيفك لغلبوا؛ فإنك فتحت هذه البلاد من هنا إلى البحر المحيط وأخضعت أهلها، بارك الله فيك؛ فإذا رفعنا منزلتك فما أعطيناك إلا حقك». وسكت وقد بدا الاهتمام في وجهه، وجوهر ينتظر ما يبدو منه لاعتقاده أنه لم يدعه في تلك الساعة إلا لأمر ذي بال؛ فاعتدل في مجلسه وتوجه إليه كأنه يستفهم عما يريده.

أما المعز فمد يده وأخرج من تحت العباءة قضيبا من عود طوله شبر ونصف شبر، مكسواً بالذهب، فلما رآه جوهر علم أنه قضيب الملك،

فتأدب احتراماً له فابتدره المعز قائلاً: « أليس هذا قضيب الملك يا جوهر؟».

قال: « نعم يا مولاي إنه قضيب الحق وصاحب الخلافة الحقة».

قال: « هل يكون في الدنيا خليفتان على حق؟».

فأدرك جوهر أنه يشير إلى خلافة العباسيين في بغداد، وإلى أنها على غير الحق، ولحظ ما وراء ذلك من الأمور فقال: « كلا يا سيدي، إن النبي واحد وخليفته واحد».

قال: « إلى متى نترك هؤلاء القوم في ظلمائهم؟».

فأجاب جوهر على الفور: « نتركهم حتى يأمر مولانا أمير المؤمنين».

فأكبر المعز هذا الجواب الدال على حزم جوهر، وتفانيه في سبيل نصرة العلويين، فابتسم وأشرق وجهه، وكان القمر مواجهاً له بحيث يظهر ذلك لجوهر، ثم قال: « بارك الله فيك، هذا ما كنت أرجوه منك، وقد جال هذا الفكر بخاطري منذ أعوام، فكنت أتردد وأستطلع المنجمين ولا أبوح به لأحد، حتى إذا كانت الليلة رأيت أن أسرَّه إليك، وكنت أحسبه جديداً عليك، فإذا أنت أكثر تفكيراً فيه مني، فأرجو أن تشير عليَّ».

قال: « ليس للعبد أن يشير، وإنما عليه أن يطيع؛ ولو أمرني مولاي أن أركب الأسنة، وأذهب في الأرض فاتحاً لفعلت، لعلمي أني ذاهب في نصرة الحق».

قال: « لله درك من قائد باسل وصديق حميم، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها؛ فالآن أكتم ما دار بيننا، وأخبرني عن رأيك في قوادنا».

قال: « إنهم نعم الرجال يتفانون في نصرة مولانا ولا سيما شيوخ كتامة، فإنهم قاموا بنصرة أمير المؤمنين خير قيام، وعليهم المعوَّل في أمرنا».

***

سكت المعز برهة، وقد عاد إلى الاهتمام وأخذ يلاعب قضيب المُلك بين أصابعه وهو يتأمله، ثم قال: « ولكنني أخاف عليهم الجنوح إلى الترف،

فيأخذهم ما أخذ أعداءنا في بغداد من أسباب المدنية حتى صاروا إليه من الذل، فغلبهم مواليهم الاتراك والديلم ولم يتركوا لهم من الخلافة إلا اسمها؛ ولا أخفي عليك أني لم أطمع فيهم إلا لما بلغني من ترفهم واسترسالهم في الملذات، فإذا أصاب رجالنا ما أصابهم صرنا إلى مصيرهم».

قال: « ليس هذا ما أخافه يا سيدي، فإن قومنا بعيدون عن الترف؛ فكيف تخاف عليهم ذلك، وهم يرون أمير المؤمنين إبن بنت رسول الله يتولى الدولة بنفسه، ويجلس في برد الشتاء على اللبود، لا يرتدي غير جبة، وحوله أبواب مفتّحة تفضي إلى خزائن كتبه، وبين يديه دواة وأوراق، لا يأكل إلا ما يأكل رعاياه، ولا يتقلب في الديباج والحرير والمسك والخمر كما يفعل أرباب الدنيا، ولا يكاد يفرغ من الاطلاع على الكتب التي ترد إليه من المشرق والمغرب، ومن الرد عليها بخطه، لا يلهيه شيء من ملاذ الدنيا، ولا يعمل إلا ما يصون أرواحهم ويعمر بلادهم ويذل أعداءهم؟».

فأعجب المعز بما سمعه منه فقال: « إن هذا لا يكفي يا أبا الحسين؛ وإني لأخاف على رجالي استكثارهم من النساء، ولا أرى لكل منهم أن يقتني غير امرأة واحدة، لئلا ينتغص عيشهم وتعود المضرة عليهم وتنهك أبدانهم وتذهب قوتهم؛ وكثيراً ما أوصيتهم بذلك ليقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب».

قال: « إن سهر مولاي على دولته بمثل ما تقدم كفيل بالنجاة من الوقوع فيما تخافه، ولكنني أخاف . . » وسكت وهو يتشاغل باصلاح عمامته.

فلحظ المعز في وجهه شيئاً يكتمه فقال: « وما الذي تخافه يا جوهر؟ . قل».

قال: « أخاف الدسائس».

قال: « الدسائس؟ . ممن تخشى أن تكون؟».

قال: « أخاف قوماً لا تعرفهم ولا نعرف نياتهم».

قال: « من تعني؟ كيف نخافهم ونحن لا نعرفهم؟».

قال: « لو عرفتهم لبددت شملهم، فإني أتوسم خطرا من جماعة يزعمون أنهم موتورون، ولا أعرف من هم ولكنني أتنسم رائحة ذلك من بعض الأحاديث».

قال: « صرح يا جوهر، إنك في مأمن».

قال: « ألا تعلم يا سيدي ما أصاب أبا عبد الله الشيعي الذي قام بالدعوة في أول أمرها، ومهّد الدولة لجدك المهدي رحمه الله؟».

فلما سمع اسم أبي عبد الله تغير لون وجهه، ولكنه أظهر الاستخفاف وقال: « أظنك تريد أن تقول إن الرجل قتل ظلماً؟».

قال: « لا أعني ذلك، ولكن بين أصحابه الذين أعانوه في نصرة الدعوة من يظنون أنه ظلم، لأنه جمع القبائل لنصرتها، ولما استتب الأمر لمولانا جدكم قتله وقتل آخاه أبا العباس. أما أنا فأعتقد أنه نال جزاءه بعد أن فسدت نيته وطمع في الأمر لنفسه، فلا بد أن يكون لأصحابه مطمع في افساد أمرنا، وإن كنت لا أخاف فوزهم؛ ولو سألتني عن واحد منهم لاعترفت بأني لا أعرف أحدا، وانما هو سوء الظن لا بد منه في مثل هذه الحال».

فاعتدل المعز في مجلسه وقال: « صدقت، ولكن لا خوف منهم؛ غير أني أسمع أن ذلك المقتول كان عنده مال خبأه في مكان لا أعرفه، وقد عجّل جدي قتله قبل معرفة مستودعه؛ سمعت أنه مال كثير؛ ولا يخفى عليك شدة الحاجة إلى المال في هذه الأحوال».

قال: « نعم يا سيدي سمعت بخبر المال المخبأ، ولكنني لا أعرف مكانه ولو عرفته لأخرجته، ولا يبعد أن يكون قد تبعثر وسأوالي البحث عنه».

قال: « إن لدينا الآن صناديق من المال قد شذّ عني ترتيبها لكثرتها، وقد أدخرتها للقيام بالعمل لعلمي أن أعداءنا قد أصابهم الفقر حتى تغيرت قلوب الناس عليهم».

قال جوهر: « صدق مولاي، ولكني أرى مع ذلك أن نحتاط ونسيء

الظن حتى برجالنا وأمراء القبائل البربرية، ولا سيما الذين كانوا حكماء وانصرفوا إلى الدسائس؛ أخص منهم حمدون صاحب سجلماسة، فإن هذا الرجل حاربناه وهو صاحب دولة، فأخضعناه فاستسلم مكرها على ما أظن، فإذا رأى مولاي أن نقيّده برهن كان ذلك أقرب إلى الصواب».

قال: «وما هو الرهن؟».

قال: «لهذا الأمير ابنة اسمها لمياء يحبها كثيرا، وقد شاهدت منها في أثناء حربنا معه بسالة وأنفة لم أعهدها في فتاة قبلها، فقد كانت تحارب حرب القواد على جواد من خير الجياد، ولم نستطع أخذها إلا بعد جهد كثير، وقد أراد الفارس الذي أسرها أن يتخذها سبيَّة فمنعته من السبي وأكرمتها؛ ولا ريب أن أباها يضن بها لحبه لها، فإذا اتخذناها رهنا على بقائه في طاعتنا فلن يقدم على الخيانة».

قال: «حسناً، وأين هي الآن؟».

قال: «في فسطاط أبيها المضروب في هذا السهل خارج القيروان».

قال: «لا خوف من ذلك فإني أطلبها منه لتكون مكرمة معززة في قصر أمير المؤمنين في خدمة أم الأمراء (زوجة المعز)؛ وهذا شرف لا يأتي لأحد سواه؛ وأنا على يقين بأن مولاتنا أم الأمراء ترتاح لرؤيتها؛ فإن في وجهها مهابة وجمالاً مع تعقل وبسالة؛ وقد تحققت مع ذلك أنها من أشد الناس غيرة على دعوة الحق، فإنها تجل الامام عليا وتنصر شيعته مما لم أره في سواها من جماعة البربر. فإذا وافق مولاي فإني أرى أن نصاهر الرجل فنكتسب حزبه».

قال: «وكيف ذلك؟».

قال: «سأقول إنَّ الغرض في نقل ابنته إلى قصر أم الأمراء اني أريد أن أتخذها زوجة لابني الحسين؛ فنكسب الفتاة ونكسب قلب أبيها».

قال: «حسنا. افعل بارك الله فيك، ولا حرمنا من سعيك الحميد»؛ وتزحزح الخليفة فنهض جوهر واستأذن في الانصراف.

ثم خرج جوهر من حضرة المعز وقضى بقية ليلته مفكراً فيما سمعه، وكان شديد الاهتمام بأمور الدولة كثير الغيرة على الدعوة العبيدية؛ ولم يكن واهماً فيما لمَّح به للمعز عن الدساسين شيعة أبي عبد الله، بل كان هذا هو الواقع؛ ولكن تلك الأحزاب لم تكن تستطيع الظهور لتغلب القوة، فكانت تتربص للوثوب على الدولة. وكان صاحب سجلماسة أخوف من يخافهم جوهر، لأن الرجل كان صاحب سطوة وله حزب كبير، كما أنه مجازف لا يقدر العواقب؛ فرأى جوهر من حسن السياسة أن يقيده بالرهن على تلك الصورة، ثم يقربه بالزواج فيخطب ابنته لابنه، فيكتسب ثقته ومساعدته أو يتخلص من شره.

***

لم يكن صاحب سجلماسة يشعر بشيء مما في خاطر جوهر، بل كان يحسبه في غفلة عن حركاته وخطواته.

وفي صباح اليوم التالي أرسل جوهر غلامه إلى حمدون يدعوه إليه في قصره بالمنصورية، فبادر الرجل بتلبية الدعوة؛ وكان حمدون هذا كهلا طويل القامة دقيقها، أسود العينين غائرهما، لا تستقر حدقتاهما على حال؛ ولم يكن عنده من الولد غير لمياء؛ وقد ماتت أمها فتزوج أخرى وعهد في تربية إبنته إلى رجل من خاصته كان شديد التشيع لأهل البيت؛ فشبت على ذلك. وأما حمدون فلم يكن تشيعه إلا جريا مع تيار القوة؛ ولو تُرك لنفسه لاختار أن يدعو الناس إلى الالتفاف حوله هو نفسه، فقد كانت مطامعه لا تقف عند حد؛ وكان قد همَّ بأن يدَّعي المهدوية وهو في سجلماسة، لكنه غُلب على أمره وحُمل أسيراً إلى القيروان، فأظهر الطاعة على غلٍّ وشعر جوهر بشيء من ذلك.

ولم يكن حمدون مع سعة مطامعه من أهل الدهاء، لكنه كان إذا خطر له أمر بادر إلى تنفيذه، لا يبالي ما في سبيله من الخطر. وكان عرش سجلماسة قد اتصل إليه بالارث من أجداده، واتصل بخدمته شيخ اسمه أبو حامد زعم

أنه من أهل الكرامة نزل عليه منذ أعوام، ومعه شاب جميل الصورة اسمه سالم ذكر أنه ابن أخيه وهو فارس شجاع؛ ونزل كلاهما في داره وهو في إبان امارته. وكان سالم يرى لمياء وهي تذهب وتجيء أو تركب الجواد، والبربر أقل المسلمين حجبا لنسائهم، فوقعت من قلبه موقعاً جميلاً، وتعارفا وتحابا؛ فتقدم أبو حامد إلى حمدون في خطبة لمياء إلى ابن أخيه سالم، فقبل؛ ثم أتى جوهر القائد بجيشه وفتح سجلماسة، وأسر أميرها وأهله وفي جملتهم لمياء وأبو حامد؛ ولم يقفوا لسالم على خبر فظنوه قُتل في المعركة فبكته لمياء.

أما حمدون فكان يعتقد أن سالماً قُتل، وخُيِّل إليه أنه شاهد شبحا مثله ملقى على الأرض في أثناء القتال؛ ولم تمض على قيامهم من القيروان أيام قليلة حتى خطر لجوهر ما خطر له، فبعث يستقدمه إليه في ذلك الصباح إلى قصره، فلما جاءه بالغ في اكرامه وتقديمه، وحمدون لا يعلم سبب هذا الاكرام؛ ثم قال جوهر: «أتعلم لماذا دعوتك أيها الأمير؟».

قال: «لا يا سيدي».

قال: «أنت تعلم أننا كنا بالأمس أعداء يستحل أحدنا دم الآخر، فصرنا الآن اخوانا نتعاون على نصرة الحق وخدمة أمير المؤمنين، وقد أحببت أن تزداد تلك الروابط متانة فأرجو أن توافقني».

فلم يفهم حمدون قصده؛ لكنه بادر إلى الثناء على هذه الرغبة فقال: «إن ذلك غاية مناي وشرف عظيم لي».

قال: «لا شرف ولا تشريف؛ أتعرف ولدنا الحسين؟».

قال: «نعم أعرفه حفظه الله».

قال: «وأنا أعرف ابنتك لمياء، وقد شهدت منها في أثناء حربنا ما حبب إليَّ أن تكون زوجة لابني الحسين، وأنت تعلم مقدار حبي له، فبهذا المقدار سيكون حبي لها».

فلما سمع حمدون قوله أطرق هنيهة يفكر، ثم أبرقت أسرَّته، لا غبطة

بالشرف الذي سيناله من مصاهرة أكبر قواد المعز الفاطمي، ولكنه توسم في ذلك عونا له على أمر قام في نفسه فقال: « إن مثلي يا مولاي لا يطمع في أكثر من هذا».

فأثنى جوهر على قبوله وقال له: « واني رفعا لقدرها أحب أن يكون العقد عليها في منزل أم الأمراء زوج أمير المؤمنين فتقوم مقام أمها، هل ترى بأساً في ذلك؟».

فنهض شاكراً وقال: « أي بأس من ذلك يا سيدي؟ إنه شرف عظيم!».

قال: « سأرسل غلامي إليك بعد ساعة فترسل معه لمياء إلى دار أمير المؤمنين».

قال: « سمعاً وطاعة»؛ وخرج وقد أدهشه توفيقه إلى فرصة طالما تمناها: وسار توا إلى صديقه أبي حامد فقص عليه ما دار بينه وبين جوهر، وأظهر أنه يستشيره فصاح فيه هذا قائلا: « أيعرض عليك أن تكون لك يد وعينان في قصر المعز وقائده وتتردد؟ إقبل. .» قال ذلك وهو يحك ذقنه ليخفي ما خامره من الفرح بتلك البشرى، وله في ذلك غرض يشبه غرض حمدون.

فقال حمدون: « لم أتردد في القبول لحظة؛ ولكنني توقفت بادئ الأمر لأن ولدنا سالما أولى بها و. .».

فقطع أبو حامد كلامه قائلا: « دع سالماً الآن إنه بعيد ولا ندري متى يعود».

فاطمأن حمدون إذ ظهر له أن سالماً ما زال حياً وكان يظنه قتل فقال: « وأين سالم الآن؟».

قال: « ليس بالقرب من هنا وسأخبرك بمكانه؛ أما الآن فلا ترفض ما عرضه عليك القائد الفاتح».

فذهب حمدون وقص الخبر على ابنته وحسَّن لها الذهاب، فامتنعت في بادئ الرأي لأنها عالقة القلب بسالم، فأكد لها أن سالماً قُتل أو هرب ولا

أمل في رجوعه؛ ونظرا لما يعلمه من تعلقها بأهل البيت ضرب لها على وتر الدين فقال: «إنك تكونين هناك قرب أمير المؤمنين إبن بنت الرسول».

فرضيت وذهبت مع الرسول إلى قصر المعز.

-٣-

لمياء فتاة القيروان

بات المعز تلك الليلة وقد خف بلباله بعد ما دار بينه وبين قائده من الحديث؛ وفي صباح اليوم التالي قام بفروض الصلاة ثم ذهب إلى ديوانه، وبينما هو جالس ينظر في أعماله، ويقرأ كتب العمال ويرد عليها بنفسه، جاء غلامه خفيف الصقلبي واستأذنه في كلمة فقال: «ما وراءك؟».

قال: «إن مولاي القائد بعث بفتاة قال إنها لقصر مولانا؟».

فقال المعز: «أدخلها.. أين هي؟».

فدخلت الفتاة وهي تنظر إلى ما في القاعة من صناديق الكتب، وليس فيها غير الخليفة وكاتبه؛ وكانت لمياء طويلة القامة أشبه في مشيتها بالرجال منها بالنساء مع جمال وهيبة، سمراء اللون كبيرة العينين إذا نظرت فكأنها تأمر، مقوَّسة الحاجبين متناسبة الملامح، غليظة الشفتين قليلا، عريضة الوجنتين؛ وحول رأسها عصابة تدلت منها خيوط في أطرافها كرات من الذهب، وقطع أخرى من المصوغات؛ وقد أرسلت شعرها على كتفيها متجعدا، وأحاط بها رداء كالخمار عُقد في أعلى الصدر بعروة من الذهب؛ وحول عنقها عقود من الجزع ونحوه.

فلما وقع نظر المعز عليها لم يتمالك من الاعجاب بها، ولا سيما بعد ما سمعه من قائده، فاستدناها وهش لها تلطفاً وقال: «تقدمي يا فتاة ما اسمك؟».

قالت: «لمياء يا أمير المؤمنين».

قال: « لعلك ابنة نصيرنا صاحب سجلماسة؟».

قالت: نعم يا مولاي».

قال: « وهل يسرك أن تكوني في قصرنا؟».

قالت: « هذا شرف لا أستحقه»؛ وابتسمت.

قال: « بل أنت أهل لأكثر من ذلك؛ أمتزوجة أنت؟».

فلما سمعت سؤاله أطرقت، وبان الخجل في محياها من الدم الذي تصاعد إلى وجنتيها ولم تجب.

فعلم أنها عذراء فاكتفى وقال لها: « إذهبي مع غلامنا هذا إلى أم الأمراء، فإني أوصيتها بك خيراً وستحسن وفادتك؛ وأرجو أن تكوني عند حسن ظننا بك».

فرفعت بصرها نحوه وقالت: « إذا كنت تعني صحة خلافة آل البيت فنعم».

فأعجب بصراحتها وقال: « إنك لنعم الفتاة العلوية لولا ما أراه على رأسك وصدرك من كثرة الحلى، فاننا لا نرى الجنوح إلى شيء من أسباب الترف».

وما إن أتم كلامه حتى مدت يدها إلى رأسها وصدرها، ونزعت ما كان عليهما من الحلى والعقود ورمت بها إلي الأرض ثم قالت: « لم أكن أعلم ذلك يا مولاي؛ وقد كان لي فيما شاهدته من بساطة ردائك عبرة وعظة؛ وهذه هي جواهري رميتها تحت قدميك».

فأجابها: « بورك فيك، إنك ستنالين أضعاف ما نزعته من الجواهر، فضلاً عن سرور أم الأمراء بك»؛ وأشار إلى الصقلبي فمشى بها، وعاد المعز إلى عمله.

***

كانت أم الأمراء زوجة المعز امرأة عاقلة حكيمة، ذات مبرات

وحسنات، ولها رأي وحزم؛ وكثيراً ما كان المعز يستشيرها، وقد أدلى اليها في ذلك الصباح بحديث لمياء وأوصاها بها خيراً.

ولو كانت لمياء قد دخلت قبل ذلك بعض قصور الأمراء في مصر أو بغداد في ذلك العهد، لحسبت قصر أم الأمراء منزل الخدم؛ لأنه كان من البساطة بحيث يقرب من حال البداوة؛ فتلك كانت سياسة المعز خوفاً من عواقب الترف، لعلمه أن الترف والرخاء من أكبر العوامل في سقوط الدول.

وكانت أم الأمراء جالسة في غرفتها على بساط من السجاد بلا وشي ولا تطريز، وعليه مساند من الديباج البسيط، وقد ارتدت ملابس بسيطة واتشحت بمطرف، وأرسلت شعرها مضفوراً على أبسط ما يكون؛ فسرت لمياء لنزع حليها قبل الدخول على تلك الأميرة؛ فتقدم خفيف الصقلبي أولا فأنبأ أم الأمراء بمجيء لمياء فأمرت بدخولها، وما وقع نظر لمياء على أم الأمراء حتى استأنست بها كأنها ربيت عندها، فأشارت اليها أم الأمراء أن تقعد فقعدت متأدبة، وانصرف خفيف فقالت أم الأمراء: « أهلاً بالضيفة العزيزة».

فقالت: « أشكرك يا سيدتي على تلطفك؛ إنما أنا جارية في قصرك».

قالت: « بل أنت ضيفة مكرمة، فان قائدنا جوهر أثنى كثيرا على أدبك وتعقلك، وقال انه لم يرض لك الرق فأطلق سراحك».

قالت وهي تنظر في البساط مبالغة في التأدب: « إن ذلك فضل كبير له لا أنساه عمري؛ أما فضل مولاتي زوج أمير المؤمنين فلا أقدر أن أفيه حقه من الشكر».

فغيرت أم الأمراء الحديث وقالت: « لم أفعل شيئاً بعد، ولعلي أستطيع ذلك في المستقبل فيكون لك قصر مثل هذا القصر تعيشين فيه آمرة ناهية؛ لأنه ينبغي لمثلك أن يكون لها أحسن نصيب من كبار الرجال».

فأدركت لمياء أنها تشير إلى رغبتها في تزويجها من أحد الأمراء، فلم يعجبها ذلك لأنها عالقة القلب بسالم، فبدا ذلك في وجهها، وتساقطت من

عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها، فمسحتهما بكمها وهي تبتسم إخفاء لما ظهر من عواطفها، فأدركت أم الأمراء ذلك فبادرتها قائلة: « يظهر أنك مشغولة القلب بسوانا».

فلم تتمالك لمياء عن البكاء وهي تخجل من بكائها، فغطت وجهها بيديها، وكأنها استضعفت نفسها، وأنفت من ظهور ضعفها، فتجلدت وتشاغلت بالابتسام وهي تنظر إلى أم الأمراء والدمع يتلألأ في عينيها؛ فشاركتها أم الأمراء شعورها، وأرادت استطلاع حقيقة حالها لعلها تنفعها في شيء، فدنت منها وهي تظهر الاهتمام بها وقالت: « لا يشق عليك تعرضي لك في أمر تريدين كتمانه؛ وإنما أردت أن أباسطك؛ ولما توسمته فيك من الظرف أردت أن أكرمك بأحسن رجالنا؛ لكنني أرى أنك مشغولة الخاطر بسواه؛ ألا تثقين بي وتطلعينني على سرك وإن كانت هذه أول مرة رأيتني فيها».

فغلب الخجل على لمياء وقالت: « العفو يا سيدتي، إنك تتنازلين كثيراً في مخاطبتي وما أنا أهل لشيء من ذلك».

فأحست أم الأمراء أنها ضايقتها في الحديث من أول مقابلة، فرأت أن تتركها إلى فرصة أخرى فقالت: « بل أنت أهل لأحسن منه، والآن قد آن لك أن تستريحي»؛ وصفقت فأتتها قيّمة الدار، فأمرتها أن تعد غرفة خاصة للضيفة، وأن تساعدها في تبديل ثيابها وتؤانسها؛ فنهضت لمياء ومشت مع القيّمة وقد تنبهت عواطفهما وهاجت أشجانها.

فأخذتها القيّمة إلى غرفة في القصر تطل على الحديقة التي فيها البركة من ناحية، وعلى المسجد الجامع من جهة أخرى، وساعدتها في تبديل ثيابها، فألبستها ثوباً من أثواب الأميرات، وهو بسيط في زيه بلا زركشة ولا تأنق؛ وقد أعجبت لمياء بكل ما شاهدته هناك من أدلة البساطة والجنوح إلى العمل؛ وقلما وجدت شيئاً يراد به الزخرفة فقط؛ مع أن قصر أبيها في سجلماسة لم يكن يخلو من الترف والرخاء يقلد بهما حضارة بغداد أو مصر

أو الأندلس فيأتي من كل بلد بأفخر مصنوعاته. أما المعز فكان يخاف ذلك فيميل إلى التمسك بالبساطة والبعد عن الترف.

***

ولما خلت لمياء إلى نفسها في الغرفة تصورت ما أصابها في ذلك اليوم، فقد كانت أمس في فسطاط أبيها خارج القيروان، وهي الآن في قصر الخليفة المعز لدين الله معززة مكرمة؛ وتذكرت أن المعز من نسل الإمام علي وفاطمة الزهراء، فاختلج قلبها من الفرح لحصولها على الحظوة بالتقرب من ذلك الدم الطاهر والشرف العظيم، ومشت إلى شرفة مطلة على الحديقة، ولم تكد تجلس حتى تقاذفتها الهواجس، وتذكرت خطيبها سالماً وكانت قد أحبته، ووطنت النفس على الاقتران به؛ فلما آن وقت العقد أُخذت أسيرة مع أبيها، ولم تعد ترى سالماً ولا علمت أين هو؛ وكانت تعلم من أسراره ما لا يعرفه عمه؛ وكان فيما أطلعها عليه من أغراضه أمور تنكرها عليه، ولا يعلم عمه أبو حامد باطلاعها عليها؛ ولعله لو علم لم يسمح بتقربها من المعز.

فأطرقت حيناً وهي غارقة في التفكير، وجعلت تناجي نفسها قائلة: «أين أنت يا سالم؟ لا أصدق أنك قُتلت... لا، لم تقتل بل أنت مختبئ أو متنكر، أو لعلك تفكر في ذلك الأمر، ليتني أستطيع أن أراك لأطلعك على أمور تسهل عليك الرجوع عن عزمك... وأتخلص مما يعرضونه عليَّ؛ إني لا أحب الزواج إلا بك لأني لم أحب سواك؛ ولكنني مع هذا لا أقرك على عزمك لأن فيه خطرا؛ آه أين أنت؟».

وفيما هي في ذلك سمعت حركة وحديثاً في الحديقة، فأنصتت وجلست تتوقع أن ترى أحداً؛ وكانت قد ضفرت شعرها ضفيرتين جانبيتين، ولفت رأسها بخمار كبير كالحبرة يغطي كتفيها وجنبيها؛ وما لبثت أن سمعت خفق نعال على مقربة من النافذة، فتراجعت وهي لا تزال تنظر إلى الحديقة؛ وإذا هي برجلين عرفت منهما جوهر القائد، وبجانبه شاب في

مقتبل العمر يظهر من ملامحه أنه ابنه الحسين، وتذكرت ما قيل لها عن رغبته فيها فأحست بنفور منه، وانزوت مخافة أن يقع نظره عليها.

أما جوهر فكان ماشياً وعليه الجبة والقفطان، وفوق رأسه العمامة الصغيرة وحولها الخمار وقد تقلد السيف، وفي مشيته ووثبات قدميه ما يدل على أنه قائد عظيم؛ وأما ابنه فكان في مثل لباسه لكنه لا يزال يانعاً، وفي محياه نضارة الشباب مع هيبة القواد، والبسالة بادية في عينيه وجبينه.

ولحظت لمياء وهي منزوية أن الحسين بن جوهر لما وصل إلى جانب غرفتها التفت كأنه يلتمس أن يرى أحدا، وسمعت أباه يقول له بصوت منخفض: « لا شك أنك لو رأيتها ما تمالكت عن الاعجاب بها لأنها جمعت بين مهابة الرجال ولطف النساء».

فقال الحسين: « إني لا أخالفك في شيء تراه؛ وأنت أعلم مني وأوسع اختباراً، لكنني لا أثق بأبيها، ولا أظنك تجهل ما في خاطره و. . ».

وكانا يتكلمان وهما ماشيان، فلم تسمع لمياء من حديثهما إلا نتفا فهمت منها أنهما يتحادثان في شأن خطبتها له، فوقعت في حيرة، وخافت أن يطلب منها الزواج به وهي عالقة القلب بسالم وإن كانت لا تعرف مقره.

وكانت لمياء مع بسالتها وقوة بدنها قوية العواطف، فتمكن الحب من قلبها حتى شغلها عن كل شاغل سواه، ولا سيما أن سالماً أول شاب عرفته وأحبته.

ثم عادت فسمعت جوهر يخاطب ابنه وقد عادا من حيث أتيا، وأتما الحديث، فأصغت لعلها تسمع تتمة الكلام، فسمعت جوهراً يقول: « إن معاملة هؤلاء بالحسنى أولى وأقرب إلى جمع القلوب؛ وصاحب سجلماسة من أولى الأمراء بذلك». ثم انقطع سماعها الحديث لابتعادهما، فأصبحت لمياء أشد رغبة في الاطلاع عليه فأصغت لسماعه عبثاً؛ فقعدت وهي تصلح خمارها وتعمل فكرتها، وإذا هي تسمع لغطا فيه صوت أبيها فأجفلت، ثم رأت أباها وجوهراً ماشيين وجوهر يحتفي به ويلاطفه، ويقول له: «لا ريب

أن مولانا المعز يقدر صاحب سجلماسة حق قدره، وطالما ذكرك في غيابك وأثنى على علو همتك».

فقال حمدون: «نحن نفتخر بالقيام بنصرة ابن فاطمة الزهراء».

ثم بَعُد الصوت، وعلمت لمياء من هذا الحديث أن أباها وجوهراً ذاهبان لزيارة المعز، وربما كان ذلك بشأنها؛ فقلقت لئلا يعد أبوها بتزويجها للحسين وهي لا تريد؛ فمشت إلى غرفتها وهي تود أن تحضر الجلسة لتعلم ما يدور بين أبيها والمعز بشأنها؛ ولكنها لم تجد وسيلة إلى ذلك إلا على يد أم الأمراء، وكانت تسمع بمشاركتها زوجها أحيانا في الرأي والتدبير، وأنها كثيراً ما كانت تحضر مجالس المداولة من وراء ستار.

وكانت أم الأمراء قد أعجبت بلمياء كل الإعجاب، وأحبتها من كل قلبها؛ وكذلك لمياء فإنها أحبت أم الأمراء، واستأنست بها، وكأنها تعرفها من أعوام؛ وقد سهل عليها أن تكاشفها بما يكنه قلبها، وتستشيرها في أمرها، وتستعينها على حاجتها؛ فذهبت تطلبها في غرفتها فلم تجدها، ولقيت حاضنتها - وهي امرأة رومية الأصل أتى بها المعز من صقلية لما دخلت في حوزته في جملة نساء حملهن للخدمة وتدبير المنزل - وقد استلطفتها لمياء، ورأت انعطافا نحوها، فسألتها عن أم الأمراء فقالت: «ذهبت لبعض شؤونها وستعود قريباً»، ودعتها للقعود.

فقعدت وخاطرها مشغول بذهاب أبيها إلى المعز مع جوهر، فأحبت أن تشغل نفسها ريثما تأتي أم الأمراء فقالت للحاضنة: «يظهر لي من ملامحك أنك لست من أهل هذه البلاد».

قالت: «صدقت إني من صقلية يا سيدتي».

قالت: «فأنت رومية الأصل إذن؟».

قالت: «نعم وأفتخر بأني من البلد الذي أنجب أكبر قواد أمير المؤمنين».

فعلمت أنها تعني جوهراً القائد فقالت: «وهل القائد جوهر من صقلية

أيضاً؟».

قالت: «نعم يا سيدتي إنه من ذلك البلد، ألا يحق لي أن أفتخر به؟».

قالت: «كيف لا وهو موضع فخر أهل هذه الدولة؟ نصره الله على أعدائه».

وفيما هما في ذلك جاءت أم الأمراء تمشي مشية النشاط، ولا تتثاقل تثاقل أهل الترف، فتراجعت الحاضنة وخرجت، ووقفت لمياء وهي تبتسم وتنظر إلى أم الأمراء شاكرة مبتهجة، فأجابتها بمثل نظرتها، وتناولت يدها على غير كلفة، ودخلت بها إلى مخدعها وهي تقول: «أحب أن أراك تستأنسين بي وأن تعدي نفسك إبنة لي».

فأكبت لمياء على يدها فقبلتها، ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت: «لقد غمرتني بفضلك يا سيدتي بما لم يعد في امكاني القيام بشكره؛ كفى، إن ذلك فوق ما استحقه أو يخطر لي ببال».

قالت وهي تقربها من وسادة في صدر الحجرة وتقعدها بجانبها: «إنك أهل لأكثر من ذلك يا لمياء، ولا فضل لي إذ أحببتك، فإني لم أسمع أحداً ذكرك إلا أُعجب بك وبكمالك وهيبتك؛ هذا قائدنا جوهر شديد الاعجاب بك، وقد رغب في تقريب أبيك من أمير المؤمنين من أجلك، وقد جاء به الآن وسيدخلان إليه، ولا شك أن المعز سيحل أباك محلاً رفيعاً اكراماً لقائده». وسكتت وهي تنظر إلى لمياء، وتتأمل ملامحها، وما يبدو منها، فرأتها مصغية لا يبدو على وجهها شيء من الإضطراب؛ فعادت إلى اتمام حديثها فقالت: «وبلغ من افتتان قائدنا بك أنه أحب أن يأخذك إليه ويجعلك إبنة له».

فظهرت البغتة على لمياء، وأطرقت حياء، فابتدرتها أم الأمراء قائلة: «لا أعني أن تصيري ابنة له دون أبيك، بل هو ينوي أن يخطبك لابنه الحسين، هل رأيت هذا الشاب؟ لا ينبغي أن تخجلي مني، إتخذيني أماً لك».

فتصاعد الدم إلى وجنتي لمياء، وأبرقت عيناها وقالت: « أشكر لك هذا الإحسان يا سيدتي؛ نعم إني يتيمة الأم، ولكنني في حضن أم تتمنى كل فتاة أن تكون أمها، وإنه لينبغي لي أن أفتح لك قلبي وأفصح عن ضميري. أما الحسين بن جوهر فإني لم أره إلا في هذا النهار عرضا وهو مار في الحديقة مع أبيه».

فقطعت أم الأمراء كلامها قائلة: « لم يكن مجيئه عرضا، ولكنه جاء عمداً ليرى الفتاة التي حدثه أبوه عنها؛ وماذا تضمرين بعد ذلك؟».

فتنهدت لمياء وهمت بالكلام وأسكتها الحياء، فأدركت أم الأمراء أنها تخفي شيئاً - والنساء يتفاهمن بلغات القلوب أسرع من تفاهم الرجال - فقدمت لها مذبَّة كانت في يدها تروِّح بها لتأنس إليها وقالت: « لا ينبغي لك أن تستحيي مني يا لمياء بعد ما لقيته من حبي لك، ويكفي دليلاً على هذا الحب أن أسعى في تزويجك بأحسن شاب في القيروان بعد أبناء الخليفة، وهؤلاء يا لمياء لم يبلغوا سنَّ الزواج بعد»، وضحكت.

فازدادت لمياء خجلاً من هذا التلميح الممزوج بالعتاب على الكبرياء، ولم تعد ترى باعثاً على الحياء، فتناولت المذبة من يدها ثم أعادتها إليها بلطف وشكر وقالت: « لا تظني يا سيدتي أني جاهلة حقيقة قدري، أو أني لم أدرك مقدار فضلك فيما تعرضينه عليَّ، ولكن اسمحي لي أن أصرح بحقيقة حالي؛ إني يا سيدتي مخطوبة»، وصبغ وجهها الحياء.

ولم تستغرب أم الأمراء قولها لأنها لحظت ذلك فيها من قبل، ولكنها تجاهلت لتسمع منها هذا التصريح، فأجابتها وهي تبتسم: « من هو ذلك الخطيب السعيد الذي حظي بك وما اسمه؟».

فخجلت من هذا الاطراء وقالت: « إنه يا سيدتي شاب من أصدقاء أبي، اسمه سالم، وقد عرفته في سجلماسة؛ وله عمٌّ كثير التودد لأسرتنا فخطبني اليه».

فقالت: « أين هو؟».

فأجابت لمياء وهي ترفع كتفيها اشارة الجهل: « لا أدري أين هو، ولكنني أعلم أنه شهد المعركة الأخيرة التي قُضي بها لأمير المؤمنين، ولم أعلم أين ذهب سالم . . » .

فضحكت أم الأمراء وقالت: « يبدو لي أنك تحبينه كثيراً حتى أنك لا تزالين ثابتة على وده مع الشك في بقائه حياً» .

فتنهدت تنهداً عميقاً وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها ولم تجب؛ فتشاغلت أم الأمراء باصلاح ضفائر الشعر المرسلة على صدرها من الخمار وقالت: « هل تحسبينه ثابتاً على حبك لا يلتفت إلى سواك؟ إن هؤلاء الرجال لا يركن اليهم، ولا تظني أنه يتأتى أن تجدي مثل الحسبن ابن قائدنا جوهر في جيل من الناس، ومع ذلك فالرأي لك؛ وإنا إنما أردت خيرك لأنني أحببتك . . » قالت ذلك وبان العتب في عينيها .

فأثر هذا التأنيب اللطيف في نفس لمياء تأثيراً شديداً، ورأت قولها معقولاً، ولكن قلبها لم يطاوعها على العمل به، ولا طاوعها عقلها على الرفض، ولم تكن مع ذلك تعلم أين سالم؛ وهل هو ميت أو حي؛ ولم تر فرجا من تلك الحيرة إلا البكاء؛ فجاشت خواطرها وهمت بالبكاء، ثم أمسكت عواطفها تجلداً وسكتت تغالب نفسها، وأطرقت لا تبدي حراكاً؛ وأظهرت أنها تتفرس في جلد أسد مفروش هناك .

فلم تبال أم الأمراء بسكوتها فأتمت كلامها قائلة: « ومع ذلك فقد سمعت قائدنا جوهراً يطري شجاعتك وثباتك في حومة الوغى؛ فما لي أرى فيك هذا الضعف الآن؟» .

فلم تعد لمياء تستطيع التمالك، فتنهدت تنهداً عميقاً، ورفعت عينيها إلى أم الأمراء والدمع يتلألأ فيهما، وجثت أمامها وقالت وهي تغص بالكلام: « لقد غمرتني بلطفك يا سيدتي؛ إني لا أستحق هذا الالتفات؛ نعم لا أستحق النعمة التي تعرضينها عليّ ولكنني، آه، لا أملك قياد قلبي؛ سامحيني على هذا التصريح . لقد رأيت من عطفك ولطفك ما يخولني الدالة

عليك وإن خالفت العادة والطبع. إني يا مولاتي لا أملك من نفسي شيئاً؛ نعم إني شجاعة في الحرب لا أهاب لقاء الأبطال، ولكنني مع سالم ضعيفة؛ فإذا ذكرته شعرت بانحلال عزائمي وخفقان قلبي؛ أهذا ما يعبرون عنه بالحب؟ وقد سألتني إذا كان يحبني فكيف لا يكون كذلك وأنا لا أرى للحياة قيمة بدونه». ولما وصلت إلى هنا انتبهت لنفسها، وأحست أنها تورطت في التصريح بما لا يجوز لمثلها، وانما غُلبت على عواطفها فلم تملك إمساك هواها؛ وخجلت من أم الأمراء، فحولت وجهها نحو الحائط، وأخذت في البكاء، وقد بكت هذه المرة أسفاً على ضعفها، وتطلعاً إلى رؤية حبيبها سالم وهي لا تعلم أين هو.

أما أم الأمراء فاستغربت تعلق لمياء بخطيبها، ولم تكن تتوقع أن ترى منها ثباتاً في حبه إلى هذا الحد؛ فلما آنست منها ذلك قالت: «يسرني يا بنية أنك تحبين خطيبك إلى هذا الحد؛ فإن المحبة من أكبر النعم؛ وأطلب إلى الله أن يجمعك به، وإذا رأيت أني أستطيع مساعدتك في ذلك قولي؛ أما الحسين فإني استمهله لنرى ما يكون - إذ لا يعلم ما في الغيب إلا الله».

فهمَّت لمياء بتقبيل يدها شكراً على صنيعها، فأبت عليها ذلك، وقبلتها في رأسها ونهضت وهي تقول: «قد تعودت أن أذهب في مثل هذه الساعة إلى مقعد لي يشرف على قاعة أمير المؤمنين التي يقابل الناس فيها حيث أطل عليها من وراء حجاب، فأشاهد مجلس الأمراء، وأسمع ما يدور، بينهم فإني شديدة الاهتمام بشؤون الدولة».

فأعجبت لمياء بعلو همتها وقالت: «سمعت ذلك عنك، وهل ترين بأساً من أن أكون معك؟».

قالت: «لا، فإني أستأنس بك».

ومشتا في دهليز إلى غرفة في أحد جدرانها مقعد على دكة يُصعد إليه ببضع درجات وراء ستر يحجبه؛ وفي الستر ثقوب إذا شاء الجالس أن يشرف على من في القاعة من الكبراء رآهم وسمع أقوالهم؛ فأخذت أم

الأمراء بيد لمياء وأجلستها بجانبها على المقعد وقالت لها: « أنظري من هذا الثقب». فنظرت فإذا هي تشرف على مجلس الخليفة من أعلى الحائط بحيث ترى الجلوس هناك ولا يرونها.

رأت قاعة واسعة فُرشت أرضها باللبود، وقد جلس المعز لدين الله في صدرها على منصة كالوسادة الصغيرة، وهو في لباس بسيط إذا قيس إلى ما يلبس الملوك والخلفاء، وعلى رأسه العمامة، وعلى كتفيه برنس كالعباءة يغطي أثوابه؛ وقد التف به وقعد الأربعاء قعود من أتعبه العمل، فتربع وألقى كوعه على فخذيه، وإلى جانبه حسام مغمد وفي يمينه قلم، وفي يساره ورقة من الكاغد ينظر اليها، وكاتبه واقف أمامه ينتظر أمره، وبعد أن تأمل المعز الورقة وضع القلم بجانب دواة بين يديه، ودفع الورقة إلى الكاتب وأشار إليه أن يذهب، ثم تنفس الصعداء وقال: « إذا شاء الأمراء والمشايخ أن يدخلوا فليتفضلوا».

فلما سمعت أم الأمراء قوله قالت للمياء: « إنه يدعو مشايخ كتامة وصنهاجة وهوارة، وهم رجال دولته من أمراء البربر، ولعله يريد النظر في أمر هام».

فسرَّت لمياء لهذه الفرصة لترى كيف يُعقد مجلس الملوك؛ وما لبثت قليلاً حتى رأت جماعة من المشايخ والأمراء دخلوا وألقوا التحية بصوت عال كالعادة. وأشار إليهم المعز فقعدوا على وسادات مثل وسادته محيطة بالقاعة، وجعلت لمياء تتفرس فيهم، فرأت بينهم وجوهاً تعرفها من قبل، ولما استقر بهم الجلوس، جعل المعز يرحب بهم وهم يدعون له ثم قال: « قد تكبدتم المشقة في المجيء إلينا، وانما دعوتكم لأريكم ما نحن فيه من العمل، إن بعض الذين لا يعلمون يتصورون الإمامة وسيلة إلى الراحة والتنعم والانقطاع عن العمل، وإنها لكذلك لمن شُغلوا بالترف عن مصالح الدولة كصاحب بغداد وصاحب قرطبة وأمرائهم في الأطراف، ممن شغلتهم الدنيا عن الإمامة، فانغمسوا في الملذات، وتقلبوا في الديباج والمسك

والخمر؛ وأما أنا فقد دعوتكم لأريكم كيف ينبغي أن يكون الإمام، انظروا إلى هذا الكساء والجبة، وإلى ما أنا جالس عليه من اللبود، وهذه الأبواب مفتَّحة تفضي إلى خزائن الكتب، وأنا أشتغل بمكاتبة الأطراف بيدي، لا ألتفت إلى أمور الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويقمع أضدادكم؛ فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم».

فتصدى شيخ منهم وقال: «إن أمير المؤمنين قدوتنا ونعم المثال هو».

فقال: «إذا فعلتم ذلك يقرِّب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب، انهضوا رحمكم الله ونصركم».

فوقفوا وحيَّوه وخرجوا وقد امتلأت قلوبهم هيبة، ولمياء تعجب لتعجيله صرفهم، وأدركت أم الأمراء ذلك فقالت: «لا بد لسرعة صرفهم من سبب، فقد تعودت أن أجلس هنا ساعات أسمع مباحثاتهم».

ولم تتم كلامها حتى سمعت المعز يصفق ويقول: «خفيف!»؛ فحضر غلامه فقال: «ذكرت لي منذ هنيهة أن قائدنا يطلب أن يرانا على حدة؛ فأسرعنا في صرف شيوخ كتامة لنتفرغ له؛ ادعه».

فخرج الغلام وهمست أم الأمراء قائلة: «هذا هو السبب في سرعة صرفهم؛ إن جوهراً قادم إليه، لله دره من رجل باسل».

فلما سمعت لمياء اسمه تذكرت أنها رأته في الحديقة مع أبيها، وخطر لها أنها رأته أيضاً مع ابنه الحسين، فخفق قلبها لأنها أصبحت تخاف أن تراه بعد أن دار ما دار بينها وبين أم الأمراء بشأنه.

-٤-

الخطبة . . . والمعارضة

ما كادت لمياء تفكر في ذلك، حتى رأت جوهراً في وسط القاعة وقد أمسك بيده أباها حمدون، وأخذ يقدمه إلى المعز بقوله: «أقدم لمولانا أمير المؤمنين الأمير حمدون صاحب سجلماسة صديقنا الجديد».

فنظر المعز إليه وابتسم ابتسامة الملوك وقال: « أهلا بصديقنا، أرجو ألا يكون في خاطره شيء علينا».

فأسرع حمدون وترامى بين يدي المعز كالمستغيث، وقد فعل ذلك مبالغة في التزلف وقال: « لقد أسعدنا الحظ بهذه الصداقة، وهي شرف لنا، ولو عرفنا مناقب الامام من قبل لجئناه بغير حرب».

فأنهضه المعز بيده، وأشار إليه أن يجلس بجانبه على وسادة، وهو يرحب به ويبتسم؛ وأشار إلى جوهر أن يقعد، فقعد وهو مسرور من نجاح مهمته بتقريب هذا الأمير للطاعة لأنه صاحب جاه واسع وحزب كبير.

جلس حمدون مظهراً التأدب في حضرة المعز، وعيناه تجولان خلسة في أطراف القاعة لا تستقران على حال كأنهما عينا لص؛ على أنه كان في وجهه هيبة الأمراء.

أما لمياء فلما رأت أباها هناك سُرَّت لتقربه من المعز، لأنها كانت تعلم ما في خاطره عليه، وانه لم يكن أثقل على قلبه من ذلك الأسر، فسرَّها أنه رضي بارسالها إلى بيت الخليفة، وزاد سرورها أنه تقرب منه؛ هذا إلى اعتقادها أن المعز من نسل فاطمة الزهراء، وقد شبت على حب الشيعة والانتصار لهم.. وكان همها بعد ذلك أن يأتي سالم ويتقرب إلى المعز فيتم لها السرور؛ وهي إن كانت بفطرتها عزيزة الجانب ميالة إلى استقلال الرأي، وقد حاربت في سبيله ولم تستسلم إلا قهرا؛ لكنها لم تكن راضية عن أعمال أبيها، فإن بين أخلاقها وبين أخلاقه بونا عظيما؛ وقد لقيت من المعز وامرأته كل رعاية واكرام، فوطَّنت النفس على التفاني في مصلحتهما، وانما ينقصها العثور على سالم، واقناعه بأن يستسلم ويصطلح؛ ومع علمها بتحرج موقفه كانت تعتقد أنها تقدر أن تتغلب عليه بالدالة والبرهان.

أما المعز فالتفت إلى جوهر لفتة صديق معجب بصديقه وقال: « يسرني أن تجتمع كلمة شيعتنا على المطالبة بحقوقنا».

فقال جوهر: « إن ذلك يسير بتوفيق مولانا أعزه الله، وأنا أعدُّ حلف أمير

سجلماسة الباسل فألا مباركاً، لأنه رجل حرب؛ وله أعوان يتفانون في نصرته فبمثله يعتز المُلك».

فقال حمدون: «إني أفاخر سائر الأمراء بهذه الحظوة بين يدي أمير المؤمنين، وقد أصبحت الآن سيفا من سيوفه أناضل عنه إلى آخر نسمة من حياتي، أقول ذلك عني وعن رجال قبيلتي».

فابتسم المعز وقال: «إنك إذ تفعل ذلك إنما تنصر الحق كما أنصره أنا، وإن إمامتي لا تميِّزني من رجالي بشيء من مرافق الحياة، بل أنا أكثرهم تعباً وسهرا كما ترى مما بين يديَّ من الأعمال، إني أعمل بيديَّ ما لا يعمله صاحب بغداد ولا صاحب قرطبة، وأنظر في كل شيء بنفسي، لا أقول ذلك افتخاراً ولكنني أقول الحق؛ فما أنا إمامكم إلا بما خصني به الله من النسب الطاهر، وأما فيما خلا ذلك فأنا واحد منكم!».

فقال حمدون وهو يظهر الاخلاص: «إني أحمد الله على ما منَّ عليَّ به من نعَم، وسيرى مني أمير المؤمنين ما تقر به عينه وتنبسط نفسه».

فأبرقت أسرَّة جوهر فرحاً بنجاح مسعاه، ونظر إلى المعز نظرة فهم المعز مراده منها؛ فالتفت إلى حمدون متحببا وقال: «وما أنا بقانع لأمير سجلماسة بما أردته لغيره من الأمراء المقربين، بل أنا أحب أن أختصه باكرام لم ينله سواه؛ أنت تعلم منزلة قائدنا جوهر حامي حمى هذه الدولة؛ إنه صاحب المنزلة الأولى عندنا فنحب أن نزيد أسباب القربى بينك وبينه؛ هي قربى لنا أيضاً».

فأدرك حمدون غرضه ولكنه تجاهل وقال: «إن أمر مولانا مقبول على الرأس والعين، فليأمر بما يراه».

قال: «نحب أن نخطب ابنتك لمياء إلى الحسين ابن قائدنا جوهر، وهو من خيرة الشبان، فهل توافقني على ذلك؟».

فأجاب حمدون بقوله: «إن هذا شرف عظيم لنا يا سيدي، إن لمياء لا تستحق هذه النعمة لأن جوهراً حفظه الله قدوة القواد، وإن لمياء جارية أمير

المؤمنين يضعها حيثما يشاء، لأمير المؤمنين الأمر وعلينا الطاعة».

***

كانت لمياء تسمع كلام المعز مع أبيها من وراء الستر، وهي تخاف أن يفضي إلى اتفاقهما على الخطبة؛ فلما وقع ما كانت تحذره، أجفلت وارتبكت والتفتت إلى أم الأمراء لفتة مستغيث؛ فضمتها إلى صدرها ولم تزد، فرفعت لمياء رأسها لتنظر في عينيْ أم الأمراء لعلها تفهم مرادها من ذلك التحبب، فرأتها تضحك ضحك من ظفر بغنيمة، فاشتبه عليها أمرها، وهي لا تدري ماذا تعمل، وأخذتها الرعدة وترقرق الدمع في عينيها.

فهمست أم الأمراء في أذنها قائلة: «لم تقبلي ذلك الطلب مني فها قد اتفق عليه أبوك وأمير المؤمنين، فهل من سبيل إلى الرفض؟».

فأجابتها لمياء بهز رأسها هز الإنكار ولسان حالها يقول: «إني لا أزال على عزمي».

فأشارت أم الأمراء بسبابتها على فمها وهمست قائلة: «فلنصبر الآن وسنرى».

فسكتت لمياء، ثم سمعت المعز يقول لأبيها: «بارك الله فيك إني أهنئ ابن قائدنا بهذه الفتاة كما أهنئها به، لأنه من خيرة الشبان فعسى أن تكون راضية بذلك؟».

فقال حمدون: «إنها لا شك راضية، كيف لا ترضى بما رضي به لها أمير المؤمنين ووافق عليه أبوها؟».

فلم تعد لمياء تصبر على سماع ذلك، فنهضت تريد الانزواء نفورا من ذلك الحديث، فأمسكتها أم الأمراء وأجلستها، فأطاعت وسكتت وهي تكاد تتميز غيظاً ولا تعلم ماذا تعمل.

أما المعز فتزحزح عن مجلسه اشارة الانصراف؛ فوقف جوهر وحمدون واستأذنا في الانصراف، فأذن لهما وهو يقول: «نترك تعيين وقت العقد لقائدنا، ونحب أن يكون ذلك في حضرتنا اكراماً للعروسين».

فانصرفا وتركا لمياء على مثل الجمر، وقد جمد الدم في عروقها وتولتها الدهشة، وحق لها ذلك فإنها مع شدة تعلقها بسالم لا ترى مندوحة عن طاعة أمير المؤمنين وأبيها.

ثم نهضت أم الأمراء وأخذت لمياء بيدها تخفيفاً عنها، وقد شعرت بما هي فيه من الارتباك، فمشت لمياء معها وهي مستغرقة في الهواجس لا تنبس ببنت شفة.

حتى إذا وصلتا إلى حجرة أم الأمراء، استأذنت لمياء في الانصراف إلى الغرفة التي أُعدت لمنامها، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، فدعتها أم الأمراء إلى البقاء عندها، فاعتذرت بصداع شديد لا ترى وسيلة للتخلص منه بغير النوم، فأذنت لها لئلا يؤثر الضغط في نفسها، وأضمرت أن تتفقدها بعد هنيهة.

سارت لمياء وهي تتعثر بأذيالها، ولم تبلغ غرفتها حتى أحست بتخاذل قواها، فاستلقت على فراشها وقد انقبضت نفسها، وزادها غروب الشمس انقباضاً؛ وأخذت تفكر فيما هي فيه من الضيق، فرأت أنها لولا حبها سالماً لكانت في سعادة لا مثيل لها، لأنها ستخطب لابن أكبر القواد على يد أحسن الخلفاء في دار الملك، وقد تقربت من أم الأمراء وتصادقتا، وهي تشعر أن هذه الملكة تحبها حقيقة؛ فلولا تعلقها بسالم لكانت أسعد الناس حالاً، وأرادت أن تقنع نفسها بتركه والرضا بتلك النعم فلم تستطع.

وأخذت تغالب عواطفها وتخاطب نفسها وهي جالسة على الفراش قائلة: «لعل أم الأمراء مصيبة في قولها عن الرجال إنهم لا يحفظون ذماما؛ ولكن سالما ليس مثل سواه، كيف أفكر في غيره وقد تعاقدنا، لله ما هذه الأفكار الشيطانية، ليس في الدنيا أكبر نفسا وأجمل خلقا من سالم، ليست السعادة بالمال ولا في الجاه، وإنما هي في الحب، ومهما تعاندني صروف الدهر فحسبي أني إذا تذكرت سالماً شعرت بلذة وراحة لا مثيل لهما؛ ما أجمل الحب وأحلاه، ولكن هل يحبني سالم كما أحبه؟».

وفيما هي في ذلك طرق الباب فأجفلت، فرأت صقلبيا يحمل مصباحاً وقف بالباب وقال: « إن مولاتي أم الأمراء أمرتني أن أنير لك هذا المصباح». ووضعه على رف في الحائط مصنوع لهذه الغاية ثم سأل: « هل تأمرني مولاتي بأن آتيها بطعام العشاء؟».

قالت: « إني لا أشعر بالجوع، وأرجو أن تبلغ مولاتنا أم الأمراء شكري على أفضالها».

فانحنى وهمَّ بالخروج، فاستوقفته وقد خطر لها خاطر جديد فقالت: «هل أنت من خدم هذا القصر؟».

قال: « نعم يا سيدتي هل تحتاجين إلى شيء؟».

قالت: « أحب أن أرى مولاتنا أين هي؟».

فقال: « هي هنا يا سيدتي». وتنحّى.

فاستغربت قوله؛ وإذا بأم الأمراء بالباب، فبُغتت لمياء لوجودها هناك وقالت: « كيف حضرت يا سيدتي؟ وأين كنت؟».

فضحكت وأشارت إلى الخصي فانصرف، وضمت لمياء إلى صدرها وقبلتها وقالت: « أتظنين أني غافلة عما أنت فيه؟ لقد أذنت لك بالانصراف إلى مخدعك وقلبي يراعيك، ولم أتمالك على أن أجيء بنفسي لأراقب حركاتك؛ وإنما أرسلت الصقلبي قبلي ليرى هل أنت نائمة».

فلما سمعت كلامها أكبت على يديها وجعلت تقبلهما قائلة: « بالله يا سيدتي ما هذه النفس الكريمة؟ وما هذه الأخلاق العالية والحنو الكريم؟ هل أستحق منك هذه العناية؟ إن شعورك معي في ضائقتي قد خففها». وسكتت وهي تدعو أم الأمراء للجلوس على فراشها.

فأجابتها: « قلت لك إني أحببتك، ولم أقل ذلك جزافا؛ ثم اني أعلم الناس بما يكنه قلبك فقلت لنفسي: لعلي إذا جئتها وكانت مضطربة أن أخفف عنها شيئاً».

فتنهدت لمياء وسبقتها العبرات وقالت: « لقد خففت عني كثيرا

ولكن . . . » .

فمسحت أم الأمراء دموع لمياء بمنديلها وقالت : « إنك يا بنية قد حمَّلت نفسك التعب باختيارك ، إن النصيب الذي جاءك لو عرض على أحسن نساء العالمين لفرحت به وأنت لا . . » واستغنت عن التصريح بالاشارة .

فقالت لمياء : « هذا كله أعلمه ، وقد حاولت أن أقنع نفسي فلم أستطع ؛ إني ضعيفة مسكينة ؛ آه من الحب ؛ سامحيني يا سيدتي على هذه الحرية في كلامي ؛ أردت أن أقنع نفسي بأن ما يريده لي أبي سعادة لا ترد ، فشعرت بقشعريرة ارتعدت لها فرائصي ؛ لا أقدر لا أقدر أن أتسلط على نفسي ؛ إني لا أملك رشدي ، يظهر أني مجنونة » .

فضحكت أم الأمراء وأخذت تداعبها وقالت : « هل تشكين في ذلك؟ ألا تعلمين أن العلماء يسمون الحب الشديد جنوناً » .

قالت : « مهما يكن فإني لا أستطيع التخلص من هذه الهواجس ؛ بالله أشفقي عليَّ وارفقي بي » .

قالت : « إني سأعمل على هنائك ، نعم أحب أن تكوني من نصيب الحسين بن جوهر ، ولكني أفضل راحتك ؛ فإذا كنت تظنين أني أستطيع مساعدتك في شيء قولي » .

فأطرقت تفكر وسبابتها على شفتها السفلى ، وأم الأمراء تنظر إليها وتنتظر ما تقوله ، ثم رفعت لمياء بصرها إليها وقالت : « إني أطلب إلى مولاتي أمراً لا يصعب عليها ؛ أحب الذهاب إلى أبي لأراه وأباحثه في الأمر الذي عُرض عليه اليوم ، لعله يعفيني منه إذا علم بما في خاطري ؛ وأنت تكملين فضلك بارجاع أمير المؤمنين عن عزمه » .

ففكرت أم الأمراء لحظة وهي تعلم أن زواج لمياء بالحسين يراد به اكتساب قلب حمدون ، فضلا عن تكافؤ العروسين ، فلم تشأ أن تعدها باقناع زوجها لكنها طيبت خاطرها وقالت : « لك عليَّ ذلك ، ومتى تذهبين إلى أبيك؟ » .

قالت: « الآن يا سيدتي؛ إني لا أستطيع رقادا إن لم أره وأباحثه».

قالت: « كيف تذهبين الآن وقد داهمنا الظلام، وأبوك في معسكره خارج المنصورية وقد أقفلت الأبواب؛ ومثلك لا يؤذن في خروجها من هذا القصر».

قالت: « أخرج متنكرة وأنا لا أبالي الظلام، وكل ما أرجوه أن تأمري لي بثوب أحد الصقالبة خدم القصر لألبسه وأخرج بحجة رسالة أحملها من أمير المؤمنين إلى صاحب سجلماسة».

ففكرت أم الأمراء لحظة ثم قالت: « ذلك هيِّن عليَّ، ولكنني أخاف أن يرتاب حراس الأبواب في أمرك».

قالت: « لا تخافي».

فقالت: « هأنذا ذاهبة إلى حجرتي وبعد قليل تعاليْ إليَّ لتجدي الثوب حاضراً».

فأكبت على يدها لتقبلها شكرا على هذا الصنيع، فمنعتها أم الأمراء من ذلك وتركتها وخرجت.

***

انتظرت لمياء برهة، ثم مشت إلى أم الأمراء فرأتها قد أعدت لها الثوب، فلبسته وأصلحت من شأنها حتى لا يشك من يراها أنها غلام صقلبي، ثم ودعتها، فأرشدتها أم الأمراء إلى الطريق الأقرب المؤدي إلى باب المدينة.

فمشت بقدم ثابتة لا يعتريها خوف، فمرت في الحديقة دون أن يعترضها أحد، وأهل القصر مشغولون بمهامهم، حتى وصلت إلى باب البلد؛ فإذا هو موصد والحراس وقوف عنده بأسلحتهم، فطلبت إليهم أن يفتحوا لها الباب لأنها ذاهبة في مهمة عاجلة إلى معسكر أبيها، ففتحوه ولم يشك أحد في أنها رسول صقلبي.

ففرحت بانطلاء حيلتها وخرجت إلي الخلاء، ونظرت إلى اتجاه

معسكر أبيها فعرفت مكانه من النار الموقدة عنده، فمشت بسرعة والظلام حالك، والمكان خال وكل شيء هادئ، فلم تمش غير يسير حتى رأت شبحاً طويلاً يدنو منها بهدوء وعليه عباءة سوداء قد التف بها، فتحولت عن جهته لئلا يعترضها، فوقف لها ونادى: « من الرجل».

فقالت: « رسول من أمير المؤمنين إلى هذا المعسكر».

فقال: « قف عندك».

ولما سمعت الصوت اقشعر بدنها لأنها تذكرت صوتا تعرفه، لكنها تجلدت وتجاهلت وقالت: « دعني.. إني ذاهب في أمر مستعجل».

فناداها قائلاً: « لا يخرج الرسل من القصر ليلاً».

قالت: « إنها رسالة عاجلة، وقد رآني الحراس بالباب ولم يعترضوني».

قال: « أنا أعترضك، قف عندك أو تعال معي إلى النور لأرى وجهك.. إني أعرف غلمان القصر جميعاً».

فتحيرت في أمرها وتفرست في مخاطبها، وأخذت تفكر فيمن عساه أن يكون، وصوته يشبه صوت الحسين بن جوهر، واستبعدت أن يكون هو هناك وليست الحراسة من شأنه؛ فتجاهلت وظلت ماشية وهي تقول: « إني ذاهب في مهمة سرية ولا يجوز للحراس أن يطلعوا عليها ولا أن يعرفوا من أنا».

قال: « إذا كان ذلك لا يجوز لسواي فهو جائز لي»؛ قال ذلك ومد يده يريد أن يمسك بيدها فنفرت منه وخبأت يدها وراء ظهرها وقالت: « قل لي من أنت؟».

قال: « أنا الحسين بن جوهر».

فلما علمت أنه بعينه ارتجَّ عليها، ولم تخف على نفسها منه، ولكنها خافت كشف سرها، فحولت وجهها عنه ومشت وهي تقول: « لا نعهد الحسين إبن أكبر القواد ينتحل الحراسة ليتعرض لرسول أمير المؤمنين،

دعني وشأني وإلا عادت عاقبة إبطائي عليك».

فاعترضها وهمَّ بأن يمسك يدها فأفلتت منه فقال لها: «ليس من شأنك أن تعيّن لكل إنسان مهمته، نحن جميعاً نخدم أمير المؤمنين نضرب بسيفه ونحرس قصره، دع عنك ذلك واتبعني، وإذا كنت رسولا كما تزعم فلا خوف عليك، . بل أكون لك عونا في ابلاغ الرسالة».

فلم تجد لمياء بداً من الطاعة فقالت: «هأنذا وقفت، ما الذي تريده مني، إكشف اللثام عن وجهك أولاً ثم تكلم».

فأزاح اللثام فإذا هو الحسين بعينه، فخفق قلبها واستغربت تلك المصادفة وقالت: «نعم أنت مولانا الحسين بن جوهر، فما الذي تريده مني؟».

قال: «إني لا أرى وجه صقلبي، ولا أسمع صوت صقلبي إني أسمع صوت امرأة».

فضحكت استخفافاً وقالت: «أرأيت أنك مخدوع؟ فحسبتني امرأة وأنا غلام».

قال: «إذا كنت غلاماً صقلبياً فاصدقني ولا تخف».

فسقط في يدها ولم تجد بدا من التصريح فقالت: «أنظر في وجهي جيدا».

فتفرس فيها على شعاع النور وقال: «أنت فتاة، وكأني رأيت هذا الوجه صباح هذا اليوم؛ ألست لمياء بنت صاحب سجلماسة؟.

فلم تطاوعها نفسها عن الانكار فقالت: «نعم أنا هي وما الذي تريده مني؟».

فتنهد وابتسم ثم قال: «إن ما أريده منك ليس هنا مجال الكلام فيه يا لمياء، وأطمئنك فلا خوف عليك مني لسبب تعلمينه، وإنما أعجب لخروجك في هذا الليل متنكرة، ومثلك لا يؤذن لها في الخروج من قصر أمير المؤمنين؛ كيف خرجت؟».

قالت: « ألم أقل لك إني خارجة في مهمة لصاحب سجلماسة».

قال: « أنت ذاهبة لأبيك؟».

قالت: « نعم، ها قد قلت لك، فأنت وشأنك».

قال متوددا: « إن شأني شأن المأمور المطيع يا لمياء؛ ولو كان الخارج في هذا الليل سواك لكانت حياته في خطر، أما أنت فإني في خدمتك حتى ترجعي إلى مأمنك، إنما أرجو أن تذكري هذا لي إذا ذكِّرت به».

فشعرت أنه يحمِّلها جميلاً سيطالبها به يوماً ما فقالت: « لم أخرج من القصر في الليل وحدي وأنا خائفة من أحد، فإذا شئت أن تصر على اعتراضك سبيلي فافعل».

وكان الحسين قد علم في النهار أن أباه وأباها زارا المعز، وأنه خطبها له من أبيها ورضي أبوها، ولكنه كان على يقين من أنها لم تطَّلع على شيء من ذلك بعد، وتوسم في اجتماعها بأبيها في تلك الساعة خيراً له إذ يبلغها أبوها ما كان من خطبة أمير المؤمنين لها من أبيها فقال: « قلت لك إن شأني معك أن أكون في خدمتك حتى تبلغي مأمنك وتجتمعي بأبيك؛ ولعلك في عودتك تغيِّرين لهجتك معي».

فأدركت كل ما جال في خاطره وفهمت ما يشير إليه، لكنها تجاهلت وقالت: « إني لن أذكر ابن القائد جوهر بعد هذه المكارم إلا بالشكر والثناء في كل حال؛ فهل تأذن في انصرافي الآن».

قال: « نعم، ولكنني أكون في خدمتك لئلا يعترضك سواي، فإن في هذه الطرق حراسا آخرين أقامهم أبي سرا حرصا على سلامة أمير المؤمنين، ولا أحب أن يعرف أحد منهم ولا سواهم بخروجك، ولا أريد أن يخاطبك أحد، ولا أن يقول لك كلمة ولو كانت سلاما واحتراما؛ إني أكثر حرصا عليك منك». قال ذلك متحببا.

فظلت على تجاهلها وقالت: « بارك الله فيك وفي مروءتك، وأحب أن تكتم ما رأيت عن كل أحد كأنك لم تشاهد أحداً».

فاستأنس بهذه الوصية واستدل منها على ميل إليه وقال: « قلت لك إني أحرص عليك منك، وهذا يكفي».

فلم تجبه ولكنها مشت، ومشى هو في أثرها عن بعد حتى دنت من معسكر أبيها.

وكان ذلك المعسكر خياما مضروبة أكبرها فسطاط الأمير، فلما دنت من الفسطاط صاح بها رجل من الواقفين للحراسة: « من القادم».

فظلت على تنكرها وقالت: « رسول من أمير المؤمنين إلى الأمير حمدون».

فنظر في أثوابها فحسبها غلاماً صقلبياً فدخل ليستأذن لها.

وكان حمدون قد عاد بعد مثوله بين يديْ الخليفة وصدره مملوء بالأماني، وخلا إلى صديقه أبي حامد فترة طويلة ودعاه للعشاء معه فقضيا ساعات يتساران لا يُؤذن لأحد في الدخول عليهما؛ فلما دخل الحرسي يستأذن لرسول أمير المؤمنين قال حمدون: «ماذا عسى أن يكون أمر هذا الرسول؟ فليدخل».

فدخلت لمياء ولم تقع عين أبيها عليها حتى عرفها، فهّم بأن يناديها، فأشارت إليه بالسبابة على فمها أن يكتم أمرها؛ فأشار إلى الحاجب أن يخرج ويبعد سائر الحجاب عن الفسطاط.

وكان فسطاط الأمير حمدون خيمة كبيرة من الأدم المدبوغ بلون أحمر، وقد فرشت ببساط كبير حمله معه من سجلماسة، وهو في الأصل مجلوب من اسبانيا مما كان أمراء الأندلس يفرشونه في قصورهم، فقد كان أيام امارته يقلدهم في أسلوب عيشتهم، والخيمة قائمة على ستة أعمدة علقوا عليها الأسلحة والدروع وأنيرت أطراف الفسطاط بالمصابيح.

فدعا لمياء للجلوس على وسادة بجانبه، وأخذ يرحب بها، وأبو حامد إلى جانبه الآخر؛ وهو كهل قصير القامة دقيق العضل كبير الرأس بارز الجبهة خفيف اللحية، قد برز فكاه ونتأت سنَّاه المتوسطتان من فكه الأعلى

نتوءا كثيرا وافترقا، وله عينان غائرتان متقاربتان تبرقان دهاء ومكرا، وكأنهما مصباحان متجاوران قد اختلط نورهما، وفي احداهما انحراف نحو الأعلى، وبينهما أنف كبير أعقف كأنف النسر، وقد أرسل شاربيه على شفتيه ليخفي سنَّيْه البارزين، وأهمل لحيته الخفيفة بلا تمشيط؛ وكان قد تخفف بلباس الليل وغطى رأسه بلبدة سوداء زادت تلك السحنة غرابة، إذا لقيه الرجل استخف به، ثم لا يلبث عندما يخاطبه حتى يهابه لقوة عارضته وفصاحة لسانه.

فلما رأى حمدون يرحب بلمياء شاركه في الترحاب، وهش لها وسبق أباها إلى مخاطبتها فقال: « بارك الله فيك لقد جئت في إبان الحاجة إليك؛ ولكن ما الذي جاء بك في هذا الليل؟ ».

فضحك أبوها وقال: « يظهر أن أرواحنا تخاطبت عن بعد ».

فقالت لمياء والاهتمام باد في عينيها البراقتين: « جئت يا سيدي لأمر أهمني كثيراً ».

قال وهو يبتسم: « لعلهم أنبأوك بما دار بيننا وبين المعز في هذا الصباح ».

قالت: « لم ينبئوني ولكنني سمعت الحديث بأذني ».

فتصدى أبو حامد للكلام قائلاً: « أهنئك يا لمياء بهذا النصيب الحسن »؛ فنظرت إليه نظرة عتاب وقالت: « وأنت تقول ذلك أيضاً؟ ».

قال: « وكيف لا أقوله؟ »؛ ونظر إلى أبيها كأنه يستشيره.

فقال حمدون: « نعم يحق لنا أن نهنئك يا بنية، فإن هذا النصيب لا يتأتى لأحد من أهل القيروان! ».

فالتفتت إلى أبي حامد وقالت: « وسالم؟ ». وتوقعت أن تفحمه بذلك الاعتراض.

فقال: « سالم؟ وسالم أيضاً يفرح لك بهذا النصيب! ».

فدهشت لهذا الجواب وقالت: « سالم؟ لا. لا أظنه يفرح ولا أنا فرحت

به».

فالتفت أبوها إليها لفتة استغراب وقال: « وأنت لم تفرحي به؟ يا لله ما الذي تتوقعينه أحسن من هذا؟».

قالت: « أتوقع أن . . ». وغلب عليها الحياء فسكتت.

فقال أبو حامد: « إن كنت ترفضين هذه النعمة لأجل سالم، فأنا أضمن ارتياحه اليها».

قالت: « سالم لا يرضى أن أكون لسواه؟ كلا».

فضحك أبو حامد ملء فيه وهز رأسه استخفافا وقال: « إنك تنظرين إلى هذا الزواج من وجه واحد فقط».

فاستغربت هذا التعبير وقالت: « وهل ينظر في هذا الأمر من وجوه عدة؟».

فأخذ حمدون وأبو حامد ينظر كل منهما إلى صاحبه ويضحك؛ وأغرق أبو حامد في الضحك حتى كاد يستلقي على قفاه وقد برز سنَّاه من بين شعر شاربيه؛ فشق ذلك على لمياء فابتدرها أبوها قائلاً: « ألا يكفي لقبولك هذا النصيب أن يكون قد تم الاتفاق عليه بين أبيك وبين أمير المؤمنين؟ وإذا كنت لا تبالين رأي أبيك، ألا تهابين أمر الخليفة»، . قال ذلك بلحن العتاب والتوبيخ.

فخجلت من هذا التعريض لكنها لم تقتنع، فسكتت وأطرقت وفي سكوتها انكار، فتصدى أبو حامد وهو يظهر التلطف والاهتمام، ويتشاغل باصلاح غطاء رأسه وقال لها: « أنا لا أشك في تعقلك وحكمتك، ولذلك فأنا أخاطبك بصراحة، أؤكد لك أن سالماً لو كان معنا الآن لأمرك أن تطيعي أباك وتقبلي ما عرض عليك؛ ليس لأنه لا يحبك ولكنه يرجو من ذلك خيرا لنا جميعاً».

فلما سمعت قوله استغربت ما فيه من التلميح، ولم تفهم مراده، وهي تعلم أن سالما إذا كان يحبها لا يرضى أن تكون لسواه، ولو أُعطي مال العالم

كله، ولم تفهم ما هو النفع الذي يرجوه من قبولها، فوقعت في حيرة وظلت ساكتة وقد بان الارتباك في عينيها، فتنحنح أبو حامد، فنهض أبوها وخرج من الخيمة كأنه يريد حاجة عرضت له؛ فبقيت لمياء مع أبي حامد فانصرف بكليته اليها وقال: «أرجو أن تكوني فهمت مرادي».

فرفعت بصرها اليه وقالت: «كلا يا سيدي، أعترف لك بأني لم أفهم مرادك، وأنا أعلم أن سالماً إذا كان يحبني كما تقولان لا يمكن أن يرضى بهذا الأمر، وإني أقيس ذلك على نفسي». وأطرقت وقد توردت وجنتاها من الخجل، وأخذت في اصلاح المنطقة حول خصرها كأنَّ ثوب الصقالبة قد ضايقها لأنها لم تتعوده.

فقال أبو حامد وهو يخفض صوته كأنه يسرُّ لها أمراً هاماً: «إني أجلُّ ذكاءك على أن يخفى عليك مرادنا؛ أم أنت راضية بالقعود أسيرة كالجارية في بيت ذلك الأمير المغرور».

قال ذلك وفي صوته ما ينم عن الإحتقار؛ فتذكرت لمياء ما كانت تعلمه من نقمته على المعز من قبل؛ ولكنها كانت تحسبه قد اقتنع بما صار لعجزه عن مناهضته؛ وأحست لمَّا سمعت من أسلوب تعبيره بغيرة هبت في صدرها للدفاع عن نفسها وعن المعز فقالت: «لم أكن أتوقع منك يا عماه ما سمعته فما أنا جارية ولا المعز مغرور».

فقال: «لله أنت ما أطيب سريرتك، لقد خدعوك حتى حوَّلوا قلبك عن أبيك وأهلك، وصرت تجدين الأسر عزاً والذل سعادة، أين أنفة لمياء راعية الجواد الأدهم سليلة آل مدرار أصحاب سجلماسة؟ أم غرَّك ما ناله أولئك من الظفر الرخيص؟ إنهم غير أهل للملك والتحكم في الرقاب، ألم تريْ منازلهم لا تمتاز عن منازل العامة؟ وأميرهم يجلس على اللبود ويلبس ما يلبس الناس؟ أين أبهة الدولة التي كانت لأبيك وأجدادك؟ إن آل مدرار وحدهم أهل للسيادة، وبهم وحدهم يليق الملك، أقول ذلك وما أنا منهم، ولكنني أعرف منزلتهم، ولا أهدف إلا الإنتصار للحق، ولو كان أبوك هنا

لخاطبك بمثل خطابي».

***

كانت لمياء تسمع وتعجب، ولم تستطع صبرا على السكوت فقالت: «أراك يا عماه بالغت في التقريع ولا حاجة إلى ذلك، إن المعز لدين الله لم يبلغ ما هو فيه من سعة الملك إلا لأنه أحق بهذا الأمر بما له من النسب الشريف، إنه من أبناء الرسول وقد حاربنا وحاربناه، ولو كان الحق في جانبنا لظفرنا به، وقد كنت في مقدمة المحاربين ولا أزال أحب الاستقلال؛ ولكنني لا أجد إليه سبيلا؛ وهذا أمير المؤمنين قد أكرم وفادتنا، وأحسن الظن بنا، وأخلصنا النية له فلا ينبغي أن نخونه».

فضحك ثم قطع ضحكته فجأة وقال: «لم أستغرب من قولك بأنسابهم، ولكن الإنسان إذا تغلب انتحل النسب الذي يريده؛ أما قولك إنهم تغلبوا وإن ذلك دليل على حقهم في الخلافة فهو منقوص، لأنهم لم ينالوا هذا الأمر ببطشهم، م فأنت تعلمين أن أبا عبد الله الشيعي هو الذي سلم إليهم هذا السلطان، وأنصاره هم أهل هذه البلاد؛ ثم كافأه هؤلاء الخلفاء بالقتل، أليس كذلك؟ فكيف تقولين مع هذا إنهم أكرموا وفادتنا وأحسنوا الظن بنا؟ ما الذي أكرموك به وقد ابتزوا سلطانكم، واغتنموا أموالكم ونهبوا منازلكم؟؛ يكفي ما أخذوه من قصرك من التحف والأثاث والرياش، أين جوادك بل أين مرآتك الذهبية التي كانت في غرفتك؟ أين حاضنتك التي كانت تقوم على لباسك وشؤونك؟ أين ماشطتك ومربيتك؟ ألم يكن الخدم عشرات في منزلك إذا ركبت وقفوا، وإذا مشيت تطامنوا وإذا أمرت أطاعوا؛ وكنت الملكة الآمرة الناهية لا يسمع في القصر غير أمرك ونهيك، أنسيت كل ذلك وأعجبك أن تكوني رهنا عند هذا الرجل لتوهمك أنه أكرمك وأحسن وفادتك؟ إنهم لم يكرموا أحداً مثل اكرامهم أبا عبد الله، ثم قتلوه غدرا!». قال ذلك وغص بريقه وكاد يشرق بدموعه.

فتأثرت لمياء من خطابه، وكانت تعلم غدر الفاطميين بأبي عبد الله،

لكن تعلقها بطهارة نسبهم كان يحببهم اليها، هذا مع علمها بعجز أبيها عن مناوأتهم؛ أضف إلى ذلك ما شاهدته من لطف المعز وامرأته وقائده وبقية أهل القصر؛ على أنها لما سمعت ذكر سابق عزها ومجدها وشرف أسرتها وفخامة ملكهم، تنبهت فيها شهوة الملك ونعرة السيادة، فخفت لهجتها في المقاومة، وأرادت أن تباحث أبا حامد في الأمر، وهي لا ترى بأسا من ذلك فقالت: « إن ما قلته صحيح لا شك فيه لكن ما الفائدة منه ونحن لا حول لنا ولا طول. . ».

فقطع كلامها قائلا: « هذا شيء آخر سنبحث فيه، وقد سرَّني أنك رجعت إلى ما هو جدير بك من المحافظة على شرف أبيك وعز الملك، فأنتم آل مدرار توارثتم السيادة كابرا عن كابر، وأحرزتم الملك بحد السيف لا بالحيلة وادعاء النسب الشريف».

فتحيرت لمياء لما سمعته من التناقض فقالت: « إذا كان الأمر كذلك فما بالكم ترغبونني في ابن ذلك القائد وهو مولي ابن مولى؟ ولمَ عنفتموني على ترددي في أمره».

فابتسم وقال: « إن شعرة من رأسك تساوي ملك هذا الخليفة وكل قواده، إن ذلك الطالب لا يساوي قلامة من ظفرك».

فاستغربت قوله فقالت: « لم أفهم مرادك يا سيدي».

فقال: « مرادي؟ ألم تفهمي مرادي وعهدي بك الذكاء؟ أم تتجاهلين؟ أتظنينين سالماً يرضى أن يحظى بك أحد من العالمين وهو حي؟».

فازدادت دهشتها وقالت: « قلت لكم ذلك فغضبتم علي؛ لكنني لا أزال جاهلة مرادك».

فضحك ونظر إلى باب الخيمة، وتحرك كأنه يتحفز للنهوض، فالتفتت ورأت أباها داخلا ومعه رجل ملثم ملتف بعباءة لا يبدو منه إلا عيناه. فلم تعرفه وابتدرها أبوها قائلا: « لعلك لا تزالين على تمسكك بالرفض ومقاومة أمر الخليفة وارادة أبيك»؛ قال ذلك وهو يتقدم حتى جلس في مكانه،

والرجل الملثم واقف بجانب أحد أعمدة الخيمة كأنه متكئ عليه؛ فشُغل خاطرها به وخافت أن يكون في الأمر دسيسة لكنها لم تكن لترتاب في أبيها؛ ولما سمعته يطرح ذلك السؤال عليها قالت: « ولكن العم أبا حامد يقول إنكم تبخلون بي حتى على الخليفة ولا تعطون شعرة مني بكل ملكه».

فضحك ضحكة متهكم وقال: « هل قال لك ذلك؟ هل صدقته؟ لا. لا. كيف نخرج من أسر أمير المؤمنين؛ كيف ننكر فضله علينا؟ إننا مدينون له بحياتنا»؛ قال ذلك وتنحنح، ونظرت في وجهه فرأت في عينيه معنى غير الذي نطق به لسانه؛ والعين أصدق تعبيراً من اللسان؛ فعلمت أنه يتهكم ولكنها تجاهلت وقالت: « لقد حيرتموني في أمري، فلا أدري من أصدق».

ونظرت إلى أبيها فرأت الغضب في عينيه، وهما تكادان تقدحان شرراً، وشارباه يرقصان في وجهه، وقد تعودت ذلك فيه إذا اشتد غضبه، فتهيبت وأثَّر منظره فيها، وتوقعت أن تسمع جوابه، فرأته نهض مسرعاً يتعثر بحمائل سيفه وأردان جبته، ومشى على البساط مشية ملك يتخطر تيها وعجبا؛ وليس في قدميه نعال وكان قد نزعهما بباب الفسطاط، فالتفتت نحوه وهي تراعيه في تخطُّره وتنظر خلسة إلى الرجل الملثم وقد ازدادت دهشة ولبثت صامتة، ووقع نظرها على أبي حامد فرأته ينظر إليها ويشير بسبابته على شفته السفلى أن «اسكتي لنرى».

***

ظل حمدون يخطر في الخيمة ذهاباً وإياباً وهو يلاعب شاربيْه وسيفه يجر على الفسطاط، وقد انحرفت عمامته من مكانها فلم ينتبه لها من الغضب، ثم وقف بين يديْ لمياء وقال: « لمياء يا لمياء! إلى متى تتجاهلين ومثلك لا يحتاج إلى ايضاح، وهل تصدقين أن أباك أمير سجلماسة سلالة آل مدرار السادة الفاتحين يرضى بمصاهرة عبد صقلي يباع أمثاله في الأسواق بدراهم معدودة؟ هل صدقت أننا نعير طلب صاحب القيروان التفاتا، إننا وقد وافقناه حتى يتيسر لنا ما نريد؛ لا تكوني ساذجة وأنت ابنة

حمدون صاحب سجلماسة قائدة الجند في ساحة الحرب؛ ما أسرع ما نسيت مجدنا وملكنا! أنكون أصحاب سجلماسة ونصاهر العبيد؟. لا يغرنك ما أتيح لهم من النصر، إنها فلتة لا تستقر إلا ريثما توافقينني على ما أطلبه منك، فيذهب ملكهم ونسترجع ملكنا، ونخضعهم لأسيافنا». قال ذلك وهو يرتعش من الغضب.

فتحمست لمياء وعادت إليها روح السيادة وحب الرياسة، وتأثرت مما ظهر من حماسة أبيها لكنها أعملت فكرتها فلم تجد كلامه مبنياً على شيء واضح ثابت؛ لعلمهم أنهم هناك كالأسرى عند المعز لدين الله؛ وأن جند أبيها وإن كثروا لا يعدون شيئاً في جانب جند المعز وأتباعه، ولكنها انصاعت لقوله بنفوذ الأبوة - والولد سريع التصديق لما يسمعه من أبيه ومعلمه ولو كان مستحيلا - ومع ذلك فهي لم تفهم حقيقة ما يريدونه من ذلك التناقض فقالت: « صدقت يا أبتاه، وهل ترى وسيلة لارجاع ما كان لنا من الملك؟ إني أبذل روحي في هذا السبيل».

فلما سمع قولها أكب عليها وضمها إلى صدره، وقبَّل رأسها وابتسم ابتسامة من فاز بضالة كان يبحث عنها وقال: « بورك فيك من إبنة عاقلة؛ إنك جديرة بأن تكوني ملكة سجلماسة، وستكونين كذلك بإذن الله إذ ليس لي أبناء سواك».

فأخذتها العزة بالملك حتى شغلتها عن انعطافها إلى المعز وأهله، وتذكرت ما كانت فيه من الرفعة والكلمة النافذة، إذ كانت الرؤوس تتطأطئ لها، واللحى ترتجف تهيبا منها؛ فنهضت متحمسة ووقفت بين يديْ أبيها وقالت: « انكم تخاطبونني بالألغاز والأحاجي؛ ما معنى هذا التناقض؟ قل يا أبتاه ما الذي تريدونه مني؛ وأحب أن أتحقق بادئ ذي بدء أنك قد رجعت عن الرضا بما طلبه المعز لدين الله».

قال: « أما هذا فلا أرجع عنه، إنها فرصة لا ينبغي أن نضيعها؛ فرصة ثمينة تنيلنا مرادنا إن عرفنا كيف ننتهزها».

فلم تفهم قصده: فقالت: « كيف تريدون أن أكون ملكة في سجلماسة، وتطلبون إليَّ أن أتزوج أحد أتباع صاحب القيروان؟ ».

فقطع كلامها قائلاً: « لا أعني أن تتزوجيه؛ إنَّ باعه أقصر من ذلك كثيراً؛ كيف تتزوجينه وسالم حي؟ لو بلغ ذلك سالما فماذا يقول عنا بل عنك وأنت راعية الجواد صاحبة السيف حامية حمى آل مدرار؛ أنا لا أعني أن تتزوجي ابن جوهر حقيقة، وكنا نريد أن يكون قبولك وسيلة لاسترجاع ملكنا، وسأشرح لك كل شيء فيما بعد، والآن أريد أن أعلم قبل كل شيء هل فهمت مرادي ».

قالت: « لم أفهمه بعد ».

قال: « إن مرادي أن نتخلص من صاحب القيروان وقائده، وإذا تخلصنا منهما لا يبقى في إفريقيا كلها من يقف في سبيلنا أو يمنع سيادتنا ».

قالت: « وكيف نتخلص منهما؟ ».

قال ويده على قبضة حسامه كأنه يستله: « نقتلهما! ».

فأجفلت وتراجعت واستغربت هذا التصريح وهي تعرف تهوُّر أبيها واندفاعه، ولم يكن يخطر ببالها أن يتصور قدرته على هذا العمل، ولكنها ظنت أنه لا يقول هذا إلا وهو على ثقة مما يقول؛ فالتفتت إلى أبي حامد؛ وكان لا يزال قاعداً الأربعاء ويداه متقاطعتان وقد أطرق كأنه يفكر باهتمام؛ ثم حولت نظرها إلي الرجل الملثم بجانب العمود وقالت في نفسها: « من عساه أن يكون هذا الملثم الذي شهد هذا التصريح الخطر؟ لا بد أن يكون من الأقرباء »؛ وخطر لها أن يكون سالماً نفسه، فخفق قلبها، ولم تعد تستطيع صبرا على استطلاع الحقيقة، فنظرت إلى أبيها وكان قد عاد إلى التمشي؛ فمشت نحوه حتى قبضت على يده وقالت بصوت ضعيف: « أراك تقول ما تقوله على مسمع من هذا الملثم فمن هو؟ ».

قال: « ستعلمين ذلك الآن، ولكن بعد أن توافقيني على ما قلته لك؛ إني لم أعد أستطيع صبرا على الذل؛ إنهم يكلفوننا إذا دخلنا على صاحب

القيروان أن نحييه تحية الإمارة، وأن نؤمن بكل ما يقوله، وأن ندعو له بطول البقاء، وأن نعترف بأننا عبيده الطائعون، وأننا نضرب بسيفه ونجاهد في سبيله، وأنه صاحب الحق في الخلافة، وأنه من نسل فاطمة الزهراء و. . و. . و. إن ذلك فوق طاقة البشر، نحن أصحاب سجلماسة من أجيال متوالية؛ وقد تأصلت السيادة في عروقنا فلا نستطيع احتمال هذا الذل، فإما الصدر وإما القبر».

فازدادت لمياء تحمسا بهذا القول، وتناست كل شيء في سبيل العود إلى مجدها وعزها؛ وسرَّها فوق ذلك أنهم لا ينوون إكراهها على القبول بابن جوهر بدلا من سالم حبيبها؛ فاقتنعت بهذه النتيجة وفرحت، لكنها لم تفهم سر ذلك التضاد إذ يريدونها أن تقبل الزواج بالحسين، وهم لا يسمحون بشعرة منها له؛ فكيف يتفق ذلك؟ فقالت لأبيها: «إن ما تطلبه يا سيدي هو غاية مرادي، ولا بد من تحيُّن الفرص للحصول عليه؛ أما الآن فأرجو أن تطاوعني على التخلص من طلب المعز ليطمئن بالي».

فقطع كلامها قائلاً: «لن تسنح لنا فرصة أوفق من هذه».

قالت: «وأي فرصة تعني؟».

قال: «قبولك مما طلبه صاحب القيروان؛ وقبل اتمام الزواج تذهب روحه وروح قائده وابن قائده والسلام»؛ قال ذلك على عجل ومشى مسرعاً إلى مجلسه، وقعد وهو يفتل شاربيه وتركها واقفة متحيرة، فأدركت بعض مراده، ولحظت أنه يريد أن يتخذ أمر العقد عليها ذريعة للفتك بالمعز وقائده وابن قائده، ولا يكون ذلك إلا غيلة، فأجفلت ولكنها تجاهلت ولم تشأ أن تباحثه في التفاصيل، وكأنما طاب لها أنه وافقها على التخلص من الزواج بغير سالم.

ثم عادت إلى التفكير في ذلك الملثم الواقف كالصنم لا يتحرك، فاقتربت منه وتفرست في عينيه، ولم يكن ظاهرا من وجهه سواهما، وقد وقع نور المصباح عليهما فأبرقتا، فما كادت تتفرس فيهما قليلا حتى اختلج

قلبها في صدرها وصاحت: « سالم! ».

فمد يده إلى اللثام وأزاحه فإذا هو سالم بعينه؛ فلما بان وجهه أخذتها البغتة وغلب عليه الحياء، فأطرقت وتسارعت دقات قلبها وخارت قواها على عادتها معه، ولم تكن تحسب أنه في تلك الديار.

***

كان سالم جميل الخلقة ممتلئ الجسم؛ وقد أحبته لمياء كثيراً، فلم تكن ترى فيه إلا الحسنات، ولا ترى في الدنيا أجمل منه؛ وكانت شديدة الشكيمة مع كل إنسان إلا معه؛ فإنها كانت أطوع له من بنانه؛ فلما كشف وجهه وأطرق قال لها: « بورك فيك يا لمياء، كنت أعتقد أنك تحبينني ولكن ليس إلى هذا الحد، على أني أحبك مثل هذا الحب وأكثر، ولكن لا خير في حبنا إن لم نسترجع مجدنا أو بالحري مجد أبيك وسلطانه، وهذا لا يكون إلا بتنفيذ الخطة التي يرسمها لك».

فلم تتمالك أن صاحت فيه: « وأنت أيضاً تريد أن أرضى بما عرضوه عليَّ؟». لقد عرضوا عليَّ أن أكون لرجل سواك!»؛ قالت ذلك وهي تتوقع منه أن ينكره ويعترض عليه فإذا هو يقول: « أريد ذلك إلى حين؛ وعليك أن تظهري قبولك، ثم علينا نحن أن ندبر الأمر بعد ذلك».

قال ذلك ومشى حتى قعد بجانب عمه أبي حامد، وأشار إلى لمياء أن تقعد.

أما هي فشغلها فرحها بتلك المقابلة عن كل خطر تتوقعه - ودهشة اللقاء تنسي المحبين كل شيء لاشتغال عواطفهم بالحاضر عن سواه.

ورأى أبو حامد أن المؤامرة أوشكت أن تنجح، فبادر إلى اتمام معداتها، وتزحزح عن مكانه وكأنه يستعد لحديث طويل، ثم نظر في أطراف الخيمة ولسان حاله يقول: « هل يسمعنا أحد؟». فقال حمدون: « أنت في مأمن يا أبا حامد لأني أمرت الحراس بالوقوف بعيدا وأن يمنعوا القدوم إلينا».

فمسح شاربيه ولحيته بأنامله، ونظر إلى لمياء باهتمام وقال: « قد وصلنا الآن إلى الجد يا لمياء؛ هذا هو سالم صاحب الشأن وقد سمعت قوله، وأنا غريب عن آل مدرار وإن كنت صديقاً لهم، ولكنني أبذل حياتي في سبيل نصرة الحق ومقاومة الخونة الذين نالوا السيادة بالغدر والنفاق كما تعلمين؛ فلا يغرنك ما يبدونه من التقشف، فإن الذهب عندهم بالقناطير، وإنما يخادعون الناس ليعطوهم، ثم يفتكوا بهم كما فتكوا بأبي عبد الله الشيعي!».

ثم تنهد، وعاد إلى الكلام فقال: « وهذا أبوك أولى الناس بالامارة، ولا حاجة به إلى دعوى كاذبة مثل دعواهم الانتساب إلى فاطمة الزهراء، وحسبه الانتساب إلى آل مدرار، وشرفهم معروف لا يختلف فيه اثنان، لا تظني هذا التدبير حديثا عندنا، ولعل أباك لم يقله لك، ولكننا بحثناه، ونحن في سجلماسة، ودبرنا أمورنا للتغلب على أفريقية كلها، ففسد تدبيرنا لأسباب قهرية، وأفلح ذلك الصقلي في التغلب علينا، ولكن فوزه لا ينبغي أن يضعف عزمنا عن طلب حقنا، وقد تتوهمين أن رجالنا أضعف من أن يستطيعوا محاربة جند القيروان، فذلك ما توحي به الظواهر التي ينخدع بها غير العارفين، أما أنا فأؤكد لك أن هؤلاء الأمراء والمشايخ من كتامة وصنهاجة الذين يظهرون الطاعة والخضوع للمعز، إنما يفعلون ذلك تملقاً له، وهم يتوقعون فرصة للخروج عليه. ولا بد من واحد يبدأ العمل فيتبعه سائر الأمراء وتكون السيادة له، فأحب أن يكون ذلك الشرف لأبيك، فإنه أعرقهم حسبا ونسبا، فلا يكاد ينهض حتى ينهضوا معه، فكيف إذا دبرنا وسيلة لقتل المعز وقائده وهما روح تلك القوة الموهومة؛ فإن القوم كلهم يأتون معنا حتى أهل الخليفة أنفسهم لأنهم ناقمون متحاسدون».

ثم سكت ومسح شاربيه بمنديله وهو ينظر ما يبدو من لمياء.

وقد غلبت على لمياء شهوة الشرف وحب الاستقلال، وتذكرت ما كان لها من السيادة والأبهة، فغشي ذلك على احترامها للمعز وحبها لأم الأمراء؛

وكان أبو حامد صاحب حجة ومنطق في حديثه، فأقنعها كلامه، ورأت الحق في جانبه، وتأثرت به حتى شغلها عن وجود سالم هناك؛ لكنها ما زالت ترى صعوبة ذلك العمل، فظلت ساكتة لتسمع تمام الحديث وترى ما يراه سالم.

وأدرك أبو حامد ما في خاطرها فقال: « إني أوجه الكلام لك يا لمياء لعلمي أنك عاقلة، وعليك المعوَّل في هذا الأمر، فلا تغرنك كثرة جند القيروان، فعندنا جند أقوى منهم سيظهرون بعد، وعندنا أموال مدفونة لو أخرجناها لدهش العالم من كثرتها، وهي مهيأة قبل ولادتك وولادة سالم لمقاومة هؤلاء الغادرين، وارجاع الملك لاصحابه؛ وليس في أفريقيا أولى به من أبيك».

فظهر لها من كلامه أمور كانت قد عرفت بعضها من أحاديثها مع سالم قبل الأسر، والمحب لا يؤتمن على سر لا يبوح به إلى حبيبه؛ فإذا شئت أن يبقى سرك مكتوماً فاحذر أن تستودعه محباً، لكنها أظهرت أنها لم تكن عالمة بشيء من هذا القبيل إلا في تلك الساعة، ونظرت إلى أبيها فرأته ساكتا؛ والتفتت إلى سالم فإذا هو ينظر إليها كأنه يتوقع أن يسمع رأيها فقالت: « إنكم تسعون في أمر هام تقطع دونه الرقاب وتزهق النفوس، ولكن بذل الحياة في هذا السبيل لذيذ؛ إني يا عماه أبذل حياتي إذا كان في بذلها نفع لأبي، على أني استميحكم عذراً في كلمة أقولها وإن كنت فتاة قليلة التجارب، إن ما تنهضون له من جمع كلمة القبائل تحت سلطان رجل واحد، أمر لم يتم لغير الخلفاء أصحاب النسب في قريش؛ فالناس لا يخضعون لسواهم، حتى صاحب القيروان لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بهذا النسب سواء أكان صحيحاً أم غير صحيح. وبغير ذلك لا يتم شيء و . . . ».

فقطع أبو حامد كلامها وهو يضحك ضحك الاعجاب بتعقلها وسداد رأيها وقال: « بورك فيك من حكيمة عاقلة؛ وقد استدركت علينا أمرا لم يستدركه أحد سواك، ولا ينتبه له غير العقلاء الدهاة؛ صدقت إن الأمراء لا

تجتمع كلمتهم إلا باسم الدين، وهذا أمر قد دبرناه وخابرنا في شأنه خلافة أرسخ قدما وأصدق نسباً من هذه؛ كوني مطمئنة؛ لم يبق الآن إلا خطوة واحدة وهي أن نتخلص من هذين الرجلين وثالثهما إذا أمكن، وهذا لا يتم إلا على يدك؛ لا أطلب إليك أن تباشري ذلك بنفسك، وإنما نطلب منك أن تظهري الرضا بابن جوهر، ونحن ندبر ما بقي ونقول ما ينبغي».

فأطرقت هنيهة تفكر فيما رأته وسمعته من الغرائب في تلك الليلة، وكيف أتت ممتلئة اعجابا بالمعز واخلاصا له ولامرأته، وثناء على ما أظهره الحسين بن جوهر من دلائل التعفف وصدق المودة، ثم هي الآن تتآمر على قتلهم؛ فأجفلت وظهر التردد في عينيها، فيلقاها سالم بالحديث قائلا: «لم أكن أشك في أنك تقدمين على قتل ذلك الرجل بيدك في سبيل ارجاع سلطان أبيك، على أن كل ما نطلبه منك هو سكوتك ورضاك، فأطيعي لئلا يقال إنك وقفت عثرة في طريقهم، وأنا على يقين من أنهم ظافرون؛ وسترين أن ما يبدو لك من مظاهر القوة في هؤلاء العبيْديين إنما هو سحابة صيف».

وكان لكلام سالم وقع خاص في أذني لمياء، ولو أنه طلب منها أن ترمي نفسها في النار لفعلت؛ فلم تجد بدا من إظهار الرضا، واعتقدت أنهم على صواب؛ فقالت لسالم: «إنما كنت أتمنع رغبة فيك عن سواك، فإذا كنت تريد ذلك فأنا فاعلة».

فقال: «لا أعني أن تقبلي التضحية حتى نهايتها، ولكن اقبلي، فإذا لم أستطع قطع الحبل قبل أن يقبضوا عليه فما أنا أهل للحصول عليك، وتكونين قد حصلت على أعظم شاب عندهم». قال ذلك وتنحنح وابتسم يظهر المداعبة.

أما أبوها فسره اقتناعها آخر الأمر، فقال لها: «بورك فيك يا ابنة صاحب سجلماسة؛ انهضي الآن وارجعي إلى قصر المعز إذا شئت، وإذا سئلت عن الرضا بالخطبة، فأظهري أنك رضيت لأن أباك وأمير المؤمنين المعز رضيا؛

هل أرسل معك من يوصلك إلى المنصورية (قصر المعز)؟».

فنهضت وهي تقول: « لا أحتاج إلى أحد».

فاعترض سالم على ذلك وقال: « كيف تذهبين وحدك في هذا الليل؟ إني أرافقك إلى هناك».

فتذكرت أنها لا تلبث عند خروجها من معسكر أبيها أن تلتقي بالحسين بن جوهر فكيف تجمع بين المتناظريْن؟ فألحت على سالم ألا يرافقها هو ولا سواه، وذكرت أنها أتت وحدها، وتعود وحدها، لأنها متنكرة بلباس خدم القصر ولا تخاف أحداً؛ فقال لها أبوها: « لا بأس من إرسال بعض الحراس في أثرك من بعيد، لأننا لا نعلم ما يحدث».

فاستحلفته الا يفعل، فسكت وقبَّلها مودعاً، وودعت هي سالما والعم أبا حامد، وأصلحت هندامها، وخرجت وقد اشتد الظلام، والأرض خالية بين المعسكرين لا أنيس فيها؛ فمشت حتى خرجت من معسكر أبيها، فما لبثت أن رأت شبحاً يقترب نحوها، وعرفت أنه الحسين كان في انتظارها، وجاء لتشييعها إلى المنصورية، فأحست عند رؤيته بوخز في ضميرها، واحتقرت نفسها لأنها كانت منذ ساعة صادقة اللهجة شريفة النفس لا يخامر ذهنها غش أو خداع، وهي الآن مخادعة مماذقة، فينبغي أن تظهر لهذا الشاب أنها تريده مكرا وكذبا في حين أنها تتآمر على قتله وقتل أبيه والخليفة.

مرت هذه التصورات في ذهنها مرور البرق والحسين يمشي نحوها. فلما اقترب منها حياها باحترام، ولم يزد على أن مشى بجانبها كالخادم الموكل بتوصيل مولاه إلى مقصده، فأكبرت منه هذا التلطف ولم تتمالك أن قالت له: « لقد أتعبت نفسك يا سيدي بالانتظار في هذا الليل».

قال وهو يماشيها على مهل: « لم أتعب نفسي يا سيدتي، فإن ذلك فرض عليَّ، بل هو من بواعث سروري، كيف وجدت أباك الأمير، عساه في خير؟». قال ذلك وهو يشير إلى ما كان يتوقعه من أن يطلعها على خبر

خطبته اياها، ولم يكن يشك في أنها ستفرح به وتحسب نفسها سعيدة.

وأدركت هي غرضه من ذلك السؤال وأثر فيها تلطفه كثيراً فقالت: « إن أبي في خير والحمد لله»، وكانت تريد أن تزيد على ذلك أنه شاكر راض، وأنه مشمول برضا أمير المؤمنين، ولكنها لم تشأ أن تكذب فأوجزت؛ فحمل ذلك منها على محمل الحياء، وعمد إلى مداعبتها فقال: « يسرني أن يكون أبوك مسرورا، ولكن يهمني أن تكوني أنت مسرورة أيضاً».

ففهمت مراده، وشعرت بصدق طويته واخلاص نيته في حبها، بينما تضمر هي غير ما تقول، فعظم ذلك عليها، وشعرت بصغر نفسها، وتلجلجت لكنها تجلدت وأجابت: « وأنا أيضاً مسرورة لما أراه من التفات أمير المؤمنين وأم الأمراء قدوة الأميرات حفظها الله».

وأراد الحسين أن يغتنم الفرصة ليحدثها بأمر الخطبة وليس هناك من يسمع؛ ومهما يكن من تحجب الفتيات عن طلاَّبهن أمام الناس، فإن أحداهن إذا خلت إلى خطيبها يرتفع الحجاب ويتشاكيان، ولم يجد الحسين فرصة أثمن من هذه ولا أوفق منها وهما في غفلة عن الرقباء؛ ولم يكن يشك في أن أباها فاتحها في شأن خطبته، وأنها رضيت، ولكن الحياء يمنعها من التصريح فعمد على تجرئتها فقال: « أتشعرين يا لمياء بالسرور الذي أشعر به أنا؟».

فشقَّ عليها أن يفاتحها بأحاديث الغرام وهي فيما هي فيه من التردد والارتباك، فقالت: « لا أعلم مقدار سرورك ولا نوعه، ولكنني أعلم أني مسرورة من حسن لقاء أمير المؤمنين وأم الأمراء». وأظهرت البغتة وهي تقول: « أظننا صرنا على مقربة من المنصورية فإني أرى أنوارها، فأشكرك شكراً جزيلاً على تنازلك يا سيدي فقد أتعبتك». وهمت بفراقه.

فقال: « لا نزال بعيدين عن المدينة، وإن كنت ترين أنوارها فلا تتعجلي الفراق؛ إلا أن أكون قد أثقلت عليك الحديث، ولعلي تطوحت إلى وراء ما يجوز لي، فسامحيني»؛ قال ذلك معاتباً.

فخجلت لمياء وودت لو أنها لم تقابل أباها في تلك الليلة، لأنها كانت تعرف ما تجيب به عن هذه الأسئلة بصراحة؛ فربما أجابت بأنها تحبه وتحترمه ولكنها مخطوبة لسواه؛ أما الآن فهم يطلبون منها إظهار رضاها به؛ وقد يهون عليها ذلك لو كان السائل الخليفة أو أم الأمراء، وأما هو فيصعب عليها الكذب عليه وهي تشعر بأنه يحبها من كل قلبه فكيف تخادعه؟؛ ولما سمعت عتابه غلب عليها طيب عنصرها فقالت: « العفو يا سيدي، إنك تبالغ في توبيخي؛ فهل أسأت الأدب في خطابك؟. أم كان ينبغي لي أن أعرف حدي فأقف عنده؟».

فغلبته في العتاب وأحس أنه قد يكون جرح رقيق إحساسها بكلامه فقال: « إني لا أستحق هذا التقريع يا لمياء، وإنما أنا أحتال في سماع كلمة تدل على رضاك وكفى».

-٥-

الحسين وسالم

لم تجد لمياء خيراً من السكوت، لأن الكلام يجر الكلام، وهي لا تعرف ما تقول؛ وسكت الحسين تهيباً من سكوتها؛ وفيما هما في هذه الحالة سمعا وقع حوافر جواد مسرع وراءهما، فالتفتت فرأت فارساً قادماً من معسكر أبيها، ولم تكد تتبينه حتى علمت أنه سالم فأجفلت، وخافت أن ينكشف أمره لأن أهل قصر المعز يعلمون أنه غائب، والمعز يريد القبض عليه، وهو لم يلحق بها إلا مبالغة في اظهار الود، وليثبتها في وعدها لما يعلقون عليها من الآمال العظام، ولكنه أظهر أنه جاء ليحرسها؛ فلما رأى الحسين بلباس الحراس ماشياً في خدمتها ظنه أحدهم، ولم يخطر بباله أنه الحسين بن جوهر نفسه، فوقعت لمياء في حيرة ولكنها تجاهلت.

أما الحسين فالتفت إلى الفارس وصاح فيه: « من أنت؟».

فقال سالم: « وما يعنيك من أمري؟ سر في طريقك».

فقال: « بل يعنيني؛ قف حالاً ».

وكان سالم قد وصل إلى لمياء فلم يجب وخاطب لمياء قائلاً: « لمياء! من هذا الرجل؟ ».

فارتبكت في أمرها وهي لا تعلم إذا كان الحسين يريد أن يُذكر اسمه أم يؤثر أن يبقى مكتوماً؛ فتلجلجت في الجواب لحظة وهي تنظر إلى الحسين كأنها تنتظر أن يكون الجواب منه.

أما هو فاستغرب خطاب الرجل لها بهذه الدالة التي لا تكون إلا بين الأقرباء، فتبادر إلى ذهنه أنه من أقاربها فخف غضبه إكراماً لها وسألها: « من هذا؟ لعله من بعض أهلك؟ ».

قالت: « نعم يا سيدي إنه من أبناء عمي، وقد يكونون رأوني ماشية مع رجل لا يعرفونه فجاء أحدهم لنجدتي ».

فوجه الحسين خطابه إلى سالم وقال: « لا تخف يا صاحبي، إني صديق محب؛ وأنا في خدمة ابنة عمك حتى أوصلها إلى مأمنها ».

فلم يرض سالم بهذا الجواب لأن لمياء متنكرة بلباس الصقالبة فكيف تأتّى لهذا الرجل أن يعرفها ويماشيها عل انفراد؟. فسبق إلى ذهنه سوء الظن فقال: « من أنت يا صاحب لعلك متنكر مثلها ومن أخبرك أنها فتاة وأنها لمياء؟ ».

فاستاء الحسين من لهجته في الخطاب، وهمَّ بأن يخبره بحقيقة حاله؛ لكنه فضل الكتمان حفظاً لكرامة لمياء فقال: « أنا أيضاً في خدمة قصر أمير المؤمنين، وعرفت بخروجها في مهمة إلى أبيها الأمير، فجئت لمرافقتها في ذهابها وانتظرت عودتها، وهأنذا معها حتى تبلغ مأمنها كما قلت لك ».

فاستحسنت لمياء منه هذا الأسلوب، وتوقعت أن ينتهي الأمر عند هذا الحد، لكنها ما لبثت أن رأت سالماً نزل عن جواده وهو لا يزال ملثماً ووقف بين لمياء والحسين وولى وجهه نحوها وقال لها: « لا حاجة بك إلى مماشاة الخدم، إني أسير في خدمتك؛ ألم أعرض عليك أن أسير معك فأبيت؟ ».

فتجلدت وهي تخاف أن يغضب الحسين لهذه الجسارة وقالت: « لم أرض أن يأتي منكم أحد معي لأني على يقين من وجود هذا الرفيق».

قالت ذلك ومشت فمشى سالم بجانبها بينها وبين الحسين وهو يقول: «لماذا لم تذكري ذلك هناك؟».

فاستثقلت اعتراضه، وتحيرت في أمرها، ثم قالت: « لم أجد حاجة إلى ذلك».

قال: « أنت بنت الأمير حمدون صاحب سجلماسة، فلا ينبغي أن يستهان بك وأن يكون رفيقك في هذا الطريق المظلم أحد الغلمان؛ قولي له أن ينصرف وأنا أسير معك».

فارتبكت في أمرها وخافت أن يغضب الحسين، ويجر الجدال إلى القتال أو إلى كشف أمر سالم؛ وصارت ترتعد من التأثر وهي لا تدري ماذا تعمل، على أن الحسين أجابه برزانة ولطف قائلاً: « إن مسيرك معها لا يخلو من الخطر عليك يا سيدي لأن حراس المدينة لا يعرفونك، وربما آذوك أو قبضوا عليك».

فضحك استهزاء وقال متهكما: « لا، لا يقبضون عليَّ، فأنت لا تعرف من أنا، سر في طريقك ودعنا».

قال ذلك ومشى وهو يقود الجواد وراءه وأومأ إلى لمياء أن تتبعه، فأغضبها عناد سالم ولم تعرف كيف تتخلص من هذه الورطة وهي تتوقع أن يغضب الحسين ويفتضح أمرها؛ فلما رأته ظل ساكتا علمت أنه سكت اكراما لها وصيانة لشرفها لئلا يقال إنهم رأوه معها في ذلك الظلام؛ فتراجعت وقالت لسالم: « لا حاجة بي إلى من يحرسني فقد صرت على مقربة من السور، بالله ألا رجعت وخليتني أسير وحدي».

فلم يجبها بل ظل ماشياً، وظل الحسين واقفا مكانه لا يبدي حراكا، ولم يمشيا قليلا حتى سمعا دبدبة وقرقعة وإذا بكوكبة من الفرسان خارجين من السور مسرعين نحوهما فقالت: « لماذا فعلت بنا هذا يا سالم؟ إنني

أخاف عليك، فالأوامر شديدة للقبض على من يرونه خارج السور؛ وأنت تعلم أنك طلبة القوم؛ فلا أحب أن نفتح باباً للقيل والقال؛ عزمت عليك ألا رجعت من هنا، اركب جوادك إلى معسكر أبي».

فعظم عليه قولها واستخف بنُذُرها وقال: «انهم لن يدركوا مني وطرا».

قالت: «ولكنهم ربما آذوني بسببك؛ بالله ارجع. ارجع. رباه ما هذا العناد؟».

والتفتت إلى الحسين فلم تره، فظنت الظلام حجبه لبعده، فوقفت وعادت تتوسل إلى سالم أن يرجع فأبى خجلاً من نفسه أن يفر، فازدادت حيرتها وقد دهمها الوقت لأن الفرسان وهم عشرة أصبحوا على مقربة منها؛ وتقدم واحد منهم وصوَّب سنان رمحه نحوهما وقال: «من أنتم؟».

فتصدت لمياء لهم وقالت: «إني رسول أمير المؤمنين كما تعلمون».

فقال: «ومن هذا؟». وأشار إلى سالم.

فقالت: «أحد فرسان الأمير حمدون جاء برفقتي في هذا الطريق».

قال: «لقد ذهبت بالرسالة بلا حارس؛ وكيف يحتاج غلام أمير المؤمنين إلى من يحرسه في بلده، وقد يكون الرفيق جاسوساً فلا بد من القبض عليه»؛ قال ذلك وأشار إلى رفاقه الفرسان فأحاطوا بسالم وقد صوبوا الأسنة نحوه، وأمروه أن يمشي أمامهم؛ وتقدم اثنان منهم ليأخذوا الفرس منه.

أما سالم فأفلت منهما وصاح: «اخسأوا؛ حذار أن يقترب مني أحد وإلا أرديته!». وهمَّ بأن يستل سيفه، فصاح فيه مقدمهم وقال: «لا تتعب نفسك بالمحال إنك في قبضتنا ولا نريد بك سوءا، وانما نطلب إليك أن تدخل معنا، وتمكث عندنا إلى الصباح، فنعرضك على القائد جوهر، فإذا أمر باطلاقك أطلقناك وليس لك وجه آخر».

فوقع الرعب في قلبه، وندم لأنه لم يصغ إلى نصيحة لمياء ورفيقها، ولكنه أكبرالخضوع وهو يخاف أن يكون في القبض عليه خطر على حياته

فوقع في حيرة، والتفت إلى لمياء لفتة استغاثة فتقدمت نحو الفارس وقالت: « ألا تعرفني أيها الفارس؟ أنا أضمن ما تريدونه؛ احبسوني مكانه إلى الغد وقدموني إلى القائد، وأنا المسؤول عن هذا الفارس».

فقال: « قد كان ذلك ميسوراً لولا ما بدا من قحتّه وهو ملثم؛ ويظهر من كلامه أنه من أهل سجلماسة فلا بد من القبض عليه.. قال ذلك وأشار إلى سالم أن يمشي أمامهم».

فترجل بضعة منهم وهموا بأن يوثقوه ولمياء تتقدم اليهم أن يتركوه.. وكانت راغبة في التستر، ولعنت الساعة التي جاء فيها سالم؛ وفيما هي في ذلك وعيناها نحو الجهة التي تركت الحسين فيها، إذا بشبح يتقدم من تلك الناحية مسرعا؛ فعرفت أنه هو الحسين فلبثت صامتة لترى ما يكون؛ وخافت أن يتعمد القبض على سالم ويكشف أمره؛ لكنها رأته حالما وصل إلى المكان صاح في الفرسان قائلا: « خلوا هذا الفارس فإنه من الأصدقاء».

فأجفلوا والتفتوا إليه وقالوا: « من أنت؟».

فتقدم خطوة أخرى حتى صار بينهم وقال: « اتركوه أنا أعرفه» فلما دنا منهم عرفوه من صوته فتأدبوا وتراجعوا، وتقدم رئيسهم وتفرس في وجه الحسين وهو ملثم فلم يعرفه وإن كان قد عرف صوته؛ فلما رآه الحسين يتفرس فيه أزاح اللثام عن وجهه وقال: «اتركوه».

فصاحوا جميعاً: « مولانا الحسين بن جوهر؟!». وابتعدوا عن سالم ورئيسهم يخاطبه قائلاً: « أرجو المعذرة يا سيدي لم أكن أعرف أن ابن قائدنا الأكبر يعرفك!»؛ وأكب على يد الحسين يريد تقبيلها قائلاً: « العفو لقد تجاسرنا».

فقطع الحسين كلامه قائلاً: « لا حاجة إلى الاعتذار فقد فعلتم ما عليكم، وستُكافأون على سهركم؛ وقد اتفق أني أعرف هذا الفارس وهو من الأصدقاء فأطلقوا سراحه»؛ واقترب من سالم وهمس في أذنه وقال: « ألم أقل لك إني أخاف عليك من حراس المدينة لأنهم لا يعرفونك؟»؛ انني أنا

أيضاً لا أعرفك ولكنني صدَّقت شهادة هذا الرسول؛ سر في حراسة الله».
ومد إليه يده ليصافحه مصافحة الصديق.

فصافحه سالم وقد غلب على أمره وأخذ الخجل منه مأخذاً عظيماً؛ واستغرب تلك المقابلة، وكيف التقى الرجل الذي كانوا يتحدثون عنه ويكيدون له، وخامرته الغيرة من جهة أخرى، إذ لم يفهم سبباً لوجود الحسين مع لمياء غير اتفاقهما على ذلك من قبل، فكيف تم هذا الاتفاق على اجتماعهما في ذلك الليل هناك، وهي تزعم أنها لا تريده خطيبا؟ فدارت الهواجس في رأسه؛ ولكنه لم يستطع إلا أن يظهر الشكر على محاسنة الحسين له، ولا سيما أنه لم يسأله عن اسمه، ولم يطلب منه أن يكشف وجهه، فودعه ورجع ولم يصدق أنه نجا قبل كشف أمره.

وأشار الحسين إلى الفرسان فرجعوا إلى السور، وتقدم إلى لمياء وقال لها: «أفلت صاحبنا بلثامه وهو يعتقد أنني لم أعرفه؛ وإنما أطلقته إكراماً لك وحرصاً على كرامتك».

فأجفلت من قوله وأرادت أن تغالطه فابتدرها قائلاً: «أليس هذا سالماً طلبة أمير المؤمنين؟ إنهم يبحثون عنه ولو علم أبي بوجوده هنا لأمر بالقبض عليه، ولكنني رأيت فيك ميلا إلى كتمان أمره، فأخليت سبيله رغم ما أبداه من القحة، لا يخامرك شك في أني عرفته، وكيف أجهله وقد رأيته في حربنا مع أبيك وتبارزنا في سجلماسة، لكنه فر يومئذ مني، وها قد نجا الآن من أجلك، على أني أتقدم اليك أن تكتمي أمره وأحب ألا يطلع أحد على ما جرى».

فنظرت إليه نظر اعجاب وامتنان وقالت: «لقد غمرتني بفضلك يا سيدي وأشكرك على مروءتك وكرم أخلاقك؛ إنها أخلاق كبار القواد؛ وقد عرفت ذلك لك».

فمد يده نحوها وهو يقول: «إنها أخلاق المحبين، أتأذنين لي في أن أصافحك وأودعك».

فلم تستطع الرفض بعد أن غمرها بفضله، وما أبداه من الأريحية وسعة الصدر وكبر النفس، رغم ما كان من عجرفة سالم وخشونته، وأعجبت باحتماله منه الاهانة وصفحه عنه بل انقاذه من الموت، ثم هو مع ذلك يطلب منها كتمان ذلك حرصا على كرامتها وكرامة رفيقها؛ فمدت يدها نحوه، ولكنها شعرت عند المصافحة شعوراً جديداً تمشى في مفاصلها.. فأسرعت في جذب يدها منه، وأظهرت أنه قد آن وقت انصرافها، وأشارت مودعة وتحولت نحو المنصورية.

فودعها هو بقوله: «في حراسة الله يا لمياء».

فارقته ومشت وهي تائهة الأفكار من وقع ما شاهدته، وقد قدرت مروءة الحسين حق قدرها؛ ولكنها أحست بشيء غير الاعجاب والامتنان - أحست بميل وانعطاف لم تشعر بهما من قبل، لكنها غالطت نفسها وكذبت عواطفها لأنها لا تريد أن يكون في قلبها محل لغير سالم حبيبها الأول.

دخلت باب السور فوسع لها الحراس لاعتقادهم أنها غلام صقلبي من غلمان القصر يحمل رسالة إلى أمير المؤمنين؛ وما زالت حتى دخلت القصر وسارت تواً إلى غرفتها وقد انقضى معظم الليل؛ فدخلتها وأقفلت الباب وراءها كأنها تفر من شبح يطاردها؛ فلما خلت إلى نفسها لم تشأ أن تنير المصباح مبالغة في الانزواء والتستر - ولا باعث على التستر وهي في مأمن ولكن هواجسها حدثتها بذلك - فوجدت نفسها تحاول عبثا لأنها تريد الفرار من شعور داخلها لا يحجبه الظلام ولا تمنعه الأقفال؛ بل رأت الظلام يضاعف هواجسها ويجسم خوفها؛ لأنها لم تكد تجلس على الفراش حتى بدا لها سالم بأقبح الصور؛ رأته دنيئاً غادراً خائناً وقحاً جباناً، ورأت الحسين شهماً كريماً واسع الصدر كبير النفس؛ فاقشعرّ بدنها وتوهمت أنها ارتكبت ذنباً؛ لأن سالماً حبيبها الأول وقد أحبته، وتركت كل شيء لأجله، وعرّضت نفسها لغضب أبيها والخليفة حباً له، فكيف ترى فيه تلك الخسة حتى يحملها على التواطؤ معه لقتل أعظم الناس قدراً، وأفضلهم نسباً

ومروءة؛ وتذكرت كيف رجع سالم تلك الليلة مرذولا بعد أن عرف أن خصمه هو الحسين بن جوهر، وبماذا عساه أن يعلل وجودها مع الحسين في ذلك الليل هناك، وراجعت ما دار بينها وبين أبيها وأبي حامد من الحديث، فودت لو أنها لم تذهب في تلك المهمة.

ولكنها صبّرت نفسها إلى الغد لترى ما يكون، وأخذت في تبديل ثيابها طلباً للرقاد؛ لكن كيف تنام وهي في تلك الحال، وقد تراكمت أفكارها، وأصبحت لا تجد راحة إلا في النوم لعلها إذا أفاقت في الصباح وجدت ما مر بها حلماً مزعجاً، فتوسدت الفراش، وتغطت إلى ما فوق رأسها، وقضت تلك الليلة في قلق واضطراب.

أما سالم فلما خلا إلى نفسه أحس بصغر شأنه، وعظم عليه ما أصابه من الفشل بين يدي خطيبته مع مناظره عليها، بعد أن كان منذ ساعة يحرضها على احتقاره واحتقار أبيه وخليفته، وزعم أنه قادر على قهرهم على أهون سبيل ليعيد الملك إلى أبيها فتصير هي الملكة، وغير ذلك مما دار بينها وبينهم في تلك الليلة.

كل هذه الهواجس خطرت له وهو عائد على جواده يمشي الهوينى، ويتوهم لفرط خجله أن الحسين يتبعه، وأخذ يفكر فيما دار بينهما في ذلك الموقف، ويزن أقواله ليرى هل فرَّط في كرامته وهل له عذر مقبول، وأخذ يؤول ما قاله أو ما سمعه، وينتحل الأعذار ويهيء الأسباب ويقدر العواقب لو أنه ظل على جسارته؛ فأقنع نفسه بأنه أحسن بالرجوع محافظة على كرامة لمياء، وبأنه لو تمسك بقوله لانفضح أمرها، كما أنها هي طلبت إليه أن يعود، والانسان كثيرا ما يصدق المحال تبريرا لعمله ورداً لكرامته. وكان سالم يحب لمياء ويعجب ببسالتها وجمالها، ويرتاح إلى الاقتران بها، ولكنه لم يكن يعشقها كما كانت تعشقه هي، وإنما صمم عل خطبتها لغرض في نفسه.

-٦-

حديث الزفاف

دخل سالم معسكر حمدون وتجاوز فسطاطه وقد ذهل عنه؛ وكان في عزمه أن يعود إلى الفسطاط ليقص ما رآه على أبيها؛ فما لبث قليلاً حتى فوجئ بأبي حامد وقد خرج من الخيمة وأشار إليه أن يدخل، فترجل ودخل، ولاحظ أن أبا حامد وحده هناك، وقد احمرت عيناه وبان الاهتمام في وجهه، فأدرك أنه أطال التفكير في أمر عظيم، ثم قال له أبو حامد: « لقد وصلنا يا سالم إلي الغرض المطلوب، أقعد».

وأشار إلى وسادة على البساط فقعد سالم، وقعد أبو حامد إلى جانبه وهو يقول له: « أين كنت؟».

قال: « ذهبت لأشيِّع لمياء إلي المنصورية وليتني لم أذهب».

قال: « ولماذا؟».

فقصَّ عليه ما جرى، وكيف وجد الحسين هناك، وكيف كان في انتظار لمياء وقد رافقها في غير كلفة؛ ولم يذكر فشله.

فقال أبو حامد: « وهل ساءك ذلك؟».

قال: « كيف لا؟ وقد كنا منذ ساعة نتحدث في اقناعها بأن تقبله، وهي تظهر أنها لا تريده، فكيف تكون على موعد منه وترافقه في هذا الليل؟».

فتكلف أبو حامد الضحك، وقال: « يظهر أنك لا تزال تهتم بهذه الصغائر، هل يحول ذلك الاجتماع دون غرضنا الذي أوقفنا حياتنا عليه؟ كلا بل هو يهوِّنه علينا». ثم خفض صوته وقال: « أم نسيت الغرض الأول من علاقتنا مع هذا الأمير المغرور؟».

فسكت سالم وأطرق يفكر في حديث دار بينه وبين أبي حامد من عهد بعيد.

فقال أبو حامد: « لا أنكر أن لمياء فتاة شجاعة وجميلة؛ ولكن هل خطبناها لأننا لم نجد بين نساء هذه القبائل من يليق بك؟ إنك ستجد خيرا

منها ولا سيما بعد أن ننال بغيتنا ونتخلص من أولئك الخائنين؛ كن رجلاً واعمل عمل الرجال؛ وانظر إلى الغاية التي نستهدفها؛ يكفي أننا أقنعنا هذه الفتاة بأن تمهد لنا السبيل لقتل الرجل وقائده، فإن قتلناهما لا يبقى لهذا الغلام حظ من الحياة، فتكون لمياء لك وعند ذلك . . » وسكت وهو يلتفت يميناً وشمالاً محاذراً أن يسمعه أحد وقال: « ألا تعلم أنك إذا تزوجت لمياء كنت أنت صاحب القيروان؟ » .

وكان لأبي حامد سلطة عظيمة على عقل سالم، فإذا قال قولاً صدَّقه ولو كان مستحيلا لكنه أحب الاستفهام فقال: « وكيف ذلك؟ » .

قال: « ما هو الغرض الذي أوقفت حياتي عليه؟ » .

قال: « الأخذ بثأر أبي عبد الله المقتول ظلماً » .

قال: « وهل نكون قد أخذنا بالثأر إن لم نخرج السلطان من أيدي هؤلاء الخونة؟ » .

قال: « أنت أعلم » .

قال: « أنا أقول لك إن عظام أبي عبد الله تنادينا من ظلمة القبر أن نأخذ بثأره، ونخرج المُلك من أيدي هؤلاء الخائنين، وأنت تعلم أننا كنا نسعى في ذلك قبل أن يؤخذ صاحب سجلماسة أسيرا، وكنت أحسبه رجلاً يعوَّل عليه في العظائم، فإذا هو ثرثار مغرور يقول ما لا يفعل، وهو ليس أهلا لغير الادعاء الفارغ، ولا يغرك ما سمعته من اطرائي أجداده ومبالغتي في مدحه؛ لو كان رجلاً لما صار إلى الأسر واضطر إلى اطاعة المعز، وانما أنا أداجيه لنستخدم ابنته في تمهيد السبيل لقتل المعز وقائده، فنجعله صاحب القيروان، وإذا تزوجت أنت بابنته وهو ليس له ذكر يرثه صارت الامارة إليك، أو نجعلها إليك قبل موته بما أعددناه من الأحزاب والأموال وسائر المعدات، وعند ذلك نكون قد انتقمنا لذلك المقتول » .

ورغم ما غُرس في ذهن سالم من قدرة أبي حامد العجيبة، لم يفته ما يحول دون الوصول إلى تلك الغاية من العقبات فقال: « اسمح لي يا سيدي

أن أسأل عن أمر».

فقطع كلامه وقال: « لا تخف يا سالم ، إني لا أخطو خطوة قبل أن أقدر ما بعدها؛ لعلك تقول في نفسك: كيف تنتهي مهمتنا بقتل ذينك الرجلين، وهذه قبائل البربر من كتامة وصنهاجة وهوارة كلها من أنصارهما؟ وهم يعدون بمئات الألوف ، ونحن ليس عندنا غير رجال صاحب سجلماسة! . إن تلك القبائل يا بني لم تذعن للمعز إلا لتخاذل أمرائها، وتفرق كلمتهم، واعتقادهم صحة انتسابه إلى الإمام علي؛ وهذا عليٌّ تدبيره؛ ألا يكفيك أني عالم بهذا الإعتراض؟ أم أنك تخاف أن أسيء التدبير ولا أحسن الحيلة؟ ألا يكفي هؤلاء الامراء من هذه الغنيمة أن يعود كل منهم أميراً مستقلاً بحكومته، وأن من يقتل منهم صاحب القيروان صارت القيروان له؟ وهي ستكون نصيب صاحب سجلماسة، وهل تظن أهل القيروان يرمون نبلاً علينا بعد قتل خليفتهم؟ إن رجال سجلماسة معنا وهم أشداء قادرون على أخذ القيروان وحدهم، فكيف إذا ساعدتهم القبائل؟».

فازداد اعجاب سالم بدهاء عمه وقال: « لله درك من ملك قادر، انك والله أولى بهذا الأمر مني ومن سواي».

فأسرع أبو حامد فوضع كفه على فم سالم يريد اسكاته وقال: « لا تقل ذلك؛ إن هذا المُلك مقدر لك بوصية من إمامنا وكفى هذا الآن». قال ذلك ونهض ممسكاً بيد سالم لينهض معه، فنهض وقد تهيَّب وود لو يستزيد بيانا، لأنه مع طول صحبته له لم يسمع منه تصريحا عن الوصية، وأما أبو حامد فقال وهو يصلح عمامته: « لا حاجة بي لأن أوصيك بالكتمان؛ حتى الحديث الذي ذكرته عن لمياء والحسين إخفه واجعل أنك لم تر شيئاً». ثم سكت وبان الاهتمام في وجهه وقال: « أما أنت فلا ينبغي أن تبقى هنا بعد هذه المقابلة، لا بد من سفرك إلى مصر في صباح الغد في مهمة مثل التي أتيت منها بالأمس، فتجتمع بذلك العبد الأسود أميرها (كافور) وتعقد معه عهدا على هؤلاء الفاطميين فإنه يخافهم؛ وسيكون عونا لنا في تأييد دولتنا

مع صاحب بغداد، إذ لا بد من خلافة ثابتة تتأيد بها دعوتنا، أظنك فهمت مرادي؛ ولا ينبغي أن يعلم حمدون بهذه المساعي ولا غيرها. فهمت؟».

فأشار بعينيه أنه فهم، وهمَّ بالخروج فاستوقفه وقال: «لا بد من سفرك في الصباح خلسة فإني أخشى عليك الدسائس».

قال: «سأسافر».

ثم وقف أبو حامد فجأة وقد تذكر أمراً ذا بال، ونظر في عينيْ سالم وحدق فيهما طويلا كأنه يستطلع ما يجول في خاطره؛ فأطرق سالم تهيباً، فقال أبو حامد: «أخاف أن تكون قد بحت لأحد بما أعددناه في (فج الأخيار) من قواتنا التي سيتم لنا بها الأمر، فننشئ دولة تخفق أعلامها على ضفاف النيل وضفاف الفرات».

فلما سمع قوله اختلج قلبه في صدره لعلمه أنه لم يحافظ على ذلك السر، لكنه أسرع إلى تهدئة روعة، فهز رأسه وقال: «كيف أبوح به وعليه معولنا؟ كن مطمئنا».

فصدقه وقال: «فاذهب إلى فراشك، ولا تثق بأحد سواي».

فهمَّ بتقبيل يده وخرج، وظل أبو حامد وحده وقد أصبح بعد هذا الحديث كالجمل الهائج، وازداد احمرار عينيه حتى صارتا مثل عيني المحموم من فرط ما هاج في خاطره من البواعث، فلما خلا إلى نفسه جعل يخطر في الخيمة ذهابا وإيابا وهو يقضم أطراف شاربيه بأسنانه، وقد جعل يديه متقاطعتين وراء ظهره، وأخذ يناجي نفسه قائلا: «رحمك الله يا أبا عبد الله، وقد آن لي أنتقم لك من هؤلاء الغادرين؛ هناك في فج الأخيار في جبل ايكجان دار الهجرة التي جعلتها للأحزاب التي نصرت بها العبيديين؛ وهي الآن د ار هجرتنا؛ وفيها الأموال التي جمعتها عند أول الفتح؛ نعم هناك قوتنا». وضحك ضحكة ظافر وقال: «أحب أن يُبعث أبو عبد الله ويرى نجاحنا.. ولكن..» وسكت وأخذ في تبديل ثيابه للرقاد.

***

قضت لمياء ليلتها مضطربة تتقلب كأنها على فراش من قتاد؛ ولم يغمض جفناها إلا عند الفجر، فنامت وانتابتها الأحلام المزعجة؛ ولم تستيقظ إلا عند الضحى على قرع الباب، فنهضت مذعورة وقد تذكرت حالها بالأمس؛ فتمنت لو كان حلما، وبادرت إلى الباب ففتحته فرأت حاضنة أم الأمراء أمامها، وحالما وقع بصرها عليها قالت: « كيف أم الأمراء عساها في خير؟ ».

قالت: « قد استبطأتك فأرسلتني للسؤال عنك ».

فأحست ازاء التلطف، بوخز ضميرها لما دبروه لزوجها من المكائد، لكنها تجلدت وقالت: «كان عليَّ أن أسرع إليها مبكرة لكنني استغرقت في النوم».

قالت: « لا بأس يا سيدتي فإني ذاهبة لأطمئنها عليك ».

قالت: « قولي لها إني مسرعة لتقبيل يدها حالاً ».

فعادت الحاضنة، وعمدت لمياء إلى تبديل ثيابها، ثم خرجت قاصدة غرفة أم الأمراء، ولحظت وهي سائرة في الدهليز أن أهل القصر في حركة غير عادية كأنهم يتأهبون لاحتفال؛ ثم علمت أنهم يأخذون عدتهم لصوم رمضان، فتذكرت أنهم دخلوا في شهر رمضان، وأصبحوا في ذلك اليوم صائمين.

وصلت إلى غرفة أم الأمراء، فرأتها جالسة على مقعد، ولما دخلت لمياء نهضت لها مبتسمة كأنها تستقبل بعض أولادها، فلم تتمالك لمياء من فرط امتنانها لذلك التلطف أن أكبت على يدها تقبلها وقد سبقتها العبرات؛ فاستغربت أم الأمراء بكاءها؛ وظنتها تبكي لأمر يمس خطبتها للحسين؛ وهي إنما كانت تبكي أسفا لما فرط منها من التآمر على الخليفة، فضمتها أم الأمراء إلى صدرها وقالت: « ما بالك تبكين يا بنية؟ ».

فأغرقت في البكاء وغلبت على أمرها حتى لم تستطع إمساك نفسها؛ فجعلت أم الأمراء تخفف عنها وقالت لها: « لعلك لم تنجحي في

مهمتك؟». وهي تشير بهذه المداعبة إلى رغبتها في تزويجها من الحسين.

فتماسكت وتجلدت وقالت وهي تمسح عينيها: «نعم يا سيدتي، إني لم أنجح، والظاهر أن الله قد أراد ما أراده أمير المؤمنين».

فبان السرور في وجه أم الأمراء، وأجلست لمياء إلى جانبها وقالت: «ألذلك تبكين يا لمياء؟ لا ينبغي أن تحزني وسوف تتحققين أنك أحرزت نصيباً حسناً؛ وأحمد الله لأنه قدّر لك أن تكوني زوجة لهذا الشاب النادر المثال؛ وبرهانا على سروري بذلك، فإني سأجعل لك مهرا لم تنله فتاة من أهل القيروان لأنك عزيزة علينا؛ وسأقوم أنا بتأدية مهرك، وسأجعل أمير المؤمنين يهبك قصرا من قصوره وأفرشه لك أحسن فرش، وأزوده بالتحف والجواري بحيث يجعلك تنسين ذلك الرجل الذي كاد يسبقنا إليك».

فلم يزدها هذا الكلام إلا غيظاً من نفسها وندما على ما فرط منها، ولكنها تجلدت وقالت: «أشكرك يا سيدتي على هذه النعم، إني لا أستحق شيئاً من ذلك»؛ وكانت تعني ما تقوله تماما.

ولكن أم الأمراء حملت قولها على محمل التواضع فقالت: «بل أنت أهل لأكثر منه، ولكن لا بُدَّ من الانتظار إلى انقضاء شهر رمضان، لأننا دخلنا في هذا الشهر المبارك من اليوم، وأظن أن أمير المؤمنين يؤجل الزفاف إلى عيد الفطر أو ما بعده، وسننظر في ذلك».

فسرَّها أن يؤجل الزفاف لعلها تتمكن قبل موعده من تدبير من ينقذها من هذه الورطة، فبان الارتياح في محياها وقالت: «إني أمَتُك ولساني قاصر عن أداء حق شكرك، جزاك الله خيراً».

فقالت: «إنما يهمني يا لمياء أن تكوني سعيدة، وأحب أن يكون قرانك بالحسين سعيداً لأفرح أنا أيضاً، وقد بدأت أشعر بأنك صرت من أهلنا؛ وأصبح أبوك يفضل سائر أمرائنا بحق القربى من قائدنا، وأنت تعلمين منزلة جوهر من نفس أمير المؤمنين، فإنه يؤثره على كثيرين من آله وذوي قرابته؛ وسترين هذا المساء متى جلسوا للافطار كيف يجلسه بجانبه، ويقربه دون

سائر العبيديين، ولا ريب أنه سيقرب أباك الأمير حمدون أيضاً اكراماً لك».

فلم تعد لمياء تستطيع سماع هذا الاطراء، وودت لو أنها تسمع عكسه عسى أن يخف بعض ما بها من تأنيب الضمير؛ فأحبت تغيير الحديث فقالت: « سندخل الليلة في شهر رمضان، جعله الله شهراً مباركاً عليك، وزادك من نعمه ومتعك بأبنائك؛ ما هي العادة في تناول الافطار عندكم؟».

قالت: « إن لأمير المؤمنين عناية خاصة بهذا الشهر، فهو يأمر أصحاب المطابخ باعداد طعام الافطار لأهل القصر، فتمد الأسمطة للخليفة وأهله وقواده وأمرائه وسائر رجال حكومته على حسب درجاتهم فيأكلون معاً؛ وتمد الموائد أيضاً للنساء من أهل هذا القصر، فأتولى أنا الإشراف على اعدادها بأيدي الجواري؛ وستكونين أنت معي، وسأجعل مجلسك بالقرب مني لأستأنس بك؛ وكذلك نفعل في طعام السحور أحيانا، وأما أنت فستكونين معي كل هذا الشهر في السحور والفطور، وسأريك عند الغروب كيف تمد الأسمطة وكيف يجلس الخليفة والأمراء عليها، وسترين أباك معهم».

فشكرت لها فضلها ، وأحبت الاستئذان في الذهاب إلى غرفتها فراراً من ذلك الحديث ولكي تريح أعصابها؛ فقد أحست بألم في رأسها لما قاسته بالأمس من الاضطراب، وزادها حديث أم الأمراء اضطرابا، فاعتذرت بالتعب؛ ولم تكن تحتاج في اظهاره أيَّ تكلف لأنه كان باديا في وجهها وقالت: « ألا تأذن مولاتي في انصرافي، فقد شغلتها عن شؤونها، وأنا أحس بحاجة إلى الراحة».

قالت: « إني أقرأ ذلك في عينيك، وهو طبيعي في مثل حالك؛ ولكنني أرجو أن تنسي ذلك بعد قليل»؛ وصفقت فجاءت حاضنتها فقالت: « أحب أن تكون عزيزتي لمياء في غرفة قريبة من غرفتي؛ قولي لقيّمة القصر أن تهيئ لها غرفتها فإنها ذاهبة إليها بعد قليل».

فأشارت مطيعة وخرجت، ولم تسرَّ لمياء بهذا الإكرام، لأنها كانت تود

البقاء بعيدة على انفراد خوفا من أن يظهر شيء منها من حيث لا تشعر فيفضح أمرها؛ لكنها لم تجد بدا من الشكر على ذلك الإنعام؛ وبعد قليل جاءت الحاضنة وقالت: « إن الغرفة مهيأة».

فنهضت لمياء وودعت؛ فقالت لها أم الأمراء: « سنلتقي هنا قبل الغروب». فأومأت لمياء مطيعة ومشت إلى غرفتها الجديدة؛ فلما دخلتها رأتها أحسن أثاثاً من الغرفة الأولى؛ وفيها مرآة جميلة من الفضة الصقلية مستديرة الشكل، ومنضدة عليه المكحلة والمشط والسواك وسائر ما تحتاج إليه المرأة في اصلاح شأنها؛ وبها سرير من الأبنوس، يبدو رغم بساطته ثميناً جدا، وكذلك كان كل ما في الغرفة.

على أنها ما لبثت أن عاودها قلقها، وما صدقت أن دخلت الغرفة حتى أغلقت بابها، وتوسدت الفراش، واستغرقت في الافكار، وقد سرَّها تأجيل الزفاف شهراً كاملاً لتتاح لها فرصة للتفكير والتدبير؛ وأخذت تفكر في استنباط حل يريح ضميرها؛ فتبقى هذه النعمة لها، وتعرف حق المعز وامرأته وفضلهما عليها فلا تخونهما؛ ثم هي تريد أن تحفظ لأبيها مقامه؛ ولما تصورت هذا خفق قلبها لما تذكرته من أمر سالم بالامس وكيف عاد خائبا، وما أظهره الحسين من المروءة وكبر النفس معه، وأحسَّت بانعطاف نحو الحسين؛ فكذبت نفسها وأخذت تغالط نفسها، وصورته لا تغيب عن مخيلتها كما رأته في آخر لحظة وهو يودعها ويوصيها بكتمان ما جرى لسالم، وقدَّرت تلك الأريحية حق قدرها، وجعلت تقنع نفسها بأن ما تحس به من الانعطاف إليه انما هو اعتراف بالجميل لأنها لم تكن تريد من سالم بديلا، وهو أول من طرق حبه قلبها صغيرة، فقد تسرب حبه اليها تدريجا لأنهما تعارفا منذ الصغر، فلم يأتها الحب فجأة كما أصابها هذه المرة؛ ولذلك لم تقتنع بأن شعورها نحو الحسين هو الحب الذي لا يلبث أن يتمكن؛ ولكنها باتت تنتظر ساعة الافطار بفارغ الصبر لكي تراه جالساً على السماط في جملة الجالسين كما قالت لها أم الأمراء، ثم غلب التعب عليها

فنامت واستغرقت في النوم.

***

أفاقت لمياء على أصوات المؤذنين في العصر، فنهضت وأصلحت من شأنها، ونظرت إلى وجهها في المرآة، فإذا بلونها ممتقع قليلا وقد ذبلت عيناها؛ فأحبت أن تتناسى هواجسها فخرجت لملاقاة أم الأمراء، فرأتها في انتظارها؛ وقد رحبت بها وسألتها عن صحتها، ثم أشارت إليها أن تتبعها لتطّلع على ما يعدُّونه من أسمطة الإفطار.

فمشت معها حتى دخلتا شرفة تطل على ساحة بعيدة الأطراف في جانب الحديقة قد نصب فيها سرداق كبير، وأخذ الخدم في مد الأسمطة والموائد، فأشارت إليها أم الأمراء فقعدت على مقعد أمامه ستر فيه كوى صغيرة تأذن للجالسين في رؤية كل حركة في تلك الساحة بدون أن يراهم أحد من أهلها، وقعدت أم الأمراء إلى جانبها، وجعلت تقص عليها ما تعودوه في الافطار، وهي ترى الخدم يهيئون الأسمطة على شكل خاص، أعلاها في الصدر سماط يتسع لبضعة عشر يجلسون على الوسائد حوله؛ وقد وضعت عليه أنواع الأطعمة والفاكهة، ونحو ذلك في أسمطة أخرى هنا وهناك، وعليه الأطعمة من اللحوم والافاوية وقد تصاعدت عنها روائح البهارات وغيرها؛ وما زالت رائحة الند المحروق في أطراف الحديقة غالبة على سواها حتى تكامل وضع أطباق الطعام، فتغلبت روائح الأطعمة وبهاراتها، واشتغل جماعة من الخدم السود في انارة المصابيح المعلقة بأعمدة السرادق، وأما الصقالبة البيض فكانوا مشغولين بحمل أطباق الأطعمة؛ ووقف جماعة منهم يحملون الأباريق الفضية والأقداح الزجاجية ليصبوا الماء للشاربين.

وانتهى إعداد كل شيء قبيل الغروب، ولمياء تتشاغل برؤية الخدم يذهبون ويجيئون بين الموائد صامتة، وشاركتها أم الأمراء صمتها، ثم قالت: «يحسن الآن أن نذهب إلى مائدتنا فقد أُعدت هي الأخرى».

فأظهرت لمياء أنها تؤثر البقاء حتى يجلس الخليفة والأمراء على الطعام ثم تنصرف؛ وبعد قليل أصبح أهل الحديقة في هرج واهتمام يتسابقون إلى التأدب في مواقفهم استعداداً لاستقبال أمير المؤمنين؛ ثم أطل الخليفة ماشياً الهوينى وبجانبه القائد جوهر، ووراءهما الحسين بن جوهر، ثم أولاد الخليفة وأهله، ثم الأمراء والقواد، فتفرقوا إلى مقاعدهم على الوسائد حول الأسمطة؛ فجلس المعز في صدر السماط الأول، وأومأ إلى جوهر فجلس إلى يمينه، ونادى الحسين فأجلسه بجانب أبيه، ثم جلس أبناء الخليفة وأهله حول ذلك السماط، وجلس سائر الأمراء والقواد حول الأسمطة الأخرى. وبعد قليل علت أصوات المؤذنين فأخذ القراء يتلون الفاتحة، وضج المكان بتلاوتها؛ وجعلت لمياء تتفرس في الوجوه فرأت أباها وقد دعاه المعز إلى أقرب الأسمطة إليه وهو يبش له ويرحب به؛ وظنت أم الأمراء أن لمياء لم تنتبه إلى ذلك فقالت لها: « هذا أبوك قد جاء؛ ويسرني ما أراه من إكرام أمير المؤمنين له».

ولما وقع نظرها على الحسين بن جوهر خفق قلبها، وتصاعد الدم إلى وجهها، فندمت وحولت نظرها عنه، وأخذت تغالب عواطفها ونهضت، وأظهرت أنها مستعدة لمرافقة أم الأمراء إلى مائدتها متى شاءت؛ فقالت أم الأمراء: « هذا الحسين أراه جالساً بجانب أبيه، إن هذا المنظر يغنيني عن الافطار، وأنت؟». قالت ذلك تداعبها، فسكتت لمياء وصبغ الحياء وجهها، وازدادت ارتباكاً؛ ولم تجد سبيلاً إلى إخفاء عواطفها إلا بالتحول عن المكان، فنهضت أم الأمراء، وهي تتبعها إلى قاعة مُدَّ فيها سماطها الخاص، فتبسمت إليه وأجلست لمياء إلى جانبها، وتناولتا الافطار على نحو ما وصفناه من إفطار الخليفة وأمرائه.

ولحظت أم الأمراء أن لمياء تسرع في تناول الطعام وهي ساكتة والاهتمام باد في عينيها، فأدركت أنها تود الرجوع إلى الشرفة، فاختصرت في الأكل حتى إذا فرغت منه قالت لها: « هلم بنا إلى الشرفة لنسمع ما يدور

من الحديث هناك».

فنهضت ومشت معها حتى تناست ندمها، ورأت أنها مدفوعة بدافع لا سلطان للعقل عليه، ولما وصلتا، كانت الأسمطة قد رفعت وانصرف معظم المدعوين، وجلس الباقون منهم بين يدي المعز، وفيهم جوهر وحمدون والحسين؛ وقد جلس حمدون بقرب جوهر يتحدثان ويتخلل حديثهما ضحك وتودد، فأصاخت لمياء بسمعها لتسمع ما يدور، فسمعت الخليفة يقول لأبيها: «سرَّني ما تجدد بيننا من الروابط بخطبة لمياء إلى ابن قائدنا، وإنهما لنعم العروسان؛ وسرور أم الأمراء لا يقل عن سروري وهي تود أن تختص عروسنا لمياء بالتفات هي أهل له، وستؤدي مهرها عن قائدنا، وسنسوقه إليكم قريباً، وسنخص العروسين بقصر من قصورنا مثل بعض أهلنا».

فأسرع جوهر إلى مقابلة هذا الإنعام بالنهوض، وأكب على يديْ المعز ليقبلهما، فمنعه المعز وقال: «إن الحسين ابننا ولمياء بنتنا، وكل ما يهمنا أن يكون زفافهما سعيداً مباركاً».

فقال حمدون: «إن نعَمَ مولانا فوق ما نستحق، ويكفينا شرفاً أن يكون العقد على يده، فيكون مَباركاً، ويزيد بركة إن تنازل مولانا وحضر حفلة الزفاف، وهذا مطمع جرأني عليه ما وجدته في مولاي من التواضع في محاسنتنا».

فلما سمعت لمياء هذا القول أكبرته، وخافت أن يكون أبوها قد شط في طلبه إلى ما لا يمكن اجابته، ورأت مثل هذا الاستغراب من جوهر أيضاً؛ أما المعز فابتسم وقال: «إن ذلك مما يزيد في سرورنا، لأن قائدنا جوهر أهل لما هو فوق ذلك».

فترامى جوهر على ركبة المعز وقبَّلها وهو يقول: «قد غمرني أمير المؤمنين بفضله وإحسانه».

فأسرع حمدون إلى الكلام قائلاً: «لم أطلب ما طلبت إلا وأنا أعرف منزلة القائد جوهر عند مولانا أعزه الله، وقد جرَّأني على ذلك أن أمير

المؤمنين حفظه الله خطب للحسين ابنتنا لمياء، ونحن أتباعه، ومهما نفعل لا نقوم بواجب الشكر على نعمه».

فكانت لمياء تسمع هذا الحديث وقلبها يطفح سروراً لما توسمت فيه من تغيُّر رأي أبيها في المعز فيقلع عما كان بيَّته له، ولما تصورت ذلك اعترضها شبح سالم كأنه يؤنبها على ايثارها الحسين عليه، فإنه لو تم الزفاف بلا فتك لصارت عروساً للحسين ، فارتبكت في تفكيرها، ولبثت صامتة وأفكارها تائهة وأم الأمراء تراعي حركاتها، فلحظت اضطرابها، ولكنها لم يدر بخلدها ما كان يجول في خاطر لمياء.

ولما فرغ حمدون من قوله أجابه المعز بقوله: « إن ظنك في محله أيها الأمير، ولكن قائدنا لم يعرف حقيقة منزلته عندنا، إننا سنشهد حفلة الزفاف، ولا بد أن يكون ذلك في معسكركم حيث تقيم العروس قبل زفافها».

فأجاب حمدون: « أينما كان فنحن في ظل أمير المؤمنين، وليس لأحد منا معسكر أو قصر إلا من نعمه، وإذا تنازل المولى ورأى أن يكون ذلك في ظاهر المنصورية أرياه عادة السجلماسيين في الاحتفال بأعراسهم، وسيجري الفرسان هناك في حلبة السباق، ويلعبون على ظهور الخيل، ولعله يُسرُّ أن يرى رجاله وعبيده يتسابقون على الأفراس بين يديه، ولو كان في المنصورية متسع لهذه الألعاب، أو لو أمر سيدي بذلك فإننا مطيعون».

قال المعز: « بل نذهب إلى معسكركم ونشاهد احتفالكم؛ إني كثير الشغف برؤية الفرسان يتسابقون، ولا سيما فرسان سجلماسة المشهورين بالفروسية والمهارة في ركوب الخيل، فمتى ترى أن يكون ذلك؟».

فقال حمدون: « ليس لأحد منا رأي، فإن الأمر في ذلك لمولانا».

فنظر المعز إلى جوهر كأنه يستشيره فبادر إلى الجواب قائلاً: « الأمر لمولاي».

فقال المعز: « أما وقد دخلنا في شهر رمضان المبارك، فلا أرى أن يتم

الزفاف قبل انقضائه، فنجعله في عيد الفطر تبركاً به، ويكون احتفالنا بالزفاف في وقت احتفالنا بالعيد».

فبان البشر في وجهيْ حمدون وجوهر، وأخذا في تنميق عبارات الثناء، أما لمياء فلم يكن ذلك جديداً عليها، وكانت قد سمعته من أم الأمراء، ولحظت من خلال تلك الاحاديث أن المعز عمل بما أوحته إليه امرأته، فوثقت حينئذ بأنها شديدة الاهتمام بأمرها وبحبها لها؛ والتفتت إليها لفتة ملؤها الامتنان والشكر، ففهمت أم الأمراء من تلك اللفتة ما لا تقوى الألسنة على بسطه، وكان جوابها أنها ضمتها إلى صدرها وقبلتها، فأكبت لمياء على يدها لتقبلها، فمنعتها وقالت: «ثقي يا بنية بأن فرحي باتمام الأمر يكفيني، ولكنهم أطالوا أجل الاقتران أليس كذلك؟» قالت ذلك تداعبها.

فأطرقت لمياء حياء، فابتدرتها أم الأمراء قائلة: «أعني أنهم أطالوه عليَّ أو على الحسين، ألا ترينه ساكتاً مطرقاً لا يكلم أحداً، إني أعدُّ هذا الشاب من أولادنا كما أعدُّك ابنتنا، ولذلك لا أرى أن يأخذوك إلى بيت أبيك إلا قبل الاقتران ببضعة أيام؛ أريد أن أشبع منك».

وكانت لمياء في أثناء ذلك قد عادت هواجسها إليها، وأصبحت شديدة الرغبة في مقابلة أبيها لترى هل أقلع عن عزمه بعد ما لقيه من إكرام المعز، أم كان في ما قاله مداجاة، وسبق إلى ظنها أنه يظهر ما يعتقده لأن الصادق الحر لا يتصور نفاق الكاذبين، ثم هي من الجهة الأخرى يشق عليها أن تقبل الحسين، وتعد قبولها خيانة لسالم.

وفيما هي في ذلك رأت الخليفة يتحفز للنهوض، فنهض الجلوس واستأذنوا في الانصراف، ونهضت أم الأمراء ومشت لمياء معها، وهي تود ألا تعود إلى محادثتها في أمر ذهابها إلى أبيها، لأنها تحب أن تترك الأمر للمقادير لترى ما يكون في أثناء رمضان، وتحب أن تخلو إلى نفسها لتفكر في أمرها وتحل هذه المشكلة حلا معقولاً.

ودعت لمياء أم الأمراء، وذهبت إلى غرفتها وهي غارقة في بحار

الهموم؛ ولم تكد تخلو بنفسها حتى طرق في ذهنها فكر أحست بارتياح إليه، وذلك أنها قابلت بين ما دار بينها وبين أبيها بالأمس في فسطاطه بحضور أبي حامد، وبين ما ظهر منه بين يديْ المعز في هذا المساء فوجدت فرقاً كبيراً؛ فتبادر إلى اعتقادها أن أبا حامد هو الذي حرَّضه على الفتك بالخليفة، وأنه لو تُرك لنفسه لم يرض بذلك، وتذكرت ما عرفته من ظواهر هذا الرجل في أثناء إقامته بسجلماسة، وما كان يسرُّ اليها سالم أحياناً من الأغراض السياسية التي يرمي إليها، فرجح لديها أن أبا حامد هو علة المفاسد، وأنها لو انفردت بأبيها وباحثته في أمر المعز لأقنعته بأن يرجع عن عزمه؛ فارتاحت لهذا الفكر؛ ولكنها لم تكد تشعر بالراحة حتى تصورت أنها تصير عند ذلك زوجة للحسين تقيم بالمنصورية؛ وماذا تفعل بسالم؟ فوقف ذهنها عند هذه النقطة، فرأت في عدول أبيها عن الفتك بالمعز ما يفرق بينها وبين سالم.

فأخذت تخاطب نفسها قائلة: « ما العمل إذن؟، أأرضى بقتل المعز وهو سلالة فاطمة الزهراء وصاحب الفضل الأكبر عليَّ، وأسلِّم بقتل جوهر القائد العظيم؟ وهب أني رضيت فهل تفلح هذه المكيدة؟ ألا يجوز أن تعود عاقبتها وبالاً علينا؟ بأي شيء نحارب جند الخليفة؟ وكيف نحارب الحسين، ذلك الشهم صاحب المروءة ونقتله أيضاً؟ ما ذنبه؟ بل ما ذنب الخليفة وقائده؟ إنها مكيدة ملؤها الخداع والغش، فكيف ترضين يا لمياء بهذه الرذيلة؟. يكفي ما أراه من كرم أخلاق هذه الامرأة التي تحبني محبة الأم أأرضى أن أكون وسيلة لسقوطها؟ كلا. كلا. إني إذن قاتلة خائنة، ولكن عدولي عن هذا الأمر يحرمني حبيبي، فماذا أفعل؟ أأطلع أم الأمراء على سر الأمر ليحذروه؟ عند ذلك أكون قد عرضت سالماً للقتل وعرضت أبي للموت؛ هل أسمح بقتل أبي وحبيبي؟ كلا. ويلاه ما هذه المشكلة التي لا حل لها؟».

وكانت جالسة على الفراش تفكر في ذلك، وعيناها شاخصتان إلى نور

المصباح، فلما وصلت إلى هذا الحد من الارتباك، وثبت وقد هاجت أشجانها وأخذ القلق منها؛ وجعلت تتمشى في الغرفة، وتعيد النظر في المسألة طرداً وعكساً، فلا تجد لها حلاً الا بارتكاب الخيانة أو القتل فضلا عن محاربة العواطف، وهي أشد وطأة من كليهما.

***

قضت في التفكير ساعة أو ساعتين حتى ملت التردد، وأُغلق عليها الأمر فوقفت باتجاه المرآة، فرأت ما أصاب سحنتها من التغيير، فقالت: «إني أرى لمياء في هذه المرآة غيرها في مرآة أبيها بسجلماسة، ويلاه ما كان أغناني عن هذه القلاقل، بل ما أغنى أهل القيروان عن هذه السحنة العائدة عليهم بالشؤم والخراب، هل العيب في المرآة وهي التي غيرت لمياء؟ أم أنها تريني وجهي كما هو وإنما العيب فيَّ؟ لقد كان الأولى بي أن أبقى على رفض هذا النصيب، وليتسابق هؤلاء إلى القتل على غير يدي؟. هل أقدر على ذلك الآن؟ وبأي لسان أقوله؟ وبأي وجه أقابل أم الأمراء؟ هل أبوح لها بسري وأستشيرها في أمري؟ لا أقدر.. ويلاه يا ربي ماذا أفعل!؟».

وتحولت عن المرآة إلى السرير، واستلقت عليه وقد أظلمت الدنيا في عينيها، فلم تجد لها فرجاً في غير البكاء، فأطلقت لنفسها العنان فيه، وصارت تشهق وتندب نفسها حتى كاد يغمى عليها، ثم عادت إلى مناجاة ربها فقالت: «إلهي قد لذَّ لي الموت فخذني إليك، إن موتي خير حل لهذه المشكلة، فينجو المحسنون إليَّ من القتل، وأتخلص من التردد القبيح، ولكن هل أقتل نفسي بيدي؟.. لا. لا. الأفضل أن أفر من هذا المكان إلى حيث لا يراني أحد حتى تأتي ساعتي. رباه! أأكون لمياء قاهرة الأعداء في حومة الوغى، وأرزح تحت هذه الأوهام؟ سأعود فأرفض الحسين وأعتذر له بأني لا أريد الزواج! ولكن كيف أفعل ذلك؟ مسكين الحسين!. إنه ذو فضل ويظهر أنه أحبني.. آه يا سالم يا حبيبي؛ كيف أموت أو أفر وأتركك؟ لقد بارزت الفرسان واستقبلت النبال في ساحة القتال فلم أجد أصعب مراسا

من الحب، إنه يملك ناصية القلب، ويلاه! . هل في الدنيا فتاة أشقى حالاً مني؟!» .

ثم سكتت وكأن البكاء خفف مصابها، وقشع السويداء عن عينيها، وتذكرت أن لديها شهراً كاملاً لإعمال فكرها فقالت: «فلنصبر إن الله مع الصابرين»؛ وذهبت إلى فراشها وقد أخذ التعب منها مأخذاً عظيماً.

-٧-

فرار سالم

خرج حمدون من قصر المعز بعد العشاء، وقد أدهشه ما رآه هناك من الأبهة والعظمة، وأكبر الاقدام على تنفيذ تلك المكيدة، ولا سيما بعد الذي لقيه من الاكرام والمؤانسة من الخليفة وقائده وسائر أمرائه، وأحس بخطر الأمر الذي هو مقدم عليه، فقضى مسافة الطريق إلى معسكره وهو يفكر في ذلك، وتحريض أبي حامد لا يزال غالبا على عقله، فوصل إلى خيمته يريد أن يخلو إلى نفسه ليعمل فكره، ويرجح أحد الوجهين، ولم يكد يستقر به الجلوس حتى جاء أبو حامد، وما وقع نظره على حمدون حتى استطلع ضميره، وكشف عما يجول في خاطره، وأراد أن يتحقق ذلك فقال له: « كيف لقيت أمير المؤمنين؟» .

فأجابه حمدون وهو يحاول اخفاء ما يجول في خاطره: « لقيته كما أعهده وكما تعهده أنت!» .

فلم يستغرب منه تلقيب المعز بأمير المؤمنين، وتحقق صدق فراسته فيه فقال: « أعني هل لقيت منه أنسا؟» .

قال: « لقد جاملنا وآنسنا وأكرم وفادتنا، وددت لو أنك كنت معنا» .

قال: أنا أعلم اقتدار هذا الرجل وسعة صدره، ولولا ذلك لما تمكن من التغلب على سائر الأمراء حتى سمى نفسه أمير المؤمنين» .

قال: « صدقت، إنه واسع الصدر كبير العقل، ورأيت منه انعطافاً خاصاً

لأنه أصبح يعدني من أهله، ورأيت قائده أيضاً مثله».

فتنحنح أبو حامد وقد ترجح ظنه في تغير عزم حمدون وقال: «أظنك أدركت الليلة خطر الأمر الذي نحن عازمون عليه؟».

قال: «كيف لا وقد دان لهذا الرجل كل الأمراء والقواد، وأصبح صاحب الكلمة النافذة؟. إن تنفيذنا ما عزمنا عليه لا يخلو من الخطر».

فاستمسك حمدون بهذا التصريح، ورأى ضعف العزيمة في أبي حامد فقال: «هل ترى الخطر يربو على الأمل في النجاح؟».

قال: «أراه أضعاف أضعافه؛ ولكن ما العمل وقد رأيتك عازما على استرجاع مجدك حتى فضلت الموت على التسليم؟». قال هذا متعمداً جعل تدبير المكيدة لرغبة حمدون في استرجاع ملكه.

فهان على حمدون أن يتراجع بنظام فقال: «لكن ينبغي للرجل العاقل أن يقدر العواقب، ويعمل بالرأي السديد، وما لا يستطيعه اليوم قد يستطيعه غداً».

فتحقق أبو حامد ما توسمه في صديقه من ضعف العزيمة، فعمد إلى استطلاع ما دار في تلك الجلسة، وهل قبل الخليفة أن يحضر الاحتفال بالزفاف في معسكرهم فقال: «هل وافق على أن تزف لمياء من معسكرنا ويكون هو حاضراً؟».

قال: «لم أطلب منه طلباً إلا ووافقني عليه، وقد وافق على هذا وأكثر منه، ولذلك قلت لك: «إنه جاملنا وأحسن وفادتنا؛ وهذا ما غيَّر رأيي فيه».

فعمد أبو حامد إلى المداهنة فقال: «بارك الله فيك؛ إن الفائدة مشتركة بيننا، فإذا كنت قد رأيت ما أراه أنا من الخطر في هذا العمل الآن وأحببت أن تؤجله، فإني أوافقك على تأجيله، ولكل أجل كتاب».

فانطلت حيلة أبي حامد على حمدون وصدَّقه فقال: «يعجبني حزمك وتعقلك، فأنا أرى التأجيل أقرب إلى الحكمة ريثما نتمكن من فرصة أبرك من هذه».

وكان أبو حامد لا يزال واقفاً يتشاغل في تدبير مكان يجلس عليه، فلما سمع قول حمدون ابتسم، وأظهر الارتياح وجلس إلى جانبه، ووضع يده على ركبته وقال: « ألا ترى صعوبة في حمل لمياء على تغيير رأيها؟ ».

قال: « إن لمياء أكثر رغبة منا في الرجوع عن قتل الخليفة، ولا سيما بعد أن تبرع أن ينوب هو وامرأته عن الحسين في تقديم المهر، ولا بد أن تكون أم الأمراء قد أخبرت لمياء بذلك، وهذا يزيدها تعلقا بها؛ والحق أن المعز وامرأته قد بالغا في مجاملتنا واكرامنا، أظنني لم أخبرك بالمهر الذي عزما على تقديمه؟ ».

فقطع أبو حامد كلامه وهو يروغ كالثعلب وقال: « أظنهما وعدا بمال كثير وحلى ثمينة؟ ».

فضحك حمدون وقال: « هناك ما فوق المال والحلى! إن أم الأمراء ستقدم للعروس أحسن ما يرجى تقديمه لمثلها من الاثاث والحلى والثياب، وستملأ بيتها بالجواري والخدم وغير ذلك ».

فقال أبو حامد وهو يظهر الاستغراب: « والخدم أيضاً والجواري؟ ».

فقال حمدون: « وفوق ذلك أن الخليفة نفسه سيهدي إلى لمياء قصراً في المنصورية تقيم به مع زوجها، وسيعدُّها من أقرب الناس إليه ».

فقال أبو حامد وهو يهز رأسه ويرفع حاجبيه استغراباً: « إن مثل هذا الرجل لا تقدم النفس على الحاق الأذى به ولكن . . ».

فسبقه حمدون قائلاً: « ولكن لمياء عالقة القلب بسالم، وإذا تم اقترانها بالحسين ربما تنغص عيشها ».

فأظهر أبو حامد التألم من فكر خطر له كأنه ابن ساعته وقال: « سالم! سالم! دعني من سالم إنه لا يليق بلمياء، وهي لو علمت بما فعله لكرهته؛ حتى أنا مع أنه بمنزلة ابني قد كرهته ».

فاستغرب حمدون كلامه وقال: « وكيف ذلك؟ ».

قال: « أتعلم أين سالم الآن؟ ».

قال: « كلا، . . أليس هو هنا؟ » .

قال: « لا أعلم مقره؛ ولكن يظهر أنه فر من هذا المعسكر . . أظنه خاف مغبة الأمر الذي أقدمنا عليه فلاذ بالفرار » .

قال حمدون: « لا أظنه يفر وهو رجل باسل » .

فقال أبو حامد: « لا يليق بي أن أكشف عيبه، لكنني لا ينبغي لي أن أكتمك أمرا بعد ما علمته من صداقتي واخلاصي، وأنا أغار على لمياء وأجلُّ مناقبها فلا أغشها » ، وتنحنح كأنه يستنكف من التصريح بذلك الأمر الفظيع .

فقال حمدون: « ماذا جرى؟ » .

قال: « أتذكر خروج سالم مساء أمس في أثر لمياء ليرافقها إلى المنصورية؟ » .

قال: « نعم أذكر أنه أراد أن يرافقها فتقدمت إليه ألا يفعل » .

قال: « ليته لم يفعل؛ لكنه أصر على الذهاب فعاد بالفشل والعار » .

قال: « وكيف كان ذلك؟ » .

قال: « لقد عاد اليَّ آخر الليل وقص عليَّ ما لقيه وحاول اخفاء الحقيقة لكنني قرأتها من خلال حديثه » .

قال: « ماذا عمل؟ » .

قال: « ذهب في أثر لمياء فوجدها مع رجل عرف بعد ذلك أنه الحسين ابن جوهر، وكان في انتظارها حتى يسير في خدمتها إلى مأمنها، فأنكر سالم عليه ذلك، وأمرها أن تتركه وتسير معه ففعلت؛ فلما أشرفوا على المنصورية خرج عليهما الحراس وكادوا يقبضون عليه، ويسوقونه إلى السجن لو لم يبادر الحسين إلى انقاذه، فعاد والفشل يفطر من أردانه، وشفع ذلك الفشل بالكذب، فاقتضب الحديث ولم يذكر فشله؛ ولكن أبا حامد لا تنطلي عليه هذه الألاعيب؛ فوبخته على جبنه فغضب وخرج من عندي لعله فر خوفا من غضبي، ولو فتشت عنه في المعسكرين لم تقف على خبره! » .

قال ذلك مظهراً الأسف على ما جرى .

فصدق حمدون كلامه وقال: « لله درك، إنك تطّلع على خفايا القلوب، فلا أعجب من اطلاعك على سر سالم؛ ولكنني لم أعهد فيه شيئاً من ذلك قبلاً».

قال: « هذا هو الواقع، ولعلك لو سألت عن هذا الأمر لأيدت ما قلته، وربما آثرت ترك سالم لأنها شهدت فشله بنفسها».

فقال: « غداً نبعث إليها ونستطلع رأيها».

قال: « حسناً تفعل وأنا واثق بأنها توافقك على ما ذكرت؛ وعند ذلك تتحول مهمتنا إلى ما هو أقرب لخير لمياء، ونترك أمر الإنتقام حتى تسنح لنا فرصة أخرى، وقد نرى من الحكمة السكوت عن هذا الأمر كله إذا رأينا القوم يعرفون قدرك ولا يبخسونك حقك».

***

ارتاح حمدون لرأي أبي حامد، وكان على ثقة من رضاء لمياء، وقد عزم على اقناعها، فبات تلك الليلة وهو يحلم بما سيكون له من المنزلة الرفيعة بعد تلك المصاهرة، ونسي أنفة آل مدرار وعز سلطانهم! . والحقيقة أنه لم يفطن لذلك العز لو لم يحرضه عليه أبو حامد الداهية، فلما رآه قد وافقه على السكوت والرضا بالخضوع فرح وبات تلك الليلة مطمئنا، وعزم على أن يبعث في استقدام لمياء إليه ليبشرها بذلك الرأي الجديد.

وأيقظه الغلام للسحور قبل الفجر، ولم يكد يفرغ من سحوره حتى أتاه الحاجب ينبئه بقدوم رسول من صقالبة القصر، فأذن في دخوله فإذا هي لمياء متنكرة، فرحب بها وقبّلها وقد توسم القلق في عينيها، فعلم أنها مبكرة إليه في شأن ما كان في أمس، فابتدرها قائلاً: « أراك مبكرة يا لمياء؟».

قالت والدمع يترقرق في عينيها: « إني لم أذق مناماً في هذا الليل».

قال: « ولماذا؟»؟

قالت: « أتسمح لي أن أقول ما في خاطري؟».

قال: « قولي، ولكني أحب أن تسمعي ما أقوله أنا قبلاً».

قالت: « تفضل ».

قال: « وقد كنت في مثل قلقك أمس، ولكنني اهتديت إلى حل جميل ارتاح له خاطري ».

قالت: « وما هو؟ ».

قال: « هل علمت أني تناولت طعام الإفطار أمس في قصر أمير المؤمنين؟ ».

فلما سمعت قوله « أمير المؤمنين » استبشرت وقالت: « نعم علمت وقد سمعت ما دار بينك وبين الخليفة والقائد ».

قال: « هل علمت بما عزم عليه الخليفة من اكرامك بالمهر وغيره؟ ».

قالت: « سمعت . . . أمثل هذا الرجل . . ».

فقطع كلامها قائلاً: « دعيني أتم حديثي؛ إن ما لقيته من ذلك الإكرام، وما آنسته من سعة صدره وطيب عنصره، ومن حب أم الأمراء لك، قد أثر فيّ كثيراً ».

فأبرقت أسرّتها وضحكت والدموع تتدحرج على خديها من الدهشة وقالت: « هل أثر فيك ذلك؟ وهل يليق أن؟ ».

قال: « اسمعي، إني وجدت الأمر الذي كنا عزمنا عليه خيانة لا تليق بنا ».

فلم تتمالك من الاسراع إلى يده فتناولتها وأخذت تقبلها ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت: « الحمد لله، قد فرجت كربتي، صدقت يا أباه إن أمير المؤمنين لا يستحق هذه الخيانة، ولو عرفت مقدار حب أم الأمراء لي لازددت حرصا على حياتهما، بالله قل هل رجعت عن عزمك؟ ».

قال: « لقد رجعت من عند المعز وأنا أحدث نفسي بذلك، وكنت أحسب أبا حامد لا يوافقني فوجدته أشد رغبة مني فيه؛ لأنه رأى ما رأيته، وأنت تعلمين ذكاء هذا الصديق وتعقله ».

فتضاعف استغرابها لأنها لم تكن تتوقع هذا الفرج المزدوج، وكانت

عازمة على اقناع أبيها بما رأته ولو خالف أبا حامد، فلما رأت أبا حامد موافقا له انبسطت نفسها، وتولتها الدهشة لهذه المفاجأة فقالت: « عجبا هل وافقك أبو حامد على رأيك أيضاً؟ ».

قال: « وليس ذلك فقط لكنه خلصنا من أمر آخر يتعلق بسالم ».

فلما سمعت اسم سالم انقبضت نفسها لتذكرها المشكلة التي لم تجد لها حلا، فقالت: « وكيف خلصنا من أمر سالم، أين هو الآن ». قالت ذلك وقد صبغ الحياء وجهها وعلاه قلق واضطراب.

فقال: « نعم إنه أنقذنا من مأزق عظيم، وقد سألت عن سالم أين هو، فاعلمي أنه ليس هنا؛ ولكني قبل أن أقول شيئاً أسألك سؤالاً أرجو أن تصدقيني فيه ».

قالت: « وما هو؟ ».

قال: « لما لحق بك في تلك الليلة ما الذي جرى له؟ ».

فتذكرت وصية الحسين بالكتمان وهي تضن بسالم أن يهان فقالت: « ماذا جرى له؟ لم يجر له شيء! ».

قال: « أصدقيني، إني قد أطلعت على فشله وجبنه فلا تنكري شيئاً ».

فاستغربت تصريحه وقالت: « من قال ذلك؟ لم يكن معنا أحد سوى الحسين وهذا لم يقص عليك الخبر ».

فقال: « ما أدراك أنه لم يقصه علينا؟ ».

قالت: « لأنه أمرني بالكتمان ».

قال: « لماذا أراد كتمان الواقع إن لم يكن في ظهوره عيبا يلحق بسالم؟ قولي الصدق ».

فلم تطعها نفسها على الانكار فقالت: « إنه أساء التصرف مع الحسين لأنه لم يكن يعرفه؛ ولكن من قص عليك الخبر؟ سالم؟ ».

قال: « لا. إن سالماً خجل من قول الصدق، ولكن أبا حامد قص عليَّ أمس، وقد استطلعه بفراسته ووبخ سالماً عليه حتى أغضبه فخرج من

المعسكر لا ندري إلى أين».

فصاحت رغم ارادتها: «ويلاه إلى أين ذهب؟».

فقال حمدون: «يظهر أنك لا تزالين على حسن ظنك به، في حين أن عمه نفسه قد رذله واحتقره، وقد قال لي: إنه ليس أهلاً للمياء الشريفة الصادقة، والحق أن خطيبا يرجع من بين يدي خطيبته بمثل هذا الفشل لا يليق بها».

فقالت وصوتها مختنق: «أبو حامد قال لك ذلك؟».

قال: «نعم إذا كنت لا تصدقين فإني أدعوه ليقول لك ذلك أمامك».

فغصت بريقها وأطرقت وقد تولتها الحيرة، وتحرك قلبها فتذكرت منزلة سالم عندها؛ وهي تجله وتنزهه عن كل عيب، فكيف تسمع هذا القول وتسكت فصاحت: «كلا، إن سالماً شهم لا يستحق هذه الاهانة؛ إن عمه قد ظلمه!». وشرقت بدموعها.

فقال: «لله درك أنت يا لمياء!. بل لله من الحب ما أقوى سلطانه!. إن أبا حامد هو الذي رغَّبنا في سالم، ثم هو اليوم يقول: إنه جبان لا يليق بك؛ ومع ذلك فإن وصولك إليه لا يكون إلا بقتل المعز وقائده فهل نعود إلى عزمنا الأول؟».

فأجفلت وقالت: «لا لا. إن أمير المؤمنين لا يستحق ذلك».

قال: «وهل جوهر يستحقه؟». قالت: «لا».

قال: «وهل الحسين يستحقه؟».

فلما سمعت إسم الحسين شعرت باحساس يشبه ما شعرت به ساعة وداعه تلك الليلة، إذ سحرها بمروءته وسعة صدره؛ فسكتت وتوردت وجنتاها وتسارعت دقات قلبها وغلبت على أمرها، فأطرقت والدموع تتساقط من عينيها وأبوها يراعي حركاتها ثم قال: «لا بد من قتل الخليفة وقائده أو التخلي عن سالم الجبان».

فصاحت وقد تحيرت في أمرها: «لا هذا ولا ذاك، لا تقل الجبان إنَّ

سالماً، آه ويلاه كيف أسمع هذا القول فيه؟!». وعادت إلى البكاء.

وفيما هي في ذلك سمعت وقع خطوات مسرعة خارج الخيمة، فالتفتت فإذا بأبي حامد قد دخل متزملا بعباءته وعلى رأسه عمامة صغيرة لاكها حول رأسه على غير نظام كأنه ناهض من الفراش.

فنهضت لمياء احتراماً له، فأسرع إليها وأقعدها وهو يقول: «لا تذكري سالماً بفيك، إنه ابن أخي، بل هو بمنزلة إبني، ولكنني أنكرته منذ أمس، وهو غير أهل لك، وأنت أعلم الناس بالسبب، ومع هذا فهو ليس هنا؛ ومن كانت مثل لمياء التي جمعت شجاعة الرجال إلى لطف النساء، فضلاً عن صدق اللهجة واخلاص الطوية، فيجب أن تتغلب على عقلها وتعمل بعقلها وكفى!» قال ذلك وقعد بجانب حمدون.

فقالت وهي تغص بريقها: «مهما يكن من الأمر فإني لا أطيق أن أسمع مثل هذا القول في سالم؛ دعونا منه».

فقال أبوها: «وهذا ما أدعوك إليه الآن»؛ واظهر الاهتمام وتطاول نحوها كأنه يريد أن يهمس في أذنها وقال: «هذا أخي أبو حامد قد رأى مثل رأيي أن الأمر الذي كنا ساعين فيه لا يليق بنا تنفيذه، فعزمت على أن أدعوك لأقص عليك ما جرى، وكنت أعتقد أن تتلقينه مسرورة فإذا أنت تجادلينا في سالم، فإذا لم يعجبك رأينا الجديد عدنا إلى القديم».

فخافت أن يغضب والدها فيرجع إلى سوء رأيه فقالت: «قد رضيت، لكنني أتقدم إليكم ألا تذكروا سالماً بسوء، لنرى ما يأتي به القدر».

فقال أبو حامد: «نسكت عن سالم ولكننا فرحون بما اجتمع عليه رأينا، وسنحتفل بقرانك في هذه الساحة احتفالاً لم يُسمع بمثله، ونزفك إلى الحسين بن جوهر بحضور الخليفة، وإذا كان سالم أهلاً لك فليأت ويأخذك بنفسه، وقد عهدنا المحبين يتفانون في هذا السبيل، ولا يفعلون ما فعله سالم من الفرار الذي تعلمينه، دعينا منه، لا أحب أن أعود إلى ذكره إكراماً لك».

فسكتت وهي ترى الصواب في ترك سالم بعدما رأته من تصرفه، فضلاً عن البواعث القاهرة التي ألجأتها إلى قبول غيره، لكن قلبها لم يطاوعها على الارتياح لهذا الاقتراح، فجعلت قبولها مشفوعاً بانتظار ما يأتي به الغد أو تدبره الأقدار.

وانفضت الجلسة وعادت لمياء إلى المنصورية تنتظر أمر أبيها في القدوم إليه قبيل الزفاف، أما حمدون فاطمأن قلبه ووطن نفسه على الاكتفاء بالقربى من المعز لدين الله ولو إلى حين، وشفع قبوله أيضاً بانتظار ما يأتي به الغد.

-٨-

في كهف الساحرة

خرج أبو حامد من تلك الجلسة وقد تعبت نفسه لكبته إرادته وتكلفه الظهور بغير ما يضمر؛ فما صدق أن عاد إلى فسطاطه وخلا إلى نفسه حتى تنفس الصعداء، وقد هاجت ضغائنه وغلت مراجل حقده، وأخذ يزمجر كالأسد الجريح، وأمر خادمه ألا يدخل عليه أحد، ثم جعل يخطر في الفسطاط ذهاباً وإياباً مطرقاً يعمل فكره، ويستحث قريحته في ابتكار حيلة ينال بها غايته؛ وقد عظم عليه رجوع حمدون عن قتل المعز؛ ولم يكن أسهل عليه من أن يقنعه بما له من التسلط على أفكاره، لكنه خاف أن يعيد الكرة عليه على غرة فيبوح بسره فيعود ذلك وبالاً عليه؛ فأظهر له ارتياحه إلى رجوعه عن عزمه، وأضمر أن ينفذ غرضه بنفسه، فيقتل المعز وقائده، وقد يقتل حمدون وابنته وزوجها؛ فإنه لا يبالي من يقتل في سبيل إدراك أربه.

قضى وقتاً في هذا التفكير، وهو يخطر ذهاباً وإياباً ويناجي نفسه قائلاً: «أنا أبوحامد سيف النقمة، فما بالي أطعت ذلك الأمير المغرور في الرجوع عن قتل المعز؟ لقد أقنعته بأني أسعى في هذا القتل إكراماً لأعيده إلى سرير ملكه في سجلماسة، وصدق أنه من آل مدرار أصحاب هذه المملكة

العظيمة، مع أنه دعيٌّ في نسبهم لأنهم انقرضوا منذ أعوام؛ ولكنه حسبني أقول ما أعتقد، فوافقه قولي، ورضي بذلك النسب، وبنى عليه حقه في امارة سجلماسة، ووافقني أيضاً على الفتك بالمعز وقائده؛ وأنا أعلم ضعفه وتردده وطالما خفت نكوله، فأحمد الله إذ غيَّر رأيه قبل أن أكون قد حبكت مؤامرة القتل، وأطلعته عليها وإلا لباح بها لصديقه ومولاه المعز، فيذهب سعبي عبثا؛ أما الآن فإني أكتم تدبيري عن كل إنسان فأقضي عليهم أجمعين. . أبا عبد الله! سأثأر لك؛ نم هادئاً، سأجري دماء أعدائك في قناة حتى تدرك قبرك فترتوي أنت منها كما أرتوي منها أنا هنا. في فج الأخيار مستودع القوة، فإذا فرغت من قتل هؤلاء الأعداء عدت إلى اتمام مهمتي، ويل لهم من نقمتي!».

وكان يناجي نفسه هكذا وهو يمشي ثم يقف ثم يمشي كالحيران، ويعبث تارة بشاربيه وطوراً بلحيته، أو يقضم أظافره بأسنانه حتى كاد يدمي أنامله من عظم ما هاج في خاطره؛ ولو نظر إلى وجهه في المرآة لرأى سحنته مرعبة، إذ احمرت عيناه وانتفش شعره لكثرة عبثه به، وقد أفسد نظام عمامته ولحيته وشاربيه كأنه خارج من عراك طويل.

ثم تمالك وأخذ يصلح من شأنه ويتظاهر بالسكون وهدوء البال، ونادى غلامه وأمره أن يسرج له الجواد، ثم ركب والغلام في ركابه والشمس في الضحى؛ وكان قد تعود الركوب للرياضة فلم يشك فيه أحد؛ فلما صار خارج المعسكر أمر الغلام بالرجوع وأوصاه بأن يكتم أمره ووجهة سيره عن كل إنسان.

وساق أبو حامد جواده حتى أوغل في الصحراء وقد حميت الشمس، وانعكست أشعتها على الرمال فظهرت لامعة تتوهج، وأرسل نظره إلى الأفق ليتطلع إلى الجبل الذي يقصد إليه فوجد السراب قد حجبه؛ ورغم ما تعوده من مشاهدة السراب في البادية في مثل تلك الساعة فقد خدع به؛ فكان يتوقع أن يرى في أقصى ما يقع عليه بصره من الأفق جبلا مخروطي الشكل

مميزاً عما يحف به من الجبال، فأوهمه السراب أن هناك بحيرة تتراءى في مائها صور وأشجار تظهر مقلوبة، وخُيل إليه أنه يرى قوارب سابحة على سطح البحيرة.

شغله ذلك المنظر برهة وإن لم يصدقه، وكلما اقترب من المكان انجلى له حتى وصل إلى الجبل وأكثره أجرد، وفيه كثير من الكهوف والشقوق على شكل يندر بين الجبال، ثم دار بجواده في منعطف صاعد يصعب سلوكه لضيقه حتى بلغ إلى ماوراء الجبل وهو لا يسمع غير وقع حوافر جواده أو صهيله؛ وهناك أشرف على سهل رملي ليس فيه شيء من العمارة.

وكان يتلفت إلى الوراء حذرا من أن يكون أحد في أثره حتى اقترب من مغارة عظيمة لها باب كبير منقور في ذلك الجبل، فتنحنح نحنحة خاصة فسمع مثلها في قاع المغارة، فساق جواده حتى وقف في الداخل، فسمع منادياً يقول والصدى يردد قوله: « ادخل يا مسعود». فترجل ودخل وهو يقود الجواد، وكان هذا قد أحس برطوبة المكان فتوالى عليه العطاس ودوّى صوت عطاسه دوياً زاده اجفالا.

وبعد مسير بضع دقائق، انتهى إلى بقعة منيرة فيها ما تقشعر له الابدان من الحيوانات المتضادة في طبائعها ما لا يخطر ببال، كالثعابين والسحالي وأنواع الضب والطير والحمام بين سارح ومنساب وواثب؛ وبينها حية مهولة قد التفت على جذع شجرة منصوب لها هناك، ورأسها يتلوى ذات اليمين وذات اليسار؛ وأخرى تنساب بين الأحجار الملقاة على الأرض؛ ولو لم يكن قد ألف المجيء إلى ذلك المكان ومشاهدة هذه المناظر، واعتقاده أن تلك الدبابات لا تؤذيه لأنها مسحورة لأجفل وخاف، أما الجواد فلم يألف ذلك المنظر المريع، فاضطرب وضرب الأرض بحافره وصهل وتراجع وأبو حامد ممسك بزمامه ينتظر أن يأتي من يتناوله منه؛ وإذا بعبد طويل عريض برز من بعض أطراف تلك البقعة وألقى التحية، فرد عليه أبو حامد، ثم تقدم العبد وقبل يده، وتناول زمام الجواد ومشى به إلى مكان يربطه فيه.

ومشى أبو حامد في طريق تجنب فيه العثور بتلك الحيوانات والهوام حتى دخل دهليزا منقوراً في الصخر.

ولو زار المكان أحد علماء الآثار اليوم لتحقق أن تلك المغارة من بقايا الأبنية القديمة في العصور الغابرة، وربما كانت في الأصل قبوراً أو هياكل وتنوسي خبرها، حتى أصبحت مسكنا لكاهنة ساحرة كان أبو حامد قد عرفها منذ أعوام، واستعان بها في كثير من شؤونه، وهي من خلفاء كهان البربر قبل الاسلام، اتصلت إليها هذه الصناعة من أجدادها وهي تخاف الظهور فاستترت هناك.

ولم يمش أبو حامد قليلاً حتى دخل حجرة منقورة في الصخر أيضاً، وفي صدرها دكّة من الحجر قد تربعت عليها عجوز شمطاء بلباس غريب الشكل، فيه من كل لون قطعة، وشعرها ناصع البياض، وقد انتفش واشتبك فأصبح منظرها مخيفاً؛ وهي في الأصل سمراء ولكن الشيخوخة جعلت لونها أقرب إلى السواد، وتجمد جلدها وغارت عيناها وتدلى حاجباها الغليظان، فأصبحت عيناها كالمصباح يتراءى من وراء نافذة مظلمة، وتحتهما أنف غليظ قصير فيه حلقة من العاج أدخلت فيه كالخزام منذ صباها على يد ساحرة كان لأهلها ثقة في عملها، واعتقدوا أن في هذا الخزام أكبر أسباب مهارتها؛ وناهيك بما في أذنيها من الأقراط وفي عنقها من العقود وحول زندها من الأساور وفيها الذهب والفضة والعاج. وقد جلست على جلد دب، وألقت على كتفيها جلد نمر، وفي حجرها ثعبان غليظ قصير تتلهى بملاعبته.

فلما أطل أبو حامد عليها رحبت به بصوت جهوري وقالت: « أهلا بولدي مسعود، وقد أطلت الغياب عليّ، أين كنت؟». وأشارت إليه بعصا طويلة كانت بجانبها أن يقعد على دكة بين يديها فقعد وهو يقول: « كنت في عملي الذي تعلمينه».

فقالت: « قد آن لك الظفر يا مسعود!» وكان هذا هو الإسم الذي تعرفه

به.

فأبرقت أسرَّته لأنه كان يؤمن بصدق فراستها واقتدارها على كشف المخبآت، حتى جعلها مستودع أسراره من أيام أبي عبد الله الشيعي.

فقد كانا يأتيانها أحيانا، وكانت لها يد في جمع قبائل البربر الذين نصروه في تأييد دولة العبيديين؛ لذلك كان أبو حامد عظيم الثقة بها؛ وقد جاءها اليوم لأمر لا يخفى عليها لأنها كانت مشرفة على أخباره؛ ليس مما ينقله هو اليها، ولكن من جواسيسها المبثوثين في البلاد لمثل هذه الغاية؛ فلما قالت له ذلك استبشر واعتقد صدق قولها، فقد كانت متسلطة على أفكاره مثل تسلطه عل أفكار الأخرين فقال لها: « هل علمت ذلك يا خالة أم تسألينني؟».

فنظرت إليه شزرا وقالت: « ومتى كنت أستشيرك يا جاهل؟».

فضحك وجعل يعتذر لها عن جسارته؛ وكانت قحتها هذه من أسباب تمكين هيبتها في نفسه؛ فمد يده إلى جيبه وأخرج صرة فيها نقود دفعها إليها وهو يقول: « بارك الله فيك، صدقت! لقد دنا الفرج؛ اقبلي هذه الدراهم طعاما لأولادك هؤلاء»؛ وأشار إلى الثعبان الذي في حجرها يمازحها.

فمدت يدها وتناولت الصرة وهي تهز رأسها وتقول: « لا تقل دنا الوقت بل قل لم يبق إلا خطوة واحدة».

قال: « نعم يا سيدتي إنها خطوة ولكنني أراها شاقة».

قالت: «أين صرت الآن!».

قال: « سأجمع الرجلين في مكان واحد، وإنما أود أن أعرف رأيك: هل يكون الموت بالسم؟ أم بالخنجر؟».

فضحكت ضحكة دوّى لها المكان، وكشرت في أثناء القهقهة فبانت نواجذها، وأصبح فيها كالمغارة المظلمة؛ ثم أطبقت فمها فجأة وأطرقت، وقد تغيرت سحنتها وأبرقت عيناها، ومدت يدها إلى علبة صغيرة بجانبها تناولت منها مسحوقاً وضعت بعضه في فيها وجعلت تمتصه وتمضغه.

ثم رفعت بصرها إلى أبي حامد وكانت الصرة لا تزال في يدها فرمتها إليه وقالت: « لا حاجة بأولادي لدراهمك».

فأدرك أنها استقلت منحته، فأخرج صرتين أخريين ودفع بهما إليها، وهمّ بتقبيل يدها تزلفاً واسترضاء وهي تُدل وترفع؛ لكنها تناولت النقود وقالت: « إن طلبك لا يقدر بالمال وأنا أعينك فيه إكراماً لذلك المقتول ظلماً؛ أنظر، سأعطيك مسحوقاً تقتل الذرَّة الصغيرة منه فيلاً كبيراً. . وإذا لم تصدق جرب. . ». وضحكت وليس ضحكها إلا تكشير شفتيها؛ ثم أمرت الثعبان في حجرها أن ينصرف فانساب إلى وكره.

فنهضت وهي تتوكأ على عكازها الغليظ، وأشارت إلى أبي حامد أن يمكث حتى تعود، فمكث على مثل الجمر وهو يتبع الساحرة ببصره، وقلبه يختلج خوفا من أن يثب الثعبان وهو يرى الموت في نابيه رغم اعتقاده أنه مسحور؛ وفاته أن أنياب الثعابين السامة قد نزعت؛ ولولا ذلك لقتلت صاحبتها لأنها لا ترعى ذماما؛ ثم استبطأ عودة الساحرة فقال في سره: « أخشى أن تخونني هذه الملعونة إذا أغراها سواي بمال كثير، فيجب أن أقتلها قبل خروجي من هنا»؛ ولكنه يعلم أن لها أعوانا ربما كانوا مختبئين هناك فتردد ورأى أن يطمعها بالمال الكثير خوفاً من غدرها.

وبعد قليل عادت وفي يدها حُقٌّ من الأبنوس فتحته وأرته مسحوقا أبيض وقالت: « احذر أن تمسه بيدك لأن ما يعلق منه بطرف اصبعك كاف لازهاق الروح». ثم أغلقت الحُقَّ ودفعته إليه.

فتناوله وقبل يدها وقال: « لا تظني أني أنسى فضلك، فإني معد لك هدية ثمينة بعد الفراغ من هذا العمل».

قالت: « لا حاجة بي إلى هدية، خذ هذا الحُقَّ وامض في سبيلك».

فتناوله وخبأه في جيبه وودعها وخرج، فرأى العبد في انتظاره؛ فركب الجواد وعاد إلى فسطاطه وهو يمني نفسه بالفوز.

***

وكان حمدون قد أمضى النهار في فسطاطه، ثم ذهب عند الغروب لتناول الافطار على مائدة المعز، وقد أخلص النية في مصادقته، وهكذا كان يفعل كل يوم من أيام رمضان، ولمياء في قصر المعز معززة مكرمة، وأم الأمراء تواليها بالاكرام والايناس.

وقبل انقضاء رمضان ببضعة أيام أرتها القصر الذي أعد لها بعد الزفاف، وقد ملأته بالرياش والأثاث والتحف والجواري والغلمان، غير الهدايا من المجوهرات والثياب الثمينة.

ولما دنا عيد الفطر أخذ حمدون يهيء معدات الاحتفال في معسكره، عاملاً برأي أبي حامد؛ فأشار عليه هذا أن ينصب السرادقات على مرتفع في وسط المعسكر، فنصبها على أكمات مشرفة على ساحة كبيرة ليلعب فيها الفرسان على الخيول؛ وفي مقدمة السرادقات سرادق كبير نصب فيه المقاعد للمعز وقائده ومن يختار أن يكون معه من خاصته، وسرادق للمطابخ تقام فيه الموائد، وبينها مائدة خاصة بالخليفة وقائده وابنه وحمدون. وأقام على خدمتها صقلبياً من غلمانه، كان من صقالبة قصور قرطبة؛ وكان أبو حامد قد عاهده سرا على أمور تطمح نفسه إليها وحمدون لا يعلم، وزعم أنه اختاره لهذه المائدة لمهارته في اعداد الطعام لتعوده ذلك في قصور المروانيين في قرطبة، وكان هذا الصقلبي قد استسلم لأبي حامد، وأصبح يتفانى في تنفيذ أغراضه لا يبالي بعواقبها.

وكان لأبي حامد سلطان عليه يشبه ما يعرف اليوم بالتنويم المغنطيسي، ولم يكن يعرف يومئذ بهذا الاسم؛ فكان إذا أحب أن يستهوي هذا الغلام اختلى به وسقاه شراباً مخدراً ينعشه ويضعف ارادته، ثم يأمره بما يريد فيصبح أطوع له من بنانه، وهو ينسب ذلك التأثير إلى فعل الشراب، والحقيقة أنه يستهويه بقوته المغنطيسية حتى إذ ا أمره بأن يأتي أمرا ووقّته له أطاع ونفذ.

فلما عزم أبو حامد على ما نحن فيه استهواه قبل يوم الاحتفال، ودفع

إليه الحُقَّ وأمره أن يضع منه شيئا في الاقداح التي يسكبها للخليفة وقائده وحمدون والحسين بن جوهر.

ونظر أبو حامد فيما يعمله إذا نفذت حيلته، فأرسل خاصته إلى مكان بعيد عن المعسكر من جهة الطريق المؤدي إلى مصر أعد فيه ما يحتاج إليه من وسائل النقل، حتى إذا نجحت مكيدته فر إلى مصر حيث يلاقي فيها سالما ويتممان مهمتهما مع صاحبها بفتح القيروان، وادخالها في حوزة الخليفة العباسي؛ إذ يصبح ذلك سهلا بعد قتل الخليفة العبيدي وقائده؛ لكنه ظل خائفا من لمياء أن تكون مطلعة على بعض سره، وعلى مخابئه ومعداته فأعد لهلاكها وسيلة أخرى.

-٩-

موكب الخليفة

وظل أبو حامد مشتغلاً باعداد مهمات الاحتفال، وقبل يوم الفطر ببضعة أيام نُقلت لمياء إلى فسطاط أبيها على أن تزف منه إلى الحسين في المنصورية على العادة الجارية عندهم، وفي صباح يوم الفطر كان معسكر حمدون غاصا بالسرادقات والاعلام؛ وبعد الظهر خرج الخليفة بموكبه من قصره في المنصورية وعليه لباس العيد تحف به حاشيته من الأمراء والصقالبة؛ وقد امتطى فرسا من جياد الخيل، ومشى بين يديه الأمراء والقواد، إلا قائده جوهر فإنه كان راكبا بجانبه.

فلما أطل موكب الخليفة على المعسكر خرج حمدون لاستقباله، ومشى بين يديْ الجواد حتى وقف أمام السرادق المعد لجلوسه، فترجل الخليفة وقائده، وأومأ إلى الحسين بن جوهر أن يصعد معهما إلى دكة في صدر السرادق مفروشة بالبسط والوسائد، وقد أوقدت مباخر الند والعود في جوانب السرادق وغرست الأعلام ببابه.

فجلس المعز في الصدر، وأمر قائده أن يجلس إلى جانبه والحسين بين

يديه؛ وكان الحسين أكثرهم فرحا وقلبه يطفح سرورا لما رأى من فخامة حفلة زفافه مما لا يتيسر لسواه؛ كيف لا وقد خرج الخليفة المعز لدين الله من قصوره إلى تلك الساحة إكراماً له، ولم يبق في الأمراء والقواد إلا من حسده على هذه النعمة؛ وتقدم حمدون للترحاب بالخليفة عند جلوسه، وأكب على يده كأنه يهمُّ بتقبيلها اعترافا بما خصه به من الالتفات بتلك الزيارة، وقد أخلص النية في طاعته، ثم سأل الخليفة عمن يريد أن يجالسه في سرداقه من الشعراء فاكتفى بابن هانئ (متنبي الغرب) وكان حمدون قد أعد له ولأمثاله مقاعد في جوانب السرادق.

جلس المعز ووراء مقعده صقلبيان يحملان المذاب من ريش النعام كالمظلة فوق رأسه، وهو ينظر إلى ما يشرف عليه من السرادقات الاخرى، التي أعدت لجلوس خواصه ورجال حاشيته. واختص بعض أمرائه بالجلوس معه في سرداقه؛ وأمام هذا السرادق ساحة فسيحة سويت أرضها وفرشت بالرمال للعب الخيل.

ووقف حمدون بين يدي المعز، وجعل يقدم له أمراء سجلماسة واحدا واحدا، ويسميهم بأسمائهم وبينهم أبو حامد، واختصه عند التعريف بعبارات الثناء، وأعرب عن إخلاصه للخليفة، فأمر المعز أن يكون مع الجالسين في السرادق؛ ولم يقصر أبو حامد في تأكيد ولائه وولاء سائر أمراء البربر لأبناء فاطمة الزهراء؛ وبالغ في الاطراء وهو فصيح اللهجة قوي الحجة ورغم ما في سحنته من الغرابة، فأعجب المعز به وأقبل عليه وأبدى ارتياحه لمجالسته.

فلما استقر الجلوس بالقوم تصدى أبو حامد للترحيب بالخليفة نائباً عن صديقه حمدون فقال: « يحق لصديقي أمير سجلماسة أن يفاخر سائر الأمراء بما أوتيه من أنعامكم؛ بل يحق له أن يفاخر الناس كافة إذ وطئ بساطه ابن بنت الرسول (صلعم)، ولعل صديقي حمدون لفرط ما يشعر به من الغبطة لا يقوى على تأدية حق الشكر».

فأعجب المعز بحديث أبي حامد وقطع كلامه تواضعاً وقال: « إننا نقدر الرجال أقدارهم، ونحن نعلم فضل صاحب سجلماسة، ومن أخلص الصحبة لنا جعلناه واحدا منا، وإن مصاهرته لقائدنا الباسل جعلت له منزلة خاصة من أنفسنا».

فتقدم حمدون عند ذلك، وقال نحو ما قاله أبو حامد من عبارات الشكر، وأكد للخليفة أنه مخلص في خدمته، واستأنف الحديث قائلا: « ألا يأمر أمير المؤمنين بأن يشاهد شيئاً من الألعاب».

فأحب المعز أن يزيده استئناسا به فأجابه باللغة البربرية وكان يحسنها وقال: « كثيراً ما سمعت بمهارة فرسان سجلماسة في ركوب الخيل فهل يتيسر لنا أن نراهم يتسابقون؟».

فسر حمدون بهذا العطف، وأسرع وهو يشير بيديه فوق رأسه اشارة الطاعة، والتفت إلي الوقوف بباب السرادق من الرجال، وأومأ باصبعه إلى واحد منهم، فهرع ولم يمض قليل حتى غصت الساحة بالخيول عليها الفرسان بالألبسة الفاخرة على زي أهل سجلماسة؛ وأكثرهم باللثام على رؤوسهم يغطي معظم الوجه، وعلى أكتافهم البرانس الواسعة على نحو ما يلبسه أهل تلك البلاد إلى اليوم؛ وعلى خيولهم السروج المتنوعة المصنوعة من الفضة أو المنزلة بالعاج؛ وبينها خيول عارية لا سرج عليها وإنما يزينها جمالها الطبيعي؛ على أن العارفين بطبائع الخيل لا يتلفتون إلى ما على الافراس من كساء، وإنما ينظرون إلى صدورها وأعناقها وأكتافها ويتفرسون في عيونها. وكان المعز من أكثر الناس معرفة بالخيل؛ فأخذ يتأمل تلك الجياد ويجيل نظره فيها كما يفعل العارف الخبير.

ووقف الفرسان صفاً واحداً عند السرادق، وجيادهم لا تكاد تستقر في مواقفها؛ ثم أشار حمدون إليهم فأخذوا اللعب على ظهورها ألعابا مدهشة تشغل الخاطر لغرابتها؛ وفيها ما يبعث على الاعجاب الكثير؛ فكان أحد الفرسان يسوق جواده حتى لا تكاد حوافره تطأ الأرض، ثم يعمد وهو في

تلك السرعة إلى أن يدور حوله حتى يلتصق ببطنه ثم يعود إلى ظهره، وكان آخر يركب جوادا ويسوق آخر إلى جانبه وينتقل من ظهر أحدهما إلى ظهر الآخر وهما في أشد السرعة، وغير ذلك. فلم يتمالك المعز عن اطراء تلك المهارة ووجه خطابه إلى أبي حامد وقال: « حقاً أن أهل سجلماسة من أمهر قبائل البربر في الفروسية، بل لقد قيل لي: إن بين نسائهم فارسات ماهرات يسابقن الرجال».

فتصدى القائد جوهر للجواب وقال: « نعم يا مولاي إني رأيت ذلك منهن رأي العين»، والتفت إلى ابنه الحسين وابتسم ابتسامة فهم الجميع منها أنه يعني لمياء. فقال أبوحامد: « أظنك تعني لمياء». وهز رأسه هزة الاعجاب فقال المعز له: « عرفنا لمياء عاقلة حكيمة وسمعنا ببسالتها في ساحة الوغى؛ فهل تحسن الركوب الخيل أيضاً؟».

كان حمدون واقفا يسمع اطراء ابنته فلم يخطر له أن يعرض على الخليفة رؤيتها على الجواد؛ لكن أبا حامد أشار إليه أن يفعل فقال: « هل يريد مولانا أن تخرج لمياء على جوادها؟».

فقال المعز وهو يحك عثنونه: « لا نريد أن نزعجها اليوم لأنها فيما هو أهم من ذلك»، وضحك.

فتصدى أبو حامد للجواب وقال: « إنها لم تركب جواداً من زمان بعيد، ولعلها تسر إذا ركبت اليوم، فقد لا يتيسر لها هذا فيما بعد» فأشار المعز بالموافقة وقال: « نحب أن نراها ولكن لا نعلم هل الحسين يوافقنا أم لا؟». والتفت إلى الحسين وابتسم، فعد الحسين التفاته نعمة أخرى فأطرق خجلا.

فوقف جوهر بالنيابة عن ابنه وقال: « إنها أَمَة مولانا أمير المؤمنين، وسيكون لها الشرف الأكبر في طاعته».

فأسرع حمدون إلى فسطاطه ليبلغ لمياء ما جرى وهو يعلم أن خروجها في تلك الساعة من أصعب الأمور لأنها ساعة التبرج والتزيين؛ ولكنه لم

يجدها بين أيدي المواشط والحواضن يزيّنّها ويصلحن من شأنها، كما ظن؛ وذلك لأنها لما تحققت دنو الزفاف، هاجت عواطفها الكامنة، وعادت إليها ذكرى سالم حبيبها الأول؛ وكانت رغم ما ظهر من ضعفه وتردده، فقد بقيت ثابتة على حبه تخلص له الود؛ وانما كان قبولها بالحسين طارئا ظنته يمهد السبيل في أثناء شهر رمضان إلى حدوث ما يغيّر ويبدل؛ فلما جاء عيد الفطر ولم يطرأ شيء وانتقلت إلى بيت أبيها لتزف إلى الحسين، أظلمت الدنيا في عينيها وتحققت أنها لا تلبث أن تصير زوجة لرجل إن كانت تحبه وتعجب بمناقبه لكنها لا تزال ترى سالماً أولى بقلبها منه؛ واعتقدت أن قبولها بالحسين يعد في شرع المحبين خيانة، فوقعت في حيرة بلغت أشدها في صباح ذلك اليوم لما أتت المواشط لتزيينها، فاستمهلتهن وانزوت في فسطاط أبيها تعمل فكرها.

فلما جاء أبوها ليكلمها في أمر الركوب أخبروه بما فعلت، فذهب إليها فوجدها قاعدة على وسادة وحدها مطرقة والحيرة بادية في عينيها فقال: « ما بالك يا لمياء، لماذا أنت هنا؟ ».

فهمَّت بالجواب ولكن الدموع سبقتها فسكتت.

فدنا منها وأمسك بيدها فأحس ببرودتها وارتعاشها وقد بالغت في الاطراق، فلحظ الدمع في عينيها فاستغربه؛ وهو لا يقدر أن يتصور عواطف المحبين لأنه لم يذق طعم الحب فقال لها: « ما هذا الجنون، ما بالك؟ لماذا تبكين؟ ».

فأفلتت منه وقالت وصوتها مختنق: « أبكي على سوء حظي.. يا لتعاستي! ».

فقال: « وأي تعاسة؟ هل في الدنيا فتاة أسعد حالا منك؟ ستزفين بعد ساعات قليلة إلى أنبل الشبان؛ وهذا أمير المؤمنين قد جاء بنفسه ليكون زفافك على يده، إن ألوفا من الأميرات يحسدنك على هذا الحظ وأنت تشكين من سوئه؟ ».

فقالت: « إني سيئة الحظ . . دعني الآن» .

قال: « كيف أتركك وأنا قادم إليك في مهمة من المعز لدين الله، فقد قيل له إنك ماهرة في ركوب الخيل، فطلب أن يراك على الجواد» .

فلما سمعت قوله شعرت بارتياح لأن خروجها على الجواد ينجيها من لجاجة المواشط، وكانت إذا ركبت الجواد اعتزَّت على صهوته، ونسيت كل مصائبها، هذا إلى أنها تطيع ما أراده الخليفة، فقالت: « كيف تخرج مثلي إلى ساحة السباق؟ إن هذا لم يسمع به!» .

قال: « ولكن الخليفة أمر بذلك وأمره لا يرد، وقد أقره القائد جوهر وابنه الحسين» .

فلما سمعت اسم الحسين عادت إلى هواجسها، وندمت لأنها لم تبتَّ في المسألة من أول الأمر، يوم خاطبوها في شأنه، إذ كان ينبغي أن ترفض أو تقبل أو تهرب، بدلا من أن تظل تتردد شهرا كاملا حتى إذا أزفت الساعة ضاقت بها الحيلة .

فلما طال سكوتها ظنها آسفة لخروجها من بيت أبيها ودخولها بيت رجل غريب كما يصيب أكثر البنات في مثل هذه الحال، فأمسكها بيدها وأنهضها وهو يقول لها: « اركبي جوادك وانزعي الأوهام عنك؛ إنك ذاهبة إلى بيت أعظم من بيت أبيك، وستزفين إلى شاب هو أعظم شبان هذه الديار، قومي هيا بنا؛ إن الخليفة في انتظارنا» .

فوقفت ورأت خروجها على الجواد خيرا من بقائها هناك، وخطر لها أنه قد يرميها فتقتل وتنجو من هذا التردد. . فأطاعته ولبست ثوبا يليق بالركوب، ولفت رأسها بلثام تعودت أن تلفه به إذا ركبت، وأتوها بجواد من أحسن الجياد فركبته وساقته إلى الساحة أمام السرادق .

فشل المكيدة

ما كادت لمياء تتوسط الساحة حتى خف إليها أحد الغلمان المكلفين بالتقاط حراب المتسابقين ورماحهم، أو مسح عرق الخيل وغسل وجوهها تنشيطا لها، وكان في يده وعاء فيه ماء وإسفنجة، فأخذ يمسح وجه الجواد ولمياء على ظهره.

ولم يكد الغلام يفرغ من عمله والخليفة يتوقع أن تبقى واقفة بجوادها تنتظر أمره، حتى رآها أشارت إليهم اشارة الوداع كأنها راجعة إلى خدرها، ثم عدا بها الجواد عدوا سريعا كأنه وُخز بحربة في جنبه، حتى اختفت عن أعين من في السرادق، فظنها الخليفة والحاضرون قد فعلت ذلك عمدا على أن تعود رأسا إلى فسطاطها، أما هي فأرادت أن توقف الجواد ولكنه ازداد عدوا على غير هدى كأنه أصيب بجُنَّة، وعبثا حاولت كبح جماحه، ثم رأته يوغل بها في الشِّعب والجبال وهو يلهث ويصهل ويهز رأسه، فأرادت أن تحوله نحو المعسكر فلم يطعها، وبعد قليل التفتت إلى ورائها فرأت أنها صارت على مسافة بعيدة من المعسكر، وقد توارت عنها المنصورية كلها، والجواد ما زال يعدو بكل سرعته شرقاً بجنوب.

ومرت بها دقائق رهيبة، وجالت في ذهنها خواطر مختلفة، فرأت أن جموح الجواد قاتلُها لكنه قد ينقذها من ترددها ووخز ضميرها، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، وأخذت الظلال تستطيل، والجواد يوغل بها في الوعر بعيدا عن العمران، وقد تحققت أنه أصيب بشيء كالجنون، أو أنه أهيج بوخز أو عقار مهيج، لأنه لم يكن يعدو في طريق معروف، بل كان تارة يهبط وادياً، وطوراً يصعد جبلاً، والحجارة تتطاير تحت حوافره؛ ولم يقع بصرها على أحد تستنجده أو تستأنس به، فعزمت على النزول عن الجواد وهو راكض - وكانت قد اعتادت ذلك، ولكنها لم تر أرضاً رملية أو ترابية تثب إليها.

وفيما هي تفكر في ذلك اصطدم الجواد بصخرة فانتثرت هي عن ظهره

بقوة الاستمرار، وقذفت إلى مسافة بضع أذرع، فوقعت في حفرة هناك قليلة العمق فغابت عن رشدها.

ولم تفق إلا وقد أظلمت الدنيا وظهرت النجوم، فلما أرادت النهوض أحست بألم في جبينها، ولكنها لم تجد فيه كسراً، ثم أحست بشيء يسيل على عنقها فتلمسته فإذا هو دم بارد، فعرفت أنها أصيبت بجروح، فتجلدت وتماسكت، ثم توكأت على يديها ونهضت مستندة إلى جدار الحفرة، والتفتت إلى ما حولها فرأت أنها في بلقع، ولم تقو على الوقوف فسقطت، فأخذت تفكر فيما حل بها وجعلت تتحسس أعضاءها لتتحقق نجاتها من كسر أو صدع، فوجدت أنها سليمة ليس فيها شيء غير الرضوض، وشغلها اضطرابها عن خوف الحشرات المؤذية وهي كثيرة هناك.

وأخذت تناجي نفسها قائلة: « ألم يكن خيرا لي أن أصاب في هذه الصدمة بكسر في عنقي فأموت وأنجو من متاعبي وعذاب ترددي، يا ربي ما العمل الآن؟ ».

ثم تزحزحت لتجرب قوتها، فسمعت حفيف ثعبان ينساب بين الأحجار وراءها، فوقف شعر رأسها ، وهمت بالنهوض لتخرج من ذلك المكان، ولم تكن تخاف الثعابين إذ رأتها على ضوء النهار لكنها خافت الغدر.

وفيما هي تهم بالنهوض سمعت وقع حوافر مسرعة، فأسرع الثعبان في الإنسياب حتى توارى، فالتفتت فرأت أشباحا كالفرسان يزيد عددهم على عشرة يسوقون أفراسهم، فحدثتها نفسها أن تستغيث بهم، ولم تكد تهم بذلك حتى سمعت صوتا يقول: « هل رأيتم أحداً؟ لا شك أنها قتلت! ».

فأجابه الآخر: « لا شك في ذلك لأننا رأينا الجواد مقتولاً، ولا يعقل أن تبقى هي حية؟ ».

وعرفت من صوت الأول أنه أبو حامد، فغالطت نفسها حتى تتحقق الأمر، فانزوت في مكانها حتى اقترب القوم منها فقال أحدهم: « لقد تمّت

حيلتنا ولا يلبث ذلك الدعيُّ أن يموت هو وقائده قبل أن يتناولا العشاء؛ انظروا هذا هجَّان قادم من طريق مصر، تربصوا له».

فأصبحت لمياء من عظم تأثرها تنتفض كالعصفور بلله القطر، وخانتها قواها إذ أدركت أن القوم أبو حامد ورجاله، وأنه هو الذي دبر لها هذه المكيدة، فجعل ذلك الغلام الذي غسل وجه الجواد يضع في أنفه مادة كيميائية مثيرة، ولم تشأ أن تظهر نفسها لهم وإلا قتلوها لا محالة، وهي لا تريد أن تموت على أيديهم، فتجلدت وأخذت تنظر إلى الجهة التي ظنت الهجان قادما منها، فرأت هجَّانا مسرعا كالبرق فاعترضه الفرسان وأوقفوه وسأله أحدهم: «إلى أين؟». فقال: «إلى المنصورية».

قال: «ومن تريد؟». قال: «أريد أمير المؤمنين المعز لدين الله».

قال: «وما الذي تحمله إليه؟». قال: «أحمل إليه رسالة من مصر».

قال: «أين هي؟ هاتها.. إننا من رجاله».

قال: «لا أدفعها إلا إليه. دعوني أمضي في طريقي». قال ذلك وأدار زمام هجينه فاعترضوه ومنعوه وألحوا عليه أن يدفع إليهم الرسالة، وقال له أبو حامد: «انك كاذب لست قادما من مصر، لأن القادم منها لا يأتي وحده في هذه الصحراء. أصدقنا وإلا قتلناك».

قال: «كنت قادما في قافلة نزلت عند الغروب على ماء قريب، وأسرعت وحدي بالرسالة لأنها مستعجلة لا بد من تبليغها قبل انقضاء هذا اليوم».

فقال أبو حامد: «لا شك أنك كاذب بل أنت لص أو جاسوس، ونحن من رجال الخليفة فإذا كنت صادقاً فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن في قصره لا تدركه وقد نام».

قال: «إن الرسالة خاصة به وقد أمرت ألا أعطيها لأحد سواه، وقد أوصيت أن أدفعها إليه حال وصولي، وإذا كان نائماً أيقظته. فإذا كنتم من رجال الخليفة كما تزعمون فدعوني أذهب في سبيلي».

فقال أبو حامد: « أعطنا الرسالة وإلا قتلناك».

فقال: « اقتلوني لن أسلمها إلا لصاحبها».

ولم يتم كلامه حتى سمعت لمياء صوت حسام استُلَّ، ورأت أحدهم ضرب الهجَّان بالسيف على رأسه فسقط عن الجمل قتيلا، وصاح أبو حامد وهو يقهقه في الضحك: « أوصل إليه الرسالة، أو تمهل. إنكما ستلتقيان في السعير بعد قليل».

والتفت إلى القاتل وقال له: « فتشه وهات الرسالة التي يحملها وأدركنا فإننا مسرعون إلى مكان القافلة». قال ذلك وساق جواده وتبعه رجاله إلا القاتل، فإنه ترجل عن جواده ووضع سيفه المسلول على الأرض بجانبه ليمسح عنه الدم بعد الفراغ من تفتيش القتيل، فتحققت لمياء أن الرسالة تحمل أمراً هاماً وإلا لما عرَّض الرسول نفسه للقتل، وأعجبت بأمانته وثباته، وهي كثيرة الاعجاب بالأخلاق العالية، فأسفت لموته وودت أن تنتقم له، وكانت قد تجددت قواها أو لعل حماستها نشَّطتها، فتحاملت على نفسها، ونهضت متسلله من الحفرة نحو الرجل وهو مشتغل بالتفتيش؛ فلما دنت من السيف المطروح بجانبه تناولته بأسرع من البرق وأطلقته على عنق الرجل فقدَّه وثنَّت عليه بضربة أخرى حتى تحققت موته ثم أزاحته، وبحثت عن الرسالة في ثياب الهجَّان القتيل حتى وجدتها، وهي اسطوانة من القصب الفارسي فيها الكتاب، وهمَّت بالجواد فامتطت صهوته وكانت قد عرفت جهة المنصورية منذ رأت الهجَّان متجها إليها، فأدارت شكيمة الجواد نحو معسكر أبيها وقد عادت إليها قواها تحمسا في خدمة المعز لابلاغه الرسالة، لاعتقادها أنها لو لم تكن عظيمة الأهمية لم يؤمر حاملها بايقاظ الخليفة من نومه لتسليمها إليه، وكانت قد تنسمت من كلام أبي حامد أنهم أعدوا مكيدة لقتل المعز، فعلمت أنها إذا أسرعت أنقذت ذلك الخليفة الذي تحبه وتحترمه، فأحست بنشاط وفرح فهمزت جوادها نحو معسكر أبيها وهي لا تراه لكنها أدركت مما حولها أنها متجهة إليه، وقد نسيت حالها ولم تعد

تفكر في الدم الذي يسيل على عنقها وكان قد تجمد وضمد الجرح فقد كان سطحياً.

أما أهل المعسكر فكانوا عندما رأوا لمياء قد ركض بها الجواد توهموا أنها عزمت على شوط تركِّض فيه فرسها ثم تعود إلى فسطاطها.

وكان أبو حامد قد دبر هذه المكيدة للمياء فجعل أحد غلمانه بين الموكَّلين بخدمة الفرسان المتسابقين، وأوصاه بأن يدسَّ في أنف جواد لمياء مادة حريِّفة تهيجه وتحمله على الركض بغير هدى، فلا يستقر قراره حتى يصطدم ويتحطم هو وراكبه.

فلما تحقق من فعل العقار، ورأى لمياء غابت عن أعينهم وسمعهم يتساءلون عن مصيرها أكد لهم أنها ودعتهم ولا تلبث أن تعود إلى فسطاطها، وأخذ يشغلهم بالحديث، وطلب إلى حمدون أن يأتيهم ببعض الألعاب الغريبة ليتسلى الخليفة برؤيتها مما لا مثيل له في القيروان، ثم احتال في الخروج من السرادق وكان قد أمر رجاله أن يهيئوا أحمالهم ويخرجوا بها من المعسكر إلى مكان يعرفونه بجانب الطريق المؤدي إلى مصر.

فلما بعد عن المعسكر ركب هو ورجاله وأخذوا يبحثون عن لمياء ليتحققوا قتلها فلما رأوا جثة جوادها ملقاة قرب الصخرة التي اصطدم بها، ولم يعثروا على لمياء، تحققوا أنها لا بد قد سقطت عنه حين تلك الصدمة فوقعت في حفرة وماتت.

***

ولما دنا الغروب دون أن تعود لمياء، دعا حمدون الخليفة إلى العشاء الذي أعده له في سرادقه، وذهب الأمراء إلى موائدهم في السرادقات الأخرى، ومشى الخليفة إلى المائدة وقد أضيئت السرادقات بالشموع، وأحرق البخور في أطرافها، ومدت الموائد في أواسطها وعليها أنواع الأطعمة، وذهب حمدون إلى الطاهي القرطبي الذي تقدم ذكره، وبالغ في توصيته بأن يحسن الوقوف في خدمة الخليفة.

وقبل التقدم إلى المائدة أزفت الصلاة، فصلى الخليفة وصلى القوم مؤتمين به، ثم جلس كل منهم في مكانه؛ ولم يجلس على مائدة الخليفة إلا هو وقائده وابن قائده ووقف حمدون يخدمهم بنفسه يساعده الطاهي المشار إليه، وغلمان آخرون يحملون الأطباق من المطابخ، ووقف سائر الغلمان بأباريق الفضة والقوارير فيها الأشربة الهاضمة، وقد شغل حمدون بأضيافه عن التفكير في لمياء لاعتقاده أنها عادت إلى فسطاطها.

وبعد أن قُدمت ألوان الأطعمة وهي كثيرة متقنة، لاحظ الخليفة شدة العناية التي بذلها صاحب سجلماسة في اكرامهم، وظهر له الفرق بين الأطعمة التي تعوَّد تناولها في قصره، وما تناوله تلك الليلة، فإن العبيديين كانوا إلى ذلك الحين لا يزالون على البساطة في الطعام واللباس. أما حمدون فقد تعوَّد وهو في سجلماسة الترف والتأنق في الأطعمة تقليدا للمروانيين في قرطبة، وكان يبتاع مثل آنيتهم للمائدة من الأباريق والأطباق من الفضة والذهب، و يوصي الطهاة بمعالجة اللحوم والخضروات كما كان الخليفة الناصر يفعل في قصر الزهراء.

فلما أُسر حمدون لم يعد يستطيع ذلك التأنق، لكنه أوصى الطهاة تلك الليلة أن يبذلوا الجهد في اصلاح الأطعمة ليدهش الخليفة، ويؤكد له حفاوته واكرامه، وذلك بايعاز أبي حامد، وأوصى الطاهي المختص بأن يجعل في جملة الأشربة الهاضمة الشراب الذي أمره أن يضع السم فيه.

فلم يتمالك المعز لدين الله عن ابداء اعجابه بتلك الحفاوة، وذكر على التخصيص لذة الأطعمة؛ فقال حمدون: « إننا تجرأنا على اخراج أمير المؤمنين عن عادته في الاقتصار على الأطعمة البسيطة التي اقتضاها تقشفه إلى ما تعوده غيره من الملوك المنغمسين في ملذات الدنيا».

فقال المعز: « قد علمنا ذلك ولا بأس به؛ ولكن كيف تأتَّى لك هذا وأنت هنا؟».

فقال: « عهدت بذلك إلى طاه من طهاة صاحب قرطبة وهو كثير

التفنن»؛ وأشار إلى الطاهي بين الواقفين وقال: « هذا الطاهي يا سيدي أتقن من عرفت من الطهاة للأطعمة».

فالتفت المعز اليه فرآه في أنظف ما يكون من الثياب، وقد حمل بيده ابريقا من الذهب وقدحا، فابتسم ابتسام من عرف الحق وأغضى عنه وقال: « بمثل هذه الأطعمة أوهنت عزائم أولئك؛ لكن لا خوف علينا لأننا لن نعود إلى مثلها بعد الآن، ما الذي تحمله بهذا الابريق؟ لم يبق لنا طاقة على طعام».

فتقدم الطاهي وقال: « هذا يا سيد شراب هاضم إذا تناولت منه قدحا لا تلبث التخمة أن تذهب، وتشعر بالرغبة في الطعام ثانية».

قال ذلك وصب منه في قدح من الزجاج منقوش، وناوله حمدون فأخذ هذا القدح وجعل يتفرس فيما عليه من النقوش - وهو من آنية ابتاعها من تاجر حملها من قرطبة - ثم نظر إلى الخليفة وقال: « هذا الشراب الهاضم لم أذقه قبل الآن فانه من استنباط هذا الطاهي، ولذلك ينبغي أن أذوقه قبل تقديمه لأمير المؤمنين».

وكانت عادتهم تذوق الطعام قبل ضيوفهم مبالغة الحفاوة بهم، ثم أدنى القدح من فيه وشربه وأخذ يتلمظ ويبدي الاعجاب، وأمر الساقي فصب في قدح آخر قدمه إلى الخليفة، وفي آخر قدمه إلى القائد جوهر، وثالث للحسين.

وهمَّ الخليفة بأن يتناول الشراب مجاراة لحمدون لأن معدته امتلأت بالاطعمة والأشربة، فأزعجه وقع حوافر جواد مسرع وقف بباب السرادق وعليه راكب ملثم، والجواد يلهث لهثاً شديدا وقد تصبب العرق منه من الجهد، وترجل فارسه وهمَّ بالدخول بلا استئذان، فمنعه الحجَّاب فلم يبال واخترق الصفوف ركضا وبيده اسطوانة من الغاب الهندي حتى دنا من المعز، فخاف القوم أن يكون في دنوه خطر على الخليفة، فنهض القائد جوهر والقدح بيده وأمره أن يرجع، فلم يبال بل ظل مسرعا، وبانت بقع

الدم على لثامه، فلما دنا من الخليفة دفع اليه الاسطوانة وأشار بأصبعه بأن يقرأها حالا، فتناولها منه وهو يتفرس فيه؛ وكان الحضور منذ دخل الرسول قد استأنسوا بثوبه خصوصاً حمدون فإنه عرف ابنته من ثوبها فصاح: « لمياء!».

فلم تجبه فلما سمعه الخليفة يناديها انتبه وقال: « أهذا أنت يا لمياء؟». قالت: « لا تعمل عملا يا سيدي قبل أن تقرأ هذه الرسالة».

فلما سمع حمدون صوت ابنته عرفها، فأراد أن يدنو منها فخانته قدماه وأحس بدوار شديد فسقط على الأرض، فاشتغل الغلمان باسعافه ونقلوه إلى فسطاط قريب، والخليفة ينظر إلى الكتاب وقال للمياء: « من أين هذا؟». ولم يكترثوا لدوار حمدون لاعتقادهم أنه أتخم من كثرة الأكل.

فقالت لمياء: « هو من مكان بعيد، وقد أُمر حامله أن يعطيه للخليفة حال وصوله؛ فإذا كان نائماً يوقظه، وإذا كان متكئاً لا يمهل حتى يجلس قبل قراءته؛ وهذا ما جرأني على ازعاجكم وأنتم على المائدة».

فدفع الخليفة الأسطوانة إلى القائد جوهر ففضها، وأخرج منها لفافة عرف من شكلها أنها من مصر، ولم يكن يعهد بينه وبين أميرها صداقة أو علاقة توجب مراسلة، ثم دفع جوهر الرسالة إلى المعز لعلمه أنه يحب أن يقرأ بنفسه؛ وكان القدح لا يزال في يده، فأدناه من فيه ليشربه قبل قراءة الرسالة، فأسرعت لمياء وأبعدت القدح عن فيه وقالت: « قد أُمرحامل الرسالة أن يمنع أمير المؤمنين عن كل عمل قبل قراءتها».

فاستغرب المعز ذلك وأخذ يقرأ الرسالة والحضور ينظرون في وجهه خصوصاً جوهر، فرأوا الخليفة قد تغيَّرت سحنته وبدا الغضب في وجهه وخامره القلق، وأما الحسين فكان في أثناء ذلك لا يرفع بصره عن لمياء؛ وقد أدهشه ما رآه من حالها والدم الذي لطخ نقابها وبعض ثوبها؛ ولم يجرؤ أن يخاطبها في حضرة الخليفة ولا سيما بعد أن رأى تغير وجهه؛ وأطال المعز نظره في الكتاب وأعاد تلاوته وهو يستغرب ما فيه، وتطاول الحضور

بأعناقهم لمعرفة ما حواه الكتاب لكنهم لم يجسروا على التماس ذلك.

وبعد هنيهة أشار الخليفة إلى جوهر وابنه أن يضعا قدحيْهما، ودفع الكتاب إلى جوهر ونظر إلى لمياء وقال لها: «أين حامل هذه الرسالة؟ أدعيه إلى هنا».

قالت: «إن حاملها قُتل يا سيدي وكدت أُقتل معه، ولكن الله أعانني على الوصول اليكم وأنا على آخر رمق».

فأشار إلى من في السرادق أن يخرجوا إلا جوهر ولمياء، وأمر الحجَّاب أن يمنعوا الناس من الدخول حتى الأمير حمدون نفسه ففعلوا، وكان جوهر مستغرقاً في تلاوة الكتاب لنفسه؛ وقد أصابه من الدهشة أضعاف ما أصاب المعز؛ فلما خلا السرادق من الغرباء التفت الخليفة إلى لمياء وقال: «اكشفي عن وجهك وقصي علينا خبرك؛ إني أرى عجبا وأقرأ أعجب منه».

فلم يسعها إلا الطاعة فرفعت اللثام عن وجهها، وقد لصق بعضه بعنقها من الدم، وتغيرت ملامحها من عظم ما ألم بها في تلك الليلة، وازدادت عيناها حدة وبسالة وابراقا.

فقال الخليفة: «ما خبرك؟ من أين أتيت؟».

فقصت عليه ما جرى لها من أوله إلى آخره، وهو يسمع ويستغرب وينظر في أثناء الحديث إلى قائده كأنه يستطلع رأيه فيما يسمعانه من الغرائب.

وما أتمت لمياء حديثها، حتى تاقت للاطلاع على فحوى الرسالة لكنها لم تجسر على طلب ذلك؛ أما الخليفة فإنه كان يسمع كلامها ويتأمل ما يبدو في عينيها من صدق اللهجة والبسالة؛ فلما وصلت إلى ملاقاة ذلك الهجَّان وكيف قتلت قاتله، وحملت الرسالة لايصالها سريعا وهي مصابة بالجروح والرضوض لم يتمالك أن قال لها: «لله أنت من فتاة باسلة وصديقة صادقة! أتحبين أن تسمعي ما تضمنته تلك الرسالة؛ إني أعدك ابنة لي بل أنا لا أتوقع من إبنتي أو إبني أن يكون غيورا عليَّ مثل هذه الغيرة؛ اقعدي». وأشار إلى

مقعد بجانبه فجلست وأمر جوهرا أن يقرأ الرسالة فأخذ يقرؤها وهذا نصها :

« إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله من عبده يعقوب بن كلس

« أما بعد فإني ما برحت أذكر نعم المولى وفضله عليَّ وعلى آبائي، وأنا أترقب الفرص للقيام بما فُرض عليَّ في سبيل نصرته لأني وإن كنت ذميا يهودياً فإني أرى وجه الحق فيما يتنازع عليه المسلمون في أمر الخلافة، وهي حق صريح لآل علي أبناء عم النبي وأبناء ابنته، وانما اغتصبها غيرهم طمعا، ثم عاد الحق إلى نصابه بفضل أجدادك الكرام، وسيتأيد على يد الامام المعز لدين الله، ولذلك رأيتني لا أدخر وسعا في نصرة الحق، وأترقب الفرص لكي أقوم بتأدية خدمة في سبيل الامام، وقد علمت بدسيسة أعدها المبغضون لايقاع الأذى به وبقائده أعزهما الله - علمت ذلك في ليلة القدر الماضية؛ فلم أنم قبل أن كتبت هذا وبعثت به على جناح السرعة مع رسول غيور أوصيته بأن يجدَّ في السير حتى يصل قبل فوات الفرصة، فأرجو أن يكون قد فاز بذلك ودفع كتابي هذا إلى المولى أعزه الله ونصره على أعدائه؛ وجلية الخبر يا سيدي أني قد علمت أن بين أمرائك العائشين في كنفك أناسا يسعون في الكيد لك ولقائدك، ويحرِّضون صاحب مصر على فتح القيروان والحاقها بخلافة العباسيين؛ وكنت لما سمعت ذلك استبعدته إذ لا يعقل أن يسعى أحد في اقامة دولة بالية خربة مكان دولة جديدة زاهية، وحدثتني نفسي أن أكتب إليكم في هذا، وترددت حينا حتى وقفت عرضا على أمر أطار صوابي وأقلقني؛ وهو ما بعثني على كتابة هذا وقلبي يخفق خوفاً من التأخير، علمت يا سيدي من مصدر وثيق أن صاحب سجلماسة المقيم في جوارك ورجلاً من خاصته اسمه أبو حامد اتفقا على الكيد لك، ولقائدك الباسل على أن ينفذا الحيلة في عيد الفطر المبارك، وبعثا إلى مصر شابا من رجالهما اسمه سالم يزعم انه ابن أبي حامد أو ابن أخيه، وقد سمعت بأذني هذا الشاب يقص خبر المكيدة على امرأة يهواها في حالة سكر بيِّن، ولكي تتأكد صدق قولي فأنا أذكر من أسماء الأشخاص الذين استعان

بهم على فعلته فتاة أظنها إبنة صاحب سجلماسة إسمها لمياء، تظاهر سالم بحبها ليستخدمها في اتمام المكيدة لأنها من المقربين في قصر مولاي أمير المؤمنين، ولا يطيعني قلمي على التصريح بما دبر أولئك الملاعين - وقى الله مولانا الخليفة من كيد الكائدين- فإذا جاء كتابي هذا إلى سيدي الخليفة قبل عيد الفطر فهو ناج بإذن الله؛ والرسول رجل من المجاهدين في الحق أنصار العلويين أيد الله ملكهم، وأنا يا سيدي خادم مطيع لكم أبذل نفسي في سبيل الحق ولا غرض لي غير ذلك والسلام».

ولم يبلغ جوهر آخر الكتاب حتى استولت الدهشة على لمياء، وأصابها ما يشبه الدوار مما سمعته عن سالم، وانكشفت لها مكيدته وتحققت أنه كان يخادعها، فأحست من تلك اللحظة بكرهه، وتحول حبها الشديد إلى كره أشد، وأصبحت لا تصبر على الانتقام لنفسها منه، وأطرقت كأنها أصيبت بجمود، وشعرت كأن الدم جمد في عروقها، واصطكت ركبتاها وتولتها الرعدة، وقد خجلت مما تُلي عن دخولها تلك المكيدة، وكيف أن يهودياً يبعث بخبرها من مصر غيرة على الخليفة وهي في قصر المعز، وقد اطلعت على المكيدة منذ شهر ولم تخبره بها.

مرت هذه الخواطر في ذهنها في لحظة سمعت في أثنائها الخليفة يقول: «أين صديقنا صاحب سجلماسة؟».

فلما سمعته ينادي أباها تحققت أنه سيسأله عن المكيدة، وخافت وقوعه في الأذى لكنها سكتت لترى ما يكون، فأجاب أحد الغلمان: «إن الأمير حمدون نائم منذ نهض عن المائدة».

فقال وقد بان الغضب في وجهه: «أيقظوه»؛ ثم التفت إلى القائد جوهر وقال: «وأبو حامد؟ أليس هو الرجل الذي جاء به حمدون»، إليَّ بالأمير حمدون لأسأله عن المكيدة، وإني لواثق ببراءته منها، ولكن لعله ينبئنا بشيء عنها».

وبعد قليل عاد الغلام الذي ذهب لاحضار حمدون، وهو يجري كما

أصيب بمس، ثم تقدم إلى المعز وقال وهو يغص بريقه: «لم يستيقظ يا سيدي». وأخذ في البكاء؛ فلما رأت لمياء بكاءه أسرعت إلى حيث رقد أبوها فوجدته مستلقياً على مقعد هناك، وقد تغير لونه فازرقت بشرته، وغارت عيناه وبانت أدلة الموت في وجهه فصاحت: « واأبتاه ماذا جرى لك؟»، وجعلت تجس يديه ووجهه فإذا هو ميت لا حراك به؛ فأخذت تناديه، وسمع الخليفة بكاءها فأسرع ومعه القائد جوهر؛ فلما رأيا حمدون تحققا موته وعجبا لما أصابه، فأمر المعز أن يؤتى بالطبيب حالاً فأتى، وحالما وقع نظره عليه صاح: « مات الأمير مسموماً. ماذا شرب؟».

فقال المعز: « أكلنا معا من طعام واحد إلا شرابا صبَّه الغلام لنا جميعا فشربه هو ولم نشربه نحن، ولا تزال أقداحه مملوءة على المائدة، ومشى الخليفة إلى غرفة المائدة ودل الطبيب على الأقداح فتناول الطبيب قدحا منها، وتأمل السائل الذي فيه قليلاً وشمه ثم استخرج من جيبه مسحوقاً وضع شيئاً منه في الشراب، وجعل يتفرس فيه والجميع وقوف ينظرون. فلم تمض برهة حتى تحول ما في القدح إلى راسب أصفر وتغير لون الماء فصاح: « إن هذا الشراب سام، من صنعه؟».

فأمر المعز بالقبض على الطاهي الذي تولى أمر الوليمة فلم يقفوا له على أثر، فأطرق المعز وأعمل فكره فيما رآه من الغرائب في ذلك المساء، فاتضحت له سلامة نية حمدون لأنه لو كان شريكا للمجرم وعلم أن الشراب مسموما لما تناوله، فأسف لموته وأمر أن يجهز ويدفن، والتفت إلى لمياء فإذا هي واقفة لا تحير خطابا كأنها أصيبت بجمود فقال لها: « تعالي يا بنيه رحم الله أباك إنه مات مظلوماً فأنت الآن ابنتنا، لا نقول ذلك تعزية لك، ولكنك قمت على خدمتنا بما لا يأتيه الابن الغيور». ومد يده وربَّت على كتفها بحنو وعطف وقال: « هيا بنا إلى قصرنا في المنصورية وأزيلوا معالم الفرح، وستجدين هناك أم الأمراء وتأنسين بها».

فلم تجبه لكنها أخذت في البكاء صامتة تناجي نفسها بأمور لا تخطر

لأحد من الحاضرين في بال؛ وامتلأت نفسها بغضب شديد على سالم، وجاشت عواطفها ورأت في نفسها ميلا شديدا إلى الانتقام منه على خيانته، فقد كان يظهر حبه حيلة للفتك بأعظم المحسنين إليها وإليه.

وأمر المعز أن تقوّض الفساطيط والسرادقات، ويؤجل العرس إلى وقت آخر، فالتفتت لمياء عند ذلك وهاجت أشجانها وقالت: «نؤجله يا سيدي حتى ننتقم من الكائدين».

فقال: «سننظر في ذلك»، وأمر رجاله بالرجوع إلى المنصورية فاشتغلوا بتقويض الخيام، وركب المعز وقائده ولمياء والحسين وسائر الحاشية إلى المنصورية والغلمان يحملون المشاعل بين أيديهم.

وفي صباح اليوم التالي احتفلوا بدفن حمدون، وبكته لمياء بكاء مرا لسبب لا يعرفه سواها - لعلمها أنه ضحية سذاجته وسلامة نيته ودهاء ذلك اللعين أبي حامد.

وعند وصولها إلى القصر دعتها أم الأمراء إلى غرفتها، وأخذت في تعزيتها، وبذلت لها الحنو والحب كالأم مع ابنتها، فارتاحت نفسها وازدادت تعلقاً بها، وأيقنت أنها كانت على هدى باخلاصها لها.

-١١-

بين لمياء والحسين

لم تطل أم الأمراء الحديث تلك الليلة مع لمياء، ولم يكن أبوها قد دفن بعد، وفي اليوم التالي بعثت إليها وأمرتها ألا تفارقها، وبالغت في إكرامها وتعزيتها، وذكرت الحسين في أثناء حديثها، فتذكرت لمياء أنها لم تشاهده ذلك اليوم، ولا رأته بعد عودته معهم في المساء، وشعرت كأن بها ميلاً إلى رؤيته، وودت لو تلتقي به في خلوة لتثبت له أموراً تحب أن تساره بها بعد ما أصابها من موت أبيها وتغير قلبها على سالم، فلما سمعت أم الأمراء تذكره أحبت أن تغتنم الفرصة وتسأل عنه، فغلب الحياء عليها فسكتت، ولحظت

أم الأمراء خجلها فقالت: « إن الحسين سيء الحظ يا لمياء؛ انظري ما اتفق له يوم عرسه».

فقالت وهي تغص بريقها: « بل أنا التعسة يا سيدتي لأني فقدت سندي الوحيد أبي، فأصبحت يتيمة الأبوين». ومنعها البكاء من الكلام.

فهمَّت بها أم الأمراء وضمتها إلى صدرها وقالت: « لست يتيمة يا لمياء و..».

فقطعت لمياء كلامها قائلة: « صدقت يا سيدتي إن من كان في كنفك وظل مولاي أمير المؤمنين لا يكون يتيماً، وكفاني حظاً وشرفاً أن يدعوني الخليفة حفظه الله ابنته، إنها نعمة لم أكن لأحلم بها.. ولكن..».

فقالت أم الأمراء: « لا لوم عليك إذا بكيت أباك، إنه كان أبا بارا».

فتذكرت لمياء ما كان يضمره أبوها من السوء للخليفة وقائده، فأحست بوخز الضمير، فأرادت أن تصرف ذهنها عن ذلك الحديث لأنه يؤلمها فقالت: « رحمه الله؛ وأنا الآن لا أعرف أبا غير أمير المؤمنين ولا أماً سواك». وسكتت وهي تتشاغل باصلاح شعرها وفي خاطرها شيء يمنعها الحياء من ذكره.

وكأن أم الأمراء أدركت مرادها فقالت: « إني لم أر الحسين قادماً معكم مساء أمس، ولا رأيته اليوم أين هو يا ترى؟».

قالت: « لا أعلم، رأيته ركب معنا من المعسكر ثم لم أره بعد».

فقالت أم الأمراء: « أتظنين الخليفة أرسله في مهمة مستعجلة؟».

قالت: «أنت أعلم مني بذلك».

قالت: «لا ريب عندي أن أمير المؤمنين يحب أن يراك فهل نذهب إليه لعله يخبرنا عن الحسين».

فسرَّها هذا الاقتراح وأطرقت حياء، ولم تنتظر أم الأمراء جوابها فنهضت وأمسكتها بيدها ومشت بها وهي تقول: « إن أمير المؤمنين وحده في قاعته؛ وقد أسرَّ إلي أنه لا يريد أن يرى أحداً من الأمراء».

فقالت لمياء: « إذا كان راغباً في الخلوة فلماذا نزعجه بحضورنا؟ ».

فابتسمت وقالت: « لا يزعجه حضوري أو حضورك، وما أظنه أراد الخلوة للعمل، ولكنه أراد الراحة من عناء ما لاقاه بالأمس، وهو بلا شك كثير التفكير فيك، هيا بنا إليه؛ وانزعي حجاب الكلفة معه بعد أن دعاك ابنته ونعم الابنة ».

وبعد هنيهة وصلتا إلى غرفة الخليفة، فبادر الحاجب بالقاء التحية فقالت أم الأمراء: « لعل أمير المؤمنين وحده؟ ».

قال: « كلا يا سيدتي إنه في خلوة مع القائد جوهر ».

فأرادت أن ترجع وإذا بالمعز يناديها من الداخل: « إذا كانت لمياء معك فادخلي ».

فأجفلت لمياء عند سماع اسمها، وتصاعد الدم إلى وجنتيها، فقالت لها أم الأمراء: « ألم أقل لك أنه يُسرُّ برؤيتك أكثر من رؤيتي، إنه لم يأذن بالدخول إلا إذا كنت معي ». وضحكت، ووسع لهما الحاجب فدخلتا.

وكان المعز جالسا على مقعد، والقائد جوهر على وسادة بين يديه، وعلى وجهيْهما امارات الاهتمام، فلما دخلت أم الأمراء أرادت أن تتراجع لوجود القائد فابتدرها المعز قائلا: « إن قائدنا كواحد منا، وأنت يا لمياء ابنتنا وهذا القائد أبوك أيضاً ». وأشار إليهما بالجلوس، وكان القائد قد وقف عند دخول أم الأمراء، فأشار إليه الخليفة أن يجلس وقال له: « نحن في أمر هام نحب أن نشرك القادمتين فيه، أنت تعلم تعقُّل أم الأمراء، وهذه فتاتنا لمياء قد عرفت ذكاءها وغيرتها علينا فلا بأس من دخولهما في الحديث ».

فجلست لمياء مطرقة حياء لهذا الاطراء، فقال لها الخليفة: « لا ينبغي التهيب يا بنية بين يدينا، وقد أصبحت ذات شأن في أمورنا لما عرفناه من تعقلك وصدق محبتك، وقد شقَّ علينا ما أصاب أباك، ولكن ذلك أمر الله لا سبيل إلى دفعه، طيبي نفساً سنأخذ بثأره ».

فلما سمعت ذكر الثأر تغيَّر وجهها، وبان الاهتمام في عينيها، ونظرت

إلى الخليفة وابتسمت شاكرة، وقالت: « أشكر الله يا مولاي انعطافك نحوي، ولكني أرى الواجب الأول أن ننتقم لأمير المؤمنين، ومن ذلك الخائن الذي أراد به سوءا، فوقاه الله منه».

فابتسم وقطع حديثها قائلاً: « إن الفضل لك يا لمياء في ذلك، فهل يكثر علينا أن نثأر لأبيك؟».

فأطرقت وسكتت ثم رفعت بصرها وقالت: « لكنني أرجو من أمير المؤمنين أن يدخلني في هذا الانتقام فإني موتورة». قالت ذلك وقد قطّبت حاجبيْها وبان الغضب في عينيها.

فقال: « لم نكن لنكلفك شيئاً من هذا يا لمياء؛ كفاك ما أصابك».

والتفت إلى القائد جوهر وقال: « اني لم أر الحسين اليوم أين هو؟».

قال: « ذهب في مهمة مستعجلة من قبيل ما نحن فيه».

قال: « إلى أين؟».

قال: « أنفذته إلى الجهة التي قالت لمياء إنها شاهدت الخائن فيها، وبعثت معه بكوكبة من الفرسان لعله يدرك القوم قبل رحيلهم، فيأتينا بذلك الغادر ويكفينا مؤونة البحث عنه».

فقال المعز: « بارك الله في همتك وتيقظك». والتفت إلى أم الأمراء وابتسم وهو يقول: « كيف نلام على تقديم هذا القائد وهو لا يغفل عما فيه راحتنا».

وأطرقت لمياء وبان الارتباك في وجهها فلحظ الخليفة ذلك فقال: « ما بالك ساكتة يا لمياء؟ هل شقَّ عليك ذهاب الحسين.. ولماذا؟».

قالت: « كيف يشق عليَّ ذهابه في خدمة هذه الدولة وصيانة أمير المؤمنين؛ إن أرواحنا فداه».

قال: « إني أرى في وجهك قلقاً».

قالت: « أهمَّني ذهابه لما أعلمه من كيد أولئك الخائنين ومكرهم».

فقطع القائد جوهر كلامها قائلا: « لا خوف على الحسين من غدرهم،

ولا يلبث أن يأتي ظافراً باذن الله، وعند ذلك يحق له أن يكون زوجاً لك».

فخجلت وتوردت وجنتاها، وأحبت أن تصرح بما في خاطرها فقالت: «هل يأذن مولاي أمير المؤمنين بكلمة أقولها؟». قال: «قولي».

قالت: «أما وقد سمعت من القائد الأكبر ما قاله، فأتقدم إلى مولاي أن..» وأسكتها الحياء والتفتت إلى أم الأمراء كأنها تستنجدها، ولم تكن أم الأمراء تعلم مرادها، فنظرت إليها تستفهمها، فأسرَّت إليها أنها تحب تأجيل عقد الزواج.

فقال المعز: «سمعت ذلك منها بالأمس.. إننا نؤجله أياماً بواجب الحداد».

فقالت لمياء: «كلا يا سيدي إنما أعني أنه لا ينبغي أن يتم شيء قبل الانتقام من الخونة». وتشاغلت برفع كمها عن أناملها وظهر عليها أنها لم تتم حديثها.

فقال جوهر: «لا يمضي زمن طويل على هؤلاء الخونة حتى يصبحوا في قبضتنا فهل تعنين غيرهم؟».

قالت: «نعم، إنهم كثيرون، ولا يتيسر الوصول إلى بعضهم إلا بعد أشهر لأنهم بعيدون، يجب أن يقوم صاحب مصر بتحمل عواقب هذه الخيانة». وأشرق وجهها بما بدا فيه من الحماسة.

فأدرك الخليفة أنها تشير إلى فتح مصر انتقاماً من صاحبها، فالتفت إلى القائد جوهر، وابتسم لأنه كان يحادثه في شيء من هذا قبل مجيء لمياء.

فنظر القائد إلى الخليفة وابتسم ابتسامة الظافر، لأنه كان يرى أن يعزم الخليفة على فتحها، والخليفة يتخوف ويتردد، فسره أن تقترح لمياء مثل اقتراحه.

وأدركت لمياء ذلك فقالت: «لا ينبغي لنا أن نتردد في تحميل صاحب مصر عواقب هذه الخيانة فانه شريك فيها. ولا خوف منه فإنه عبد ذميم (كافور) وأحوال مصر مختلة معتلة».

فرأى المعز ألا يطول الحديث في هذا الموضوع حتى يفكر في الأمر، وهو لا يقول قولا إن لم يكن مصمما على تنفيذه، فقال: « إن أمير مصر لا يزال بعيدا، وربما فكَّرنا فيه في فرصة أخرى، ونحن نحب الآن أن نعجل بالعقد عليك للحسين».

قالت: « لا أظن رأي الحسين مخالفاً لرأيي، لأنه ليس أقل غيرة على خدمة أمير المؤمنين مني، أرجو من مولاي أن يجعل أمر مصر مقدَّماً على كل شيء وأنا أضمن الظفر باذن الله».

فأعجب بتلك الحمية وقال: « ليس ضمان ذلك بالأمر السهل يا بنية، إنه يحتاج إلى المال والرجال».

فنظرت إلى الخليفة وقد تغيرت سحنتها، وبانت البسالة في جبينها وقالت: « إن الرجال موجودون يا سيدي، ومن كان في قواده مثل القائد جوهر لا يخشى بأساً ،فقد فتح المغرب على أهون سبيل، وهل يظن أمير المؤمنين فتح مصر أعظم مشقة؟».

فاستحسن المعز اطراءها قائده وقال: « هذا مسلَّم به، ولكن ما قولك في المال، فلا بد منه لهذا الأمر؟».

قالت: « والمال موجود أيضاً».

فبُغت الجميع وتوجهوا نحوها بأبصارهم وقال الخليفة: « من أين لنا المال الكافي ونحن لم نفرغ من الحروب إلا بالأمس».

قالت: « قلت لمولاي إن المال موجود؛ وسأبيِّن له ذلك متى شاء؛ فإذا فعلت هل يبقى لديه مانع؟».

قال: « يبقى أن نستطلع حال المصريين ونتعرف شؤونهم؛ لأننا لم نعلم عنهم إلا ما نتلقفه من أفواه الناس».

قالت: « أما وقد أشركني أمير المؤمنين في هذا الحديث، فأستأذنه في أن أقول إني أضمن له أيضاً كشف ما يريد أن يعرفه من الأحوال».

فرأى الخليفة من لمياء فوق ما كان يتوقعه ولم يصدقه بحذافيره، وانما

حمَّله على محمل الغيرة كما يفعل الراغب في أمر فيراه سهلا لرغبته في الحصول عليه، وهم بأن يستزيدها بياناً فإذا بالحاجب دخل وقال: « إن مولاي الحسين بالباب».

فأمر بإدخاله؛ أما لمياء فلما سمعت إسم الحسين خفق قلبها ولم تعد تخاف خفقانه للحسين، لكنها تماسكت والتفتت فرأت الحسين داخلاً وعلى وجهه غبار السفر، فعلمت أنه عائد من تلك المهمة.

أما هو فحيى متأدباً، فأمره الخليفة بالجلوس فجلس، ووقع بصره على لمياء، فخاطبت عيناه عينيها فتجاذب قلباهما، ونظر إلى الخليفة فقال له المعز: « ما وراءك؟ علمت من قائدنا أنك تعقبت أولئك الخائنين، فعسى أن تكون قد ظفرت بهم وحملتهم إلينا».

قال: « حملت إليكم أناساً وجدتهم قرب المكان الذي كان الخائنون فيه ولكنهم ليسوا منهم».

فقال جوهر: « وكيف ذلك يا بني؟».

قال: « قضيت ليلة أمس باحثاً في الأماكن التي ينزل فيها الناس أو القوافل في طريق مصر حتى بعدت كثيراً عن القيروان فلم أجد أحداً».

فقطع أبوه كلامه قائلاً: « أخشى أن تكون قد أخطأت الطريق».

قال: « بل هي الطريق ذاتها، والدليل على ذلك أني رأيت جثة ذلك الرسول وبجانبها جثة قاتله كما قصت خبرهما لمياء، وأمعنت في تلك الجهات، وبثثت رجالي في كل جهة، فأخبرني بعضهم في هذا الصباح إنه رأى آثار معسكر، فسرت إليه فرأيت بقايا قوم كانوا هناك ورحلوا من عهد قريب؛ ولعله معسكر أولئك الخونة؛ ومع ذلك لم أقنع بما رأيت، فواصلت السير إلى عين ماء تنزل عندها القوافل، فرأيت قافلة قادمة من مصر أتيت بأصحابها معي لعلنا نستفيد منهم، إذ توسمت من زخرف فساطيطهم وخيولهم وسائر أحوالهم ما لم أعهده في سواهم من أصحاب القوافل».

فقال الخليفة: « أين هم؟». قال: « أتيت برئيسهم معي وهو بالباب إذا شاء مولاي أمر بادخاله».

***

صفَّق المعز مناديا الحاجب فلما جاء قال له: « أدخل الرجل الواقف خارجا». وأشار إلى أم الأمراء ولمياء إلى مجلس تقعدان فيه بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما أحد.

ثم عاد الحاجب ومعه صاحب القافلة؛ وهو كهل عليه لباس المصريين من العمامة والجبة، وقد أخذ الاضطراب منه مأخذاً عظيماً لهول ذلك الموقف؛ فقال له الخليفة: « لا تخف يا رجل وأصدقنا القول. من أنت؟». قال: « أنا يا مولاي من أهل مصر».

قال: « ما صناعتك؟». قال: « تاجر رقيق».

قال: « ما الذي جاء بك إلى هذا البلد؟». قال: « جئت لأبتاع رقيقاً أحمله إلى مصر؛ وهي عادتي في كل عام أو بضعة أعوام، آتي القيروان لهذه الغاية فأبتاع المولدات الحسان وانصرف».

قال: « ولكن رسولنا يقول: إن حالكم تدل على غنى وترف لا يعهده في تجار الرقيق الذين يفدون إلى القيروان».

فبانت البغتة في وجه الرجل وأجاب: « نحن يا مولاي تجار رقيق كما قلت، ولا أكذب».

قال: « هذا لا يكفي قل لنا كيف تجيئون في الفساطيط الفاخرة وعلى الخيول المطهمة كأنما أنتم من رجال الدولة أو الأمراء؟».

قال: « إنا نبتاع الجواري، وننفق عن سعة لحساب من أرسلنا».

فقال الخليفة: « لمن تبتاعون الجواري؟ ومن هو مرسلكم، أصدقني حتى تنجو من القتل».

فخاف الرجل واصطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه وقال: « إننا نبتاع الجواري لمولاتنا ابنة الإخشيد صاحب مصر».

فضحك الخليفة والتفت إلى جوهر: « ألا ترى التلون في كلامه؟ يقول إنه يبتاع الجواري الحسان لإبنة الإخشيد، ولو قال إنه يبتاعها للإخشيد نفسه لصدقناه». والتفت إلى الرجل وقال: « قل الصدق؛ لماذا لم تقل إنك تبتاع الجواري للإخشيد أو غيره من الأمراء، هل خفت أن يكون عليك من ذلك بأس؟».

قال: « كلا يا مولاي بل أنا أقول الصدق. لقد مضى عليَّ أعوام غير قليلة وهي تبعثني إلى القيروان لابتاع لها الجواري الحسان بالأثمان الباهظة».

قال: « وماذا تفعل بهن؟».

فتوقف الرجل عن الجواب وبان الارتباك في وجهه لكنه خاف السكوت فقال: « لتستمتع بهن».

فدهشوا جميعاً وأخذوا ينظر بعضهم إلى بعض فقال القائد: « تشتري الجواري لابنة الإخشيد لتستمتع بهن هي؟».

قال: « نعم يا سيدي؛ وهذا مشهور يعرفه أهل مصر لأنها كثيراً ما تنزل سوق الرقيق في الفسطاط على حمار، فتساوم صاحب الرقيق على الجارية إذا أعجبتها وتشتريها لنفسها، فإذا لم تجد هناك ما يعجبها من الجواري الحسان تبعث بي في قافلة لهذه الغاية وتنفق في ذلك الأموال الطائلة».

فلما سمع المعز كلامه استغرب وأشار إليه أن ينصرف، فلما خرج التفت المعز إلى قائده وقال: « كنت منذ قليل أتردد في فتح مصر وأخاف جندها، وأما الآن فهان عليَّ أمرها لأن بلدا بلغ الترف من أهله حتى صارت المرأة من بنات ملوكهم تخرج لتشتري جارية تتمتع بها لا يُخشى بأسهم لضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم وحميتهم إنما ينقصنا المال». والتفت إلى لمياء.

فتقدمت أم الأمراء وأجابت عنها قائلة: « إن لمياء قصت عليَّ خبر المال الذي أشارت إليه، وهو مضمون وإنما يحتاج إلى نظر خاص».

قال المعز مخاطباً لمياء: « نبِّئينا خبره يا لمياء».

فتقدمت ووقفت بين يديه وقالت: « إن المال يا سيدي مخبأ في مكان بعيد، وكان عدوك قد خزنه هناك ليحاربك به؛ فجعله الله لك لتحارب به أعداءك وأنت ظافر بإذن الله».

***

إستغرب الجميع قول لمياء، وتطاولوا بأعناقهم لسماع حديثها فقالت: « سأقول لكم ما أعرفه، ولكن أرجو من أمير المؤمنين أن يجيبني إلى ما طلبته».

فأدرك أنها تشير إلى تأجيل الزواج فقال: « أنا أوافقك ولكن الشأن في هذا للحسين»؛ والتفت إليه فوقف الحسين متأدبا؛ فقال له المعز: « إن لمياء الشجاعة الباسلة تطلب تأجيل العقد إلى ما بعد فتح مصر والتنكيل بالخائنين فماذا تقول؟».

قال: « هذا ما كنت أتمناه ولم أجسر على طلبه، أما وقد طلبته هي فأنا أوافق عليه وأشترط أن أكون في مقدمة المجاهدين».

فقالت لمياء: « كلنا سنكون في مقدمة المحاربين، ولا أعني استلال الحسام أو الهجوم في صفوف الاعداء فقط؛ فإن هناك أعمالاً تسبق امتشاق الحسام سنأتي على ذكرها».

ثم وجهت خطابها إلى الخليفة، وقد أبرقت عيناها، وبانت الحماسة في طلعتها، وقالت: « هل أقول يا سيدي؟».

قال: « قولي بارك الله فيك؛ والله إن كلامك ليبث الحماسة في قلوب الرجال؛ فقد سهّلت عليَّ اقتحام الأهوال في سبيل الفتح؛ قولي».

قالت: « سمعت مولاي يقول إننا لا بدَّ لنا قبل الإقدام على فتح مصر من شيئين هامين: الأول المال، والثاني استطلاع أحوال القوم، أما المال فأقص عليكم ما عرفته عنه، ولذلك حديث سمعته عرضاً من ذلك الخائن القاتل، ولم أكن أفهم مغزاه إلا أن ظهرت خيانته - علمت منه أن في جبل ايكجان

من بلاد كتامة مكاناً يقال له فج الأخيار كان في بلدة تسمى دار الهجرة بناها أبو عبد الله الشيعي وخزّن الأموال فيها».

فلما سمع الخليفة إسم المكان تغير وجهه إذ تذكر بلاء أبي عبد الله في نصرتهم وكيف قتلوه؛ ولحظت لمياء ذلك فتجاهلت وأتمت حديثها قائلة: «ولما قام أبو عبد الله بدعوة جدك المهدي، وجمع كلمة القبائل على نصرته، وتمكن من التغلب على أعدائكم، أتى هذه البلدة فنزلها وأقطعها كتامة، ونادى بالإمام المهدي خليفة، وحمل إليه الأموال التي كانت مخزونة في جبل ايكجان؛ وقد يكون أصرَّ على الخروج من الطاعة، فضرب نقوداً جديدة لم يذكر فيها اسم الامام المهدي، وإنما اكتفى بأن ضرب على وجهي الدينار (بلّغت حجة الله) وعلى الآخر (تفرق أعداء الله)، وضرب على السلاح (عدَّة في سبيل الله) ووسم الخيل سمة (الملك لله)، وما زال حتى أتم الفتح، وأتى المهدي في سجلماسة، وسلم الأمر إليه، ويلوح أنه ندم على عمله، فبعث الأموال إلى ايكجان سراً، واختزنها هناك حتى يعود فيقلب ظهر المجن ويطلب الأمر لنفسه؛ فعلم الإمام بذلك وما زال حتى قتله كما تعلمون، وخفي عليه أمر هذه الأموال فبقيت مطمورة هناك؛ ولعله أسرَّ أمرها إلى أبي حامد اللعين، فقام يسعى سراً في إخراج الملك من أيديكم على أن يفسد قلوب القبائل عليكم، ويستعين بذلك المال عند الحاجة؛ وقد فشلت مكيدته بعد أن أردت أبي وفرَّ اللعين؛ والأموال لا تزال في فج الأخيار؛ فإذا بعث المولى من يأتي بها أعانته في نصرة الحق؛ هذا ما أعرف عن أمر الأموال».

ولم تتم كلامها حتى كلل العرق جبينها، وبان الاهتمام في محياها، والخليفة ينظر إليها ويتفهم كلامها، وقد أعجب بما كشفته من أمر هذا السر العظيم فقال: «بورك فيك يا لمياء إننا سنبعث في طلب المال؛ ولكنني أفكر في مكيدة هذا الرجل، وكيف انطلت علينا وعلى أبيك كل هذه الأعوام؛ إن فضلك في كشف هذا السِّرِّ يفوق فضلك في إنقاذنا من القتل، فقد اطلعنا

على مؤامرات خطيرة لو لم نعرفها لظلت الدولة في خطر، أما الآن فسنتعقب الخائنين حتى نفنيهم ونأخذ أموالهم».

فأطرقت لمياء حياء لسماع الثناء، وتصدى الحسين للكلام فقال: «هل يأذن مولاي في أن أذهب في طلب هذا المال؟».

قال: «لك ذلك، ولكن هل تعلم ما يعتور هذا العمل من المشاق؟ إن جبل ايكجان في أواسط بلاد كتامة في البادية والذهاب إليه عسير». قال: «كل صعب يهون في خدمة أمير المؤمنين».

فضحك الخليفة مستحسناً، فقالت لمياء: «هذا عن المال، أما عن استطلاع دخائل القوم بمصر فأنا أقوم به».

فدهش الخليفة لهذا الاقتراح وقال: «كيف؟ أليس هذا شاقاً عليك؟».

قالت: «إنه هيّن، وأستأذن مولاي في ألا يسألني كيف أصنع، وإنما له عليَّ العهد لآتينَّه بالخبر اليقين».

فاستغرب القوم رغبتها في كتمان سعيها، ولكنها لم تدع لهم بابا للاستفهام فسكتوا فقال الخليفة: «لم يمر بي يوم اطلعت فيه على أمور هامة مثل هذا اليوم؛ والفضل لك يا لمياء؛ بارك الله فيك وقوّاك في نصرة الحق».

وتزحزح الخليفة فنهض القائد وانصرف ومعه الحسين، وانصرفت أم الأمراء ولمياء من جهة أخرى، وأدركت أم الأمراء أن لمياء تحب الاجتماع بالحسين بعد ما حدث من الأمور الغريبة، وإن الحياء يمنعها من طلب ذلك، فلما وصلت إلى غرفتها بعثت أحد الصقالبة يدعو الحسين إليها، وأمرت لمياء بالجلوس، وأخذت تكلمها عما دار من الحديث في تلك الجلسة، وهي تريد استبقاءها حتى يأتي الحسين.

وبعد قليل جاء الصقلبي وقال: «إن القائد حسينا أتى» فما كادت لمياء تسمع ذلك حتى همَّت بأن تنهض وتنصرف؛ ولكن أم الأمراء أجلستها وقالت: «إلى أين؟».

فقعدت وهي ترتجف، وأحست أم الأمراء بذلك فقالت: « ما بالك ترتعشين لسماع اسم الحسين؟ ألا تزالين تفكرين في سواه؟ ماذا جرى لمناظره القديم وأين هو؟».

فامتقع وجه لمياء، وأخذها الغضب لتذكُّرها خيانة سالم، فاكتفت بالتنهد ولم تجب؛ فقالت أم الأمراء: « لم تذكري لي اسمه بعد؛ فهل كان في جملة أولئك الخائنين؟ أرجو ذلك فنكون قد خلصنا منه».

فلم تزد لمياء عن الاطراق وقد ترقرقت الدموع في عينيها، وتذكرت أن الحسين عرف سالماً في تلك الليلة، أما أم الأمراء فقالت: « لقد أبطأنا في الإذن للحسين في الدخول». والتفتت إلى الصقلبي وقالت: « يدخل».

ودخل الحسين وهو لا يزال بثياب الركوب كما كان ساعة وصوله، ولم يكن يتوقع أن يرى لمياء هناك؛ وإنما ظن أم الأمراء طلبته لبعض شؤونها؛ فلما وقع بصره على لمياء أجفل كما أجفلت هي، ووقف فألقى التحية على أم الأمراء، ثم حيى لمياء عن بعد، فقالت أم الأمراء: « لا أرى أن تقفا بعيدين، وأنا قد بذلت الجهد في جمعكما، فأنت ابن قائدنا وهذه لمياء ابنتي».

فتلعثم لسان الحسين عن الجواب، وظهر الشكر والسرور في ملامحه، وتقدم إلى لمياء وقال: « إن لمياء ذات فضل كبير عليَّ لأنها أنقذت أبي من القتل فلا أدري كيف أكافئها».

فقالت لمياء: « إني لم أفعل شيئاً يستحق الذكر؛ ولم أفعل ما فعلت إلا خدمة لمولاي أمير المؤمنين الذي نفديه بأرواحنا؛ وأراك لا تقل تفانياً في خدمته».

فأشارت أم الأمراء إلى الحسين أن يقعد على وسادة أمام الوسادة التي كانت لمياء جالسة عليها، وأظهرت أنها ذاهبة في أمر ذي شأن خطر لها فجأة.

***

جلس الحسين ينظر إلى لمياء وهي مطرقة حياء، وقد مر في خاطرها تاريخ حياتها منذ عرفت سالماً، وكيف علقت به حتى أبت أن تجيب طلب سواه، وتذكرت الليلة التي لقيت فيها حسيناً لأول مرة، وما أبداه من الشهامة في سلوكه، وكيف انتهت ليلتهم بفشل سالم، وخطر في خاطرها ما قاله الحسين عند وداعها من كتمان أمر سالم، وأنه عرفه وعفا عنه، وكيف أنها رضيت بالحسين طوعاً لأمر سالم، وأصبح هذا أعدى أعدائها، فأحست بانعطاف إلى الحسين سببه الإعجاب بشهامته ومروءته.

مر ذلك كله في خاطرها سريعاً والحسين جالس بين يديها يهم بأن يخاطبها، ولا يعرف كيف يبدأ. ثم خطر له أن يعزِّيها في فقد أبيها ويشجعها فقال: «لقد ساءني يا لمياء ما أصاب أباك الأمير رحمه الله، ولكننا سنثأر له من ذلك الخائن؛ واعلمي أني غير راجع عنه حتى أذيقه حتفه».

فرفعت بصرها إليه وقد ذبلت عيناها وقالت: «لقد عرفت شهامة الحسين من قبل، عرفتها عفوا، ولا أنسى تلك الأريحية التي قيدني بها، لا أنسى قولك وقد أدركنا ذلك الرجل الملثم، وأوشك أن يقع فريسة فأنقذته وكتمت أمره!».

فقطع كلامها قائلاً: «لا أزال أريد كتمان أمره دعينا منه، إنما أحب أن أعلم هل للحسين مكان عندك؟». قال ذلك وعيناه تبرقان؛ فرآها ساكنة ولحظ دمعتين انحدرتا على خديها خلسة، فأحس بنار اتقدت في بدنه، وهب جسمه كأنك صببت عليه ماء ساخنا، فندم على سؤاله مخافة أن يكون في غير أوانه، وهي في حزنها على أبيها فابتدرها قائلاً: «أظنني تسرعت وأنت لا تزالين في شاغل بالحزن على أبيك فاصفحي عن جسارتي».

فمسحت عينيها بمنديل أخرجته من جيبها وقالت: «إن حزني على أبي شديد، لكن كلامك تعزية كبيرة لقلبي الكسير!» وتنهدت والتفتت نحو الباب كأنها تحاذر أن يدخل أحد عليهما.

فقال حسين: «هل في الدنيا أرق عاطفة وأطيب قلبا من هذه الملكة؟

إني لا أظنها تركتنا وحدنا عرضا، فلا ينبغي أن نضيِّع هذه الفرصة؛ هل أعددت للحسين مكاناً في قلبك؟».

فتنهدت ورفعت بصرها إليه وهي تهمُّ بالكلام فلم تستطعه، فأطرقت وتشاغلت بمنديلها تطويه بين أناملها، وقد تصاعد الدم إلى وجنتيها، فلحظ ارتباكها فأراد مداعبتها فقال: «لم يكن عهدي بلمياء الفارسة الشجاعة ترتبك في حديث مثل هذا، وإني أقرأ الجواب في عينيك، ولم يغب عني نظرك إليَّ من قبل ونظرك إليَّ اليوم؛ كنت أشعر أنك تساقين إلى حبي، ربما لانشغال قلبك بسواي لا أدري، أما الآن فإني أقرأ شيئاً آخر في عينيك، إنما أطلب إليك أن تقولي كلمة واحدة فيما بيننا أحملها ذكرى وعهداً في غيابي وقد يطول؛ هل تقبلين الزواج بي؟».

فتنهدت ثانية وتجلدت وقالت: «إنك تتكلم عني وبلساني، إن لمياء الفارسة الشجاعة كما تقول إنما تكون كذلك في حومة الوغى، وأما في هذا الموقف فإني أسيرة مسكينة، سألتني سؤالاً لا أجيبك عنه إلا بعد أن تجيبني عن سؤالي».

فاستبشر وقال: «سمعا وطاعة إني رهين اشارتك». قال ذلك وقد أخذ منه الهيام مأخذا عظيماً.

قالت: «إني أسألك هل تعاهدني على التفاني في نصرة المعز لدين الله حتى ننتقم له أو نموت؟».

فأعجب بتفانيها في حب المعز؛ وكيف أنها آثرت نصرته على كل شيء فقال: «نعم لله العهد لأكونَنَّ طوع أمرك في كل شيء؛ إني أحبك يا لمياء وأُعجب بخلالك ومروءتك؛ كنت أحسبني مؤدِّيا ما يجب عليَّ في خدمة أمير المؤمنين، فلما رأيت ما أنت فيه من الغيرة عليه رأيتني مقصرا عاجزا؛ ها قد أجبتك عن سؤالك فأجيبيني عن سؤالي».

قالت: «وما هو؟».

قال: «هل تعاهدينني على الحب حتى نلتقي؟».

قالت: « نعم إني أحبك وهذا يكفي؛ وأما الثبات في الحب حتى نلتقي؛ فإنه رهن بما نحن آخذون به من نصرة أمير المؤمنين؛ ونصرته هي واسطة عقدنا؛ وقد تعاهدنا على ذلك؛ ويسرُّني أنك أخذت على نفسك الذهاب إلى جبل ايكجان لاحضار الأموال المدفونة هناك ولكن . . ». وسكتت وقد ظهر التفكير في عينيها.

فقال: « ما بالك؟. ما الذي خطر لك حتى سكتِّ؟ أظنك خفت على ما يعتور هذه المهمة من المشاق؟». قال ذلك ونظر في عينيها ففهم منها أنها تعني ذلك حقا؛ فقال: « لا تخافي عليَّ يا لمياء إني لا أهاب الموت، ولا سيما بعد أن زودتني بتلك الكلمة الحلوة. . إنها ستكون تعزيتي ومشجعتي».

فتنهدت وقالت: « آه من الحب ما أحلاه وأمره!. إن الأحباء يبذلون كل غال ومرتخص ليجتمعوا؛ أما نحن فنتعاهد على الفراق، ولكن خدمة أمير المؤمنين واجبة؛ إني أشعر بفضله وعليَّ أن أنصره و. . .» وسكتت وقد خطر لها أنها تطلب شيئاً آخر غير نصرة أمير المؤمنين؛ تطلب الانتقام من ذلك الخائن، فلم يدرك الحسين مرادها، وانصرف ذهنه إلى مهمتها فقال: « علمت أن مهمتي إلى فج الأخيار لحمل ما فيه من المال لكنني لم أفهم مهمتك».

فتحركت واعتدلت في مجلسها وقالت: « قلت لأمير المؤمنين إني سأسعى في استطلاع دخيلة المصريين وأحوالهم، وأما كيف أفعل فسرٌّ لا تغضب يا حبيبي إذ الم أفشه لك».

فلما سمعها تناديه «حبيبي» اختلج قلبه وصدره، ونسي ما كان يبحث عنه، ولم يشأ أن يستزيدها، بل تهيَّب من الإلحاح عليها؛ وكان يشعر بسلطان لها عليه، فلم يجسر على تكرار السؤال فقال: « افعلي ما بدا لك، وكفاني اللفظ الحبيب الذي سمعته من فيك، فهو تذكار سأحفظه، وقد لا يتاح لنا الاجتماع مرة أخرى قبل سفري، ليت هذه الساعة لا تنقضي، ما

ألطف أم الأمراء وما أكثر فضلها!».

قالت: «سنذكر هذه الساعة المباركة ما حيينا، عسى أن يكون اجتماعنا القادم في مصر في ظل أمير المؤمنين».

فأُعجب بتعبيرها وأكبر نفسها وشدة رغبتها في فتح مصر واستهانتها بفتحها وقال: «أرجو أن نوفق إلى ذلك يا حبيبتي، إنها أمنية نتمنَّاها جميعاً، ولا سيما أن اجتماعنا هناك لا نخاف بعده فراقا إذ تكون لمياء لي وأنا لها».

فقالت وهي تبتسم: «ألا تشعر بارتياح عند تفكيرك في هذا النصر؟ ألا يلذ لك أن تتصور راية المعز تخفق على ضفاف النيل وقد امتد سلطانه إلى هناك؟. أما أنا فأكاد أسكر إذ أتخيل جيش أمير المؤمنين داخلا الفسطاط، وأسمع أهله يؤذنِّون بحيَّ على خير العمل، ويصلون على النبي وآله وسائر الأئمة الطاهرين، ولا بد أن ينصر الله أبناء فاطمة الزهراء؛ فإنها بنت الرسول، وهم أصحاب الحق في الخلافة، ولا بد أن يملكوا الدنيا كلها». قالت ذلك وقد شرق جبينها وأبرقت عيناها كأنها فازت بنعمة لم تكن تتوقعها.

فازداد اعجابا بمروءتها وغيرتها، وودَّ لو كانت أم الأمراء حاضرة لتسمع فقال: «إني أحسبني أخاطب ملاكاً هبط من السماء، وأعدُّ قولك وحياً لا بدَّ من اتمامه باذن الله».

وفيما هما في ذلك سمعا خفق نعال أم الأمراء، وسمعاها تخاطب أحد الغلمان في شأن من شؤون القصر، إيذاناً بدخولها عليهما، ثم دخلت وهي تهشُّ لهما، وبادرت إلى الاعتذار عن عدم البقاء معهما؛ فقال الحسين: «كم كنت أحب أن تكوني هنا لتسمعي ما قالته لمياء، أنت تعلمين تعلُّقي بمولاي أمير المؤمنين، فأنا صنيعته وعبده وابن عبده، لكنني رأيت من تعلق لمياء أضعاف ما أعرف في أحد من الناس».

فضحكت أم الأمراء وقالت: «تعني تعلقها بك؟».

قال: «كلا إنما أعني تعلقها بأمير المؤمنين وتفانيها في خدمته، حتى

كان أول ما اشترطت عليَّ أن نتعاهد على التفاني في نصرته».

فقالت: «ألم أقل إنك لا تجد مثلها في القيروان ولا في المغرب كله؟».

فأجاب على الفور: «ولا في مصر أو بغداد».

فظلت لمياء ساكتة من الحياء، فنهض الحسين وودع أم الأمراء، ثم تقدم إلى لمياء وقال: «استودعك الله إلى أن نلتقي»؛ ومد يده لمصافحتها.

فمدت يدها ونظرت إليه وصافحته وهي تقول: «في مصر إن شاء الله».

فوقع قولها وقعاً جميلاً في أذنيْ أم الأمراء، وفهمت منه ما يكفي، فأكبت عليها وضمتها وقبلتها وقالت: «بارك الله فيك يا ابنتي وحبيبتي، لله أنت من فتاة نادرة المثال!».

ثم تحول الحسين وهو يقول: «ما أحسبنا نجتمع ثانية قبل سفري إلى فج الأخيار، فإذا عدت فأين أراك؟».

قالت: «في الفسطاط، في قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل إن شاء الله!».

فكان لقولها تأثير في قلب أم الأمراء لما ينطوي عليه من التفاؤل والاخلاص؛ والتفتت إليها ثم نظرت إلى الحسين وابتسمت وقالت: «المراد أن تجتمعا وتسعدا معا وذلك غاية ما يرجوه أمير المؤمنين».

ثم أومأت إلى الحسين مودعة، فودعها وهمَّ بالخروج وهو ينظر إلى لمياء نظرة المحب الولهان، ولم تكن هي أقل تأثرا منه، لكنها هاجت فيها عواطف الغيرة والنقمة فقالت له: «إلى أين يا حسين؟».

فرجع إليها وقال: «إلى فج الأخيار».

قالت: «وهل أنت على بينة من مكانه وحاله؟».

فبُغت من هذا السؤال وأطرق خجلاً لأنه كان عازماً أن يسألها عنه، فشغل بذلك الحديث ثم رفع رأسه وقال: «أعرف قليلاً وسأبحث وأسأل، فهل تخبرينني عنه شيئاً وهل تعرفينه؟».

قالت: « لا أعرفه لأني لم أصل إلى ذلك المكان، لكنني اسمع أنه في بلد بعيد في أواسط الصحراء من بلاد كتامة؛ وأن أصحابه قد احتاطوا لاخفاء الأموال وصيانتها».

فقطع كلامها قائلا: « لا تبالي يا لمياء شيئاً من ذلك، فإن ما رأيته من حماستك وغيرتك ومروءتك يصغِّر كل كبير، ويهوِّن كل صعب، كوني مطمئنة». ومد يده لمصافحتها وهو يقول: « أعود فأودعك ثانية وأطلب إليك أن تفكري فيّ أحيانا، وهذا يكفيني لنجاح مسعاي». ثم ودعها وخرج وهي تقول: « سر في حراسة المولى فإنه آخذ بيدك في نصرة الحق وكبت الظالمين».

*****

أرادت بعد خروجه أن تودع أم الأمراء، فأمسكتها هذه وأقعدتها، فقعدت وهي تنظر إليها وكأنها تستفهمها عما تريد، فقالت أم الأمراء: « هذا الحسين قد عرفنا وجهته وخطته أما أنت فـ. . ».

فقطعت لمياء حديثها وقالت: « أستأذنك يا سيدتي في ألا تسأليني عن ذلك».

قالت: «ولماذا هذا التستر؟».

قالت: « أرى فيه فألا حسنا، وماذا يهمك إذا عرفت خطتي أو وجهتي؟. وإنما يهمك أن آتي مولاي أمير المؤمنين بأخبار تلك الدولة».

قالت: « ولكن أمرك يهمني لئلا تلقي بنفسك في تهلكة لما في مهمتك هذه من الأخطار».

قالت: « لا تخافي يا سيدتي، لأن نصير أمير المؤمنين سلالة بنت الرسول لا بد من أن ينجيه الله وينصره على أعدائه، غير أني أتقدم إليك بأمر».

قالت: « قولي ماذا تريدين».

قالت: « إن يعقوب بن كلس اليهودي المقيم بمصر أرسل تلك الرسالة

المستعجلة إلى سيدي المعز لدين الله؛ فهو صاحب فضل كبير، أليس كذلك؟».

فحنت أم الأمراء رأسها موافقة وقالت: «نعم إنه صاحب الفضل الأكبر ولولاه لنفذت حيلة ذلك الشرير».

فقالت: «ألا ترين أن يكتب أمير المؤمنين كتاباً يشكره حتى يبقى على خدمته؟».

قالت: «صدقت وأظنه يفعل».

قالت: «مع من يرسل الكتاب؟».

فانتبهت أم الأمراء لغرض لمياء من هذا السؤال فقالت: «لا أدري، وأظنه يرسله مع أحد غلمانه في قافلة أو بطريق آخر، وهل يهمك هذا الأمر؟».

فقالت وهي تحك وراء أذنها: «لا... لكن..». وأطرقت.

فقالت أم الأمراء: «قولي يا لمياء ما يجول بذهنك؛ لا تخفي عليَّ شيئاً».

قالت: «أريد أن أسرَّ إليك أمراً يهمني أن يظل مكتوماً، هل أفعل؟».

قالت: «افعلي ولا تخافي بعد أن ارتفع حجاب الكلفة من بيننا، وأنت بمنزلة ابنتي، بل لا أرى ابنة أو إبنا يؤثر والديه بما تؤثريننا به يا لمياء». قالت ذلك وبان الاهتمام في جبينها.

فابتسمت لمياء وأبرقت عيناها عند سماع ذلك الاطراء وقالت: «إن سرِّي يا سيدتي هو في الطريق المؤدي إلى خدمة أمير المؤمنين».

قالت: «قولي يا عزيزتي».

قالت: «أحب أن أكون أنا رسول أمير المؤمنين إلى يعقوب هذا، ولا أريد أن يطلِّع سيدي الخليفة على ذلك».

فاستغربت أم الأمراء هذا الطلب وقالت: «وما هو غرضك من هذا التكتم ولماذا؟».

قالت: « لعلمي أن السرَّ إذا جاوز الاثنين شاع، ولولا حاجتي إلى عونك في نيل الكتاب لكتمت هذا عنك، ولذلك أتقدم إليك بالحاح أن تكتمي خبري، وقد قلت لأمير المؤمنين إني سأسعى في استطلاع حال مصر بأسلوب لا أحب أن يعرفه أحد. وكنت أود أن أفعل ذلك من غير أن أكاشفك بأمر الكتاب، فلا تسأليني يا سيدتي عن الأسلوب الذي سأتخذه في البحث، إنما أتقدم إليك أن تستحثي سيدي أمير المؤمنين على كتابة الكتاب، واجعلي أنك سترسلينه مع أحد الغلمان، أو أوصي الرسول إذا أخذ الكتاب أن يأتي به إليك أو كما تشائين؛ فالغرض أن تعطيني الكتاب وتطلقي سبيلي ولا يعلم أحد بسفري».

فضحكت أم الأمراء وقالت: « إني لا أحتاج فيما أطلبه من المعز لدين الله إلى حيلة أو وسيلة؛ وسأفعل ذلك من أجلك؛ ولكنني سأشتاق إلى رؤيتك فقد تعودت جوارك و . . ». ودمعت عيناها.

فأثَّر ذلك المنظر في لمياء، وأحست بشيء يجذبها إلى هذه المرأة، فلم تتمالك عن الترامي على كتفها، وقد سبقتها دموع الامتنان، فضمتها أم الأمراء إلى صدرها وقبلتها وقالت: « عسى أن تعودي سالمة ظافرة، ويعود الحسين أيضاً فائزاً، فتزفان في هذا القصر وننسى ما قاسيته من الشقاء».

فتجلدت لمياء واعتدلت وقد بانت الحماسة في عينيها وقالت: « إنما يكون ذلك في الفسطاط بإذن الله».

فأعجبت أم الأمراء بغيرتها، وضحكت وضمتها ثانية وودعتها على أن تهيِّء أمر الكتاب.

وانصرفت لمياء إلى غرفتها، وأخذت تفكر فيما هي مقدمة عليه من الأمر العظيم - سفر وخطر وبعد وشوق - لكنها تجلدت واستحثت شجاعتها وقالت في نفسها: « لا بد لي من الصبر حتى أنتقم لأبي، وأثأر لنفسي من ذلك الخائن الذي خدعني وأراد أن يجعلني ضحية مطمعه».

وسكتت وأطرقت وهي واقفة أمام المرآة تنزع ثيابها، وتصورت ما كان

لسالم من المنزلة عندها، فخفق قلبها وسيق إلى ذهنها حسن الظن به فقالت: « قد يكون ابن كلس منافقاً أو مخطئاً، هل يكون سالم خائنا إلى هذا الحد ويخدعني بضع سنين؟ . لا . لا . إذن كيف أفسر عمله؟ لو كان صادقاً في حبه لما وافق على الفتك بأبي؛ ولكن سأتحقق ذلك بمصر قريباً».

وكانت قد فرغت من نزع ثيابها، فاستلقت على الفراش للراحة والتأمل، وأجَّلت الحكم في كل شيء إلى ما بعد وصولها إلى مصر.

وبعد بضعة أيام أتتها أم الأمراء بكتاب المعز لدين الله إلى يعقوب بن كلس؛ فتناولته وودَّعتها سراً وكان وداعاً مؤثراً، وكانت لمياء قد أعدت كل ما يلزم للسفر من الخدم والأولاد، لأن الطريق من القيروان إلى مصر بعيدة الشقة لا تقطعها إلا القوافل، وقد أعدت شبه بريد مؤلف من أربعة جياد مع ما يلزم من الخدم والحراس، وجعلت أن ذلك البريد يحمل غلام أمير المؤمنين إلى مصر، ولما أتاها الكتاب تنكرت بثوب غلام صقلبي وركبت؛ ولا يشك من رآها في أنها غلام الخليفة يحمل رسالة في مهمة، وسار الركب قاصداً إلى مصر.

-١٢-

في الفسطاط

كانت الفسطاط عاصمة الديار المصرية، ومقر الامارة منذ بناها عمرو بن العاص، فلما تولى أحمد بن طولون، جعل مقره في القطائع، ثم ذهبت الدولة الطولونية، وأفضت الإمارة إلى محمد الإخشيد، فجعل مقره الفسطاط، فعادت إلى رونقها، وزادت عمارتها، وتزاحمت الأقدام فيها حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه، وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال، وذكر مؤرخو العرب عما بلغته عمارتها أنه كان فيها ستة آلاف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوك، وألف ومائة وسبعون حماما، وقد يستبعد ذلك، ولكن ايراده يدل على كل حال على العظمة والعمران. ومما

نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي:

أحن إلى الفسطاط شوقاً وإنني لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها وفي كل قطر من جوانبها قطر
تبدّت عروساً والمقطَّم تاجها ومن نيلها عقدٌ كما انتظم الدُّرُّ

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط أن جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات إلى سبع؛ وربما سكن في البيت الواحد مائتان من الناس، وبلغت نفقة بناء بعضها سبعمائة ألف دينار، وهي دار الحرم لخمارويه.

وكان بين تلك الأبنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى أهلها، تسمى (دار عبد العزيز)؛ كانت مطلة على النيل، وبلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم. ونقل بعضهم أن الأسطال التي كانت بالطاقة المطلة على النيل بلغت ستة عشر ألف سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ، وذكر رجل دخلها في أواخر القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن أحمد بن طولون قال: « طلبت بها صانعا يخدمني فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتي، وقيل لي إن كل صانع معه اثنان يستخدمهما أو ثلاثة؛ فسألت كم فيها من صانع؟ فأُخبرت أن بها سبعين صانعا قلَّ بينهم من معه دون ثلاثة مساعدين، سوى من قضى حاجته وخرج».

وفي ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفهم، ومن هذا القبيل استكثارهم من الفُرُش، فقد يقتني أحدهم ألف فرشة أو عشرة آلاف فرشة، وذكروا أن رجلاً من أهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة، كل فرشة لمحظية، وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها، وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم. قال القضاعي: « إن قطر الندى ابنة خمارويه كان في جهازها ألف تكة؛ ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار، فإذا كان ذلك شأن الفسطاط في زمن آل طولون ودار الإمارة بالقطائع؛ فكيف

بعد أن عادت دار الامارة إليها في عهد الدولة الإخشيدية؟».

أشرفت لمياء على مدينة الفسطاط من جهة الشمال الغربي في صباح يوم صفا جوه، فوقع بصرها على المدينة عن بعد، فلفت اعجابها جامع عمرو في وسطها، وحوله الأبنية الكبيرة بينها المآذن العديدة، ووراءها النيل قد رست فيه السفن في ميناء الفسطاط من جهة الغرب، وبانت سواريها مصطفَّة كالرماح إذ تقلدها صف من الفرسان وقف بنظام، وبين الفسطاط والمقطَّم البساتين والغياض وفيها الأشجار الغضة وأنواع الرياحين والأزهار؛ أجملها بين المقطم والخليج بستان الإخشيد أو البستان الكافوري (في محل الازهر والسكة الجديدة من أبنية القاهرة اليوم)، وإلى جنوبي الخليج ناحية المقس ومناخ المهراني وأرض الطبالة (وهي الأماكن التي عمرت فيها بعد ذلك الفجالة والظاهر والتوفيقية والأزبكية وغيرها)، فأخذت لمياء تسأل دليل الركب عما يقع بصرها عليه من البساتين وهو يقص عليها؛ ثم استوقف بصرها بستان واسع فيه بقعة كالميدان قد نصبت فيها الخيام فقالت للدليل: «ما هذا البستان؟»

قال: «هو بستان الإخشيد يا سيدي».

قالت: «أراه جميلا، فلنعرج إليه للراحة ثم نواصل السير».

قال: «لا نستطيع الآن ولو جئنا في غير هذا اليوم لأمكن دخوله».

قالت: «ولماذا؟». قال: «ألم تر يا سيدي الخيام المنصوبة في وسطه وعليها الأعلام؟».

قال: «هذه سرادقات نصبوها للأمير كافور الاخشيدي صاحب مصر الآن لأنه مريض وأشار عليه طبيبه أن يقيم بها للاستشفاء».

قالت: «أكافور أمير مصر الآن؟».

قال: «نعم هو أميرها منذ عامين، ونعْم الأمير».

فسكتت وتحولت إلى مرتفع بجانَب المقطم يطل على ما تحته إلى النيل، فأعجبها ما رأته من العمارة التي لا تعهدها في القيروان ولا في غيرها

من البلدان التي مرت بها. ولفت انتباهها لمعان سطح النيل وراء الفسطاط، ووراء النيل بساتين الروضة والجيزة ووراءهما الأهرام تناطح السحاب، وقد اكتنفت النيل على ضفتيه بساتين النخيل الباسقة تختلط رؤوسها برؤوس السواري البارزة عن السفن السابحة في مياه الفسطاط، تُحمل إليها الغلات والسلع وضروب الأنسجة من كل صقع وبلد، فزادت رغبتها في أن تصير هذه البلاد إلى المعز لدين الله، وتصورت الخليفة قد دخلها فاتحا ورفع أعلامه فوقها فاختلج قلبها فرحا.

***

عادت لمياء إلى التفكير في المهمة التي قطعت الصحراء من أجلها، فكان أول همها أن تبحث عن منزل يعقوب بن كلس، فأمرت صاحب الركب أن يسوق الأفراس إلى فندق أو خان، فأخذهم إلى فندق قديم يعرف بفندق ابن حرمة بأول سوق العدسيين؛ وكانوا وهم يمرون في الأسواق لا يلفتون الانظار لكثرة من يدخل الفسطاط يومئذ من القوافل القادمة من الشام والعراق والمغرب والسودان وغيرها؛ تحمل البضائع والغلال والريش والصمغ والجواري والغلمان على البغال أو الأفراس أو الجمال غير ما ينقل بحرا عن طريق النيل.

وما زالوا حتى أتوا الفندق فأمرت لمياء صاحب الركب أن يهتم بالافراس؛ وهو لا يشك في أنها غلام؛ وبعد الاستراحة قليلاً توجه همها إلى السؤال عن بيت يعقوب بن كلس، فطلبت صاحب الخان إلى غرفتها فجاء فرحبت به، وكانت قد بالغت في اكرامه، وأعطته أضعا ف ما طلبه من الأجور، فأصبح طوع ارادتها، فلما دعته إليها وقف بين يديها وقد أدهشه جمال هذا الغلام الصقلبي، وما في عينيه من الذكاء.

وكان الخاناتي (صاحب الفندق) شيخا لطيف المحضر، عركه الدهر وشهد تقلب الدول على مصر من أواخر دولة آل طولون، وكان من الذين شاهدوا الفتك بالطولونيين وخرائب القطائع، وعاصر الإخشيد لما جاء

حاكماً ونزل الفسطاط؛ وكثيرا ما مر به النزلاء من سائر الطوائف والعناصر من الأتراك والأرمن والشوام والمغاربة والفرس والشراكسة والسودانيين وغيرهم.

وأصحاب الفنادق والحانات والمقاهي ونحوها من الأماكن العامة أقرب إلى اللطف ودماثة الخلق من سائر طبقات العامة، لأنهم يتعودون الصبر على الضيم وسعة الصدر باضطرارهم إلى مسايرة الناس على اختلاف أهوائهم وطبائعهم، فيأتيهم السكران والمعربد والثقيل والبارد والمختال، وهم مضطرون بحكم الارتزاق أن يرضوهم كما يرضون سواهم، فإذا لم يكن فيهم استعداد للقيام بذلك هجروا المهنة إلى سواها، وإذا ظلوا فيها لا تزال الحوادث تعركهم، والتجارب تحنكهم حتى تصير أخلاقهم كالعجين ليناً ودماثة.

وكان صاحبنا الخاناتي من هذا النوع، فلما رأى لمياء وهو يعتقد أنها غلام صقلبي (وأكثر ما كان يأتي الصقالبة يومئذ من جهات المغرب)، عرف أنها قادمة من بلاد المغرب فضلاً عن ملابس رفقائهم وكلامهم، فقالت له: «يظهر أنك قديم في هذا البلد يا عماه؟».

قال: «أنا يا سيدي قديم جداً».

قالت: «وقد مر بك ألوف الزائرين من جميع الملل أليس كذلك؟» قال وهو يمشط لحيته بأنامله: «نعم يا سيدي إني أعرف من أحوال الناس أكثر من شعر هذه اللحية»؛ وضحك.

فارتاحت لمجونه على شيخوخته وبدأت بالسؤال عما يعنيها فقالت: «أتعرف رجلاً اسمه يعقوب بن كلس؟».

فهز رأسه متعجباً وقال: «كيف لا أعرفه وهو من كبار رجال الدولة، وقد رأيته بالأمس ماراً على بغلته، ويندر أن يؤذن لليهود في ركوب البغال».

فقالت: «وكيف أذن له في ذلك؟».

قال: «لأن كافور أميرنا فتن بذكائه ومهارته فجعله من خاصته،

وعظمت منزلته عنده حتى أصبح لا يمضي أمراً إلا بتوقيعه».

فاستغربت ذلك وقالت: «أين يقيم الآن؟».

قال: «يقيم في منزل فخم بجانب زقاق اليهود على مقربة من هذا المكان».

قالت: «هل ترسل معي من يرشدني إلى منزله؟».

فنهض الشيخ وقال: «أنا أسير في خدمتك إلى منزله».

فقالت: «لا حاجة إلي لاتعابك يكفي أن تدلني عليه من هنا».

فمشى وهو يظن أنه يكرمها وقال: «لا. لا. بل أمشي في خدمتك يا سيدي.. ولهذا المنزل طريقان: أحدهما قصير لكنه ضيق مظلم والآخر طويل منير جميل؛ يجدر بنا أن نسير في الطريق الطويل». قال ذلك ومشى وهو يتوكأ على عكازه.

فأطاعته لمياء ومشت في أثره وهي بلباسها الخاص بغلمان الصقالبة، وانما اختارت ذلك اللباس لأن أصحابه أقرب بوجوههم وأصواتهم إلى النساء؛ فلا يستغشها من يتوهَّم في صوتها غنة النساء، فمشيا في زقاق ينتهي إلى رحبة واسعة رأت لمياء فيها الجماهير يتزاحمون ويتراكضون، فسألته عن ذلك فقال: «هذا جامع عمرو بن العاص يا سيدي».

قالت: «سمعت به كثيراً وكنت أود أن أصلي فيه لكنني سأفعل ذلك في فرصة أخرى».

فقال: «تعال يا سيدي لأريك الجامع ثم نسير في طريقنا».. ومشى أمامها مسرعا وهو ممسك بطرف ثوبها كأنه يجرها إلى هناك.

ولم يكد يصل بها إلى الباب حتى سمعت صوتاً أدهشها، ورأت شيخاً واقفاً بالباب ينادي «معاوية خالي»، فيرد عليه شيخ آخر في الجانب الآخر بمثل قوله - وهم يفعلون ذلك نكاية في الشيعة لأنها تحتقر معاوية؛ فأحست لمياء عند سماع ذلك بغضب لأنها تجلُّ الشيعة اكراماً للمعز وأم الأمراء، وحدثتها نفسها أن تصيح بالشيخين وتسكتهما، فتذكرت أنها غريبة وليس

هذا وقت خصام، وهي تعلم تعصب حكومة مصر وأهل مصر يومئذ ضد الشيعة؛ لكنها كانت تسمع ذلك عن بعد، فلما رأته رأي العين استغربته، فتحولت عن باب الجامع والخاناتي يتبعها ويقول: « ما بالك يا سيدي لم تدخل الجامع؟ ».

فقالت: « سأرجع للصلاة في فرصة أخرى، ولكن ما بال هذين الشيخين يناديان هذا النداء؟ ».

قال: « يناديان بذلك إغاظة للشيعة ».

قالت: « لعلك شيعي؟ ».

فصاح: « أستغفر الله، لماذا تقول لي ذلك يا مولاي كأنك تريد أن توقعني في مصيبة؟ ».

قالت: « ولماذا؟ هل الشيعي كافر؟ ».

فأشار بسبابته على شفته السفلى كأنه يطلب سكوتها، أو يستمهلها في الجواب إلى فرصة أخرى، فسكتت حتى إذا دخلا في زقاق منفرد قال الشيخ: « احذر يا سيدي أن تجاهر بأمر الشيعة، لعلك منهم؟ ».

فقالت: « نعم أنا منهم وهل من بأس عليَّ؟ ».

قال: « كلا، وربما هابوا لباسك وقيافتك؛ وأما إذا كان الشيعي فقيرا فإنهم يضربون ويهينونه؛ وقد يضربون الكبار ويسجنونهم ويهينونهم بلا شفقة ».

فلما سمعت ذلك الكلام لم تتمالك أن صاحت: « ويل لهم ألا يخافون الله؟ ».

فتقدم الشيخ وقال بصوت ضعيف: « أنصح لك يا سيدي أن تغض الطرف عما تراه، ولا تعرِّض نفسك للاهانة ».

فقالت: « أليس في هذا البلد أحد من أهل الشيعة ذو مقام؟ ».

قال: « بلى يا سيدي هنا رجل شريف من سلالة الحسين اسمه مسلم بن عبيد الله الشيعي، فإن الناس يهابونه ولا يتعرض له أحد بسوء؛ لكن

ما لنا ولهذا فقد دنونا الآن من زقاق اليهود؛ وهـذا منزل يعقوب بن كلس».

-١٣-

يعقوب اليهودي

تقدم الشيخ إلى الباب ودقه بحلقة من الحديد في وسطه، فرد عليه البواب، وفتح خوخة الباب، وأخرج رأسه منها وهو يقول: «من هذا؟». فقال الخاناتي: «ضيف يسأل عن المعلم يعقوب».

فأجال البواب نظره في الطريق، فرأى لمياء واقفة بثوب الرجال، فأعجبه هندامها فقال: «أدخل يا سيدي، إن المعلم في المنزل». قال ذلك وفتح الخوخة على مداها، وتنحى حتى دخلت لمياء بعد أن أشارت إلى الخاناتي إشارة الوداع وابتسمت، فمضى الخاناتي معجبا بلطف ذلك النزيل الكريم.

أما لمياء فأشار إليها البواب أن تقعد على مقعد في منظرة عند الباب، وذهب لينادي يعقوب، وبعد قليل سمعت صوت يعقوب يقول لبوابه: «أين الضيف؟». وسمعت هذا يجيبه بقوله: «في المنظرة».

ثم أقبل يعقوب فوقفت له لمياء، فحياها بلطف وقال: «مرحباً بالضيف الكريم، إجلس». وجلس على كرسي بين يديها وهو ينظر إلى نظافة ثوبها، وهي تنظر إلى سحنته، وتتبين ملامحه، فرأته على أبواب الكهولة؛ وقد لبس الجبة والعمامة الصغيرة، وأرخى سالفيه أمام أذنيه، وبان من شكل أنفه وحاجبيه أنه يهودي؛ ولكن الشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط ذكائه وحدة ذهنه.

فتبادر إلى ذهنها أن تطلب الاختلاء به لكنه سبقها إلى الكلام فقال: «من أين الضيف؟».

قالت: «من بلدة بعيدة، هل تأذن في خلوة؟».

قال: « نحن في خلوة».

قالت: « بل أريد خلوة أبعد عن أبصار الناس ومسامعهم».

فعرف من لهجتها أنها من المغرب، وحدثته نفسه لأول وهلة أن لمجيء هذا الصقلبي علاقة بكتابه إلى المعز؛ وكان ينتظر ورود الجواب عليه كل يوم، فنهض ومشى أمامها في حديقة كبيرة إلى مصطبة صعد عليها إلى بيت دخلا غرفة منه، وأمر ألا يقرب أحد من بابه؛ وفي الغرفة بساط من السجاد ومساند ومقاعد؛ فأشار يعقوب إلى ضيفه أن يقعد على الوسادة، وجلس هو بين يديه وعيناه شائعتان ليرى ما وراء هذه الخلوة فقالت لمياء: « إني رسول إليك من الإمام المعز لدين الله».

فلما سمع يعقوب اسم الخليفة تأدب في مقعده مبالغة في الاحترام وقال: « مرحبا بك يا سيدي، كيف أمير المؤمنين، وكيف صحته؟».

قالت: « إن مولاي أمير المؤمنين بعثني إليك لأحمل شكره لك على رسالتك التي أنفذتها إليه».

قال: « أرجو أن تكون قد حسنت عاقبتها، فإني في قلق لأن رسولي لم يعد».

فقالت: « ولن يعود لأنه قُتل».

فأجفل وقال: « وكيف وصلت الرسالة إلى الخليفة؟».

قالت: « وصلت بالاتفاق الغريب.. أنا أوصلتها إلى أمير المؤمنين؛ وكان على وشك الوقوع في الفخ». وتنهدت إذ تذكرت مقتل أبيها، ثم استأنفت كلامها وقالت: « وكان في وصول الرسالة نجاة له ولحاشيته من الموت».

فأبرقت أسرَّة يعقوب لنجاح مهمته لما يتوقعه من التقدم في دولة الفاطميين وقال: « وكيف حدث ذلك؟ ألا تقص عليَّ الخبر.. قل بالله قل».

قالت: « أحب قبل كل شيء أن أكاشفك بسرٍّ آخر».

قال: « قل يا سيدي».

قالت: « أنت تخاطب فتاة لا رجلاً».

قال: « أصحيح هذا؟ فإني توسمت في هذا الصوت لطف النساء؛ لكنني رأيت في هاتين العينين قوة الرجال، أما وقد أطلعتني على سرّك، فهل تتممين جميلك وتفصحين لي عن حديث رسولي وكيف وصلت الرسالة إليك؟».

قالت: « لذلك حديث طويل سأوجزه، وفيه أشياء كثيرة لا تهمك، ولكنني سأقولها لك وثوقاً بذمتك، واعتماداً على غيرتك وشرفك لأستعين بك في بعض الأمور التي تهمني».

قال: « قولي يا سيدتي وثقي بأني خزانة أسرار، وإني أبذل كل ما في وسعي للأخذ بيدك في كل ما تريدينه».

فأخذت تقص عليه خبرها مع سالم مختصرا إلى أن غُلب أبوها على بلده وصار في حوزة المعز، وكيف خطبها لابن جوهر، وما ظهر من كيد أبي حامد، وكيف قتل رسوله وقتلت هي قاتله، وأنها قادمة لاستطلاع الاحوال والانتقام لنفسها إلى آخر الحديث، وهو منصرف بكليته إلى سماع حديثها؛ فلما فرغت قال: « أنت إذن لمياء المسكينة؟».

قالت: « نعم أنا لمياء ولكنني لست مسكينة لأني سأنتقم من ذلك الخائن الغادر». قالت ذلك وحركت أسنانها وبان الغضب في عينيها، وأدرك يعقوب أنها فتاة ليست كسائر الفتيات فقال لها: « ثقي بأني أبذل وسعي في سبيل رضاك، إن أمة في نسائها فتاة مثلك لا بد أن يتسع سلطانها، وستقيمين هنا وتعرفين كل شيء في مدة قصيرة».

قالت: « علمت أن في هذا البلد رجلا من الشيعة اسمه مسلم بن عبيد الله هل تعرفه؟».

قال: « إنه صديق عزيز، وهو الذي حبب إليَّ الأخذ بناصر الشيعة، مع إني إسرائيلي فقد صرت أعتقد أن الحق للإمام علي».

فهزت رأسها وقالت: « الحق يعلو ولا يعلى عليه، وسوف يظهر أصحاب الحق أبناء بنت الرسول». قالت ذلك ومدت يدها إلى جيبها، وأخرجت لفافة من الحرير أخرجت منها رقا ملفوفا وقدمته إليه وقالت: « هذا كتاب من أمير المؤمنين إليك»؛ ثم أخرجت حجراً من الماس كبير الحجم كان قد وقع للمعز في بعض غزواته يساوي بضعة آلاف دينار وقالت: « وهذا هدية من مولاي الخليفة إليك».

فتناوله وقبَّله وفضَّ الكتاب وقرأه فإذا فيه:

« من المعز لدين الله أمير المؤمنين إلى يعقوب بن كلس.

« لقد تأكدنا إخلاصك الصحيح من رسالتك التي وصلت إلينا في إبان الحاجة إليها، فوجب علينا شكرك، وبعثنا به إليك شفاهاً مع رسولنا حامل هذا الكتاب، وسنذكر لك هذه الأريحية والغيرة الحميدة في وقت يكون لك منه نفع صحيح؛ وإذا زدتنا من مودتك وصدق اخلاصك تضاعفت يدك لدينا والله يتولاك بنعمته».

***

أتم يعقوب قراءة الكتاب، ثم قبَّله ووضعه على رأسه، وأعاده إلى اللفافة وخبأه في جيبه، فنهضت لمياء فأحس يعقوب بأنها تريد الذهاب للتعرف بمسلم بن عبيد الله الشيعي، فنهض ومشى بين يديها فقالت: « هل منزل الشريف بعيد من هنا؟».

قال: « هو جارنا لا نحتاج إلى زيارته إلا إلى خطوات قليلة بعد خروجنا من هذا الزقاق». فاغتنمت فرصة وجودها معه في الطريق وقالت: « لم أحادثك في شأن سالم بعد».

فقال: « لا حاجة إلى زيادة الايضاح يا سيدتي كوني مطمئنة».

ولم يسيرا طويلا حتى وصلا إلى بيت مسلم، فتقدم يعقوب فطرق الباب وخاطب البواب؛ فلما عرفه فتح له ورحب به، ودخلت لمياء معه ومشى في الحديقة أمامها حتى بلغ خبر قدومه إلى مسلم فناداه من الداخل: «

ادخل يا معلم».

فأسرع يعقوب إسراع المحتفي بمخاطبه وقال: « لست وحدي يا سيدي؛ إن معي ضيفاً تسرّ بمشاهدته».

فقال: « ادخل ومن معك».

وكانت لمياء قد صارت على مقربة من باب الغرفة التي فيها مسلم، فحالما وقع بصره عليها تزحزح من مكانه كأنه يهم بالنهوض، فأسرع يعقوب إليه وأقعده وهو يقول: « لا تقم يا سيدي».

فقال: « أهلاً وسهلاً بالقادم.. من معك؟».

قال: « رسول ابن عمك صاحب القيروان».

فقال: « من أمير المؤمنين المعز لدين الله؟». قال ذلك ووقف وهو يقول: « فلماذا منعتني من الوقوف؟ إن كنت لا أقف لرسول صاحب الحق فلمن أقف؟». وترقرقت الدموع في عينيه فرحا.

فأكبت لمياء على يده فقبلتها وهي تقول: « العفو يا سيدي، هذا اكرام لا أستحقه».

فقال: « بل يجب عليَّ الوقوف اكراماً لابن عمنا صاحب القيروان؛ طالما تمنيت أن أحظى بهذه اللقيا؛ كيف فارقت أمير المؤمنين؟». وقعد وهو يشير إليها بالجلوس، فجلست متأدبة وقالت: « فارقته في خير وسلامة؛ إن قلبي يطفح سرورا بهذا اللقاء في هذا البلد البعيد».

وأشار مسلم إلى يعقوب فقعد وهو يقول: « وأزيدك علماً يا سيدي أن هذا الرسول فتاة تتفانى في نصرة أمير المؤمنين، وقد كانت السبب في حفظ حياته من كيد الكائدين».

فقال: « وكيف ذلك يا يعقوب؟».

قال: « ألا تذكر يا سيدي ما قصصته عليك من المكيدة التي كادها بعض الخونة للفتك بابن عمك حفظه الله؟».

قال: « بلى وعلمت أنك بعثت رسولاً ينذره بذلك».

قال: « نعم ولكن الرسول قُتل قبل وصوله إلى القيروان؛ فأتيح لهذه الباسلة أن تتناول الرسالة وتوصلها إلى صاحبها؛ ولو تأخرت لحظة لنفذت حيلة أولئك الكائدين». وقص عليه الخبر باختصار.

فلما علم بما تكنُّه جوارح لمياء من الغيرة على الشيعة، وعن غرضها من القدوم إلى مصر قال: « بارك الله فيك يا بنية، كيف فارقت أمير المؤمنين؟».

فطمأنته وأخبرته بما أوتيه من النصر، وما ترجوه من تغلبه وفوزه، فأبرقت أسرّته وقال: « الحمد لله الذي نصر قومه، ونتوسل إليه تعالى أن يتم فضله علينا، وينقذنا من القوم الظالمين.. ألم يعزم الامام على القدوم الينا؟».

قالت: « إنه فاعل بإذن الله، وإنما جئت لاستطلع الأحوال وأرى حال الشيعة في هذه البلاد».

فتنهد تنهدا عميقاً وقال: « إن شيعتنا في ضنك شديد؛ إن هؤلاء الظالمين يسومونهم سوء العذاب من الاهانة والضرب والحبس بسبب وبلا سبب».

قالت: « لقد تفطَّر قلبي لما شاهدته من ذلك في الصباح وأنا قادمة إلى منزل يعقوب، رأيت شيخين جالسين بباب المسجد يصيحان: معاوية خالي؛ يقولان ذلك بقحة».

فقال: « لم تريْ شيئاً بعد يا بنية، إن شيعتنا مغلوبون على أمرهم يذوقون العذاب ألوانا من الحبس والقتل».

فقالت: « الحبس والقتل؟ ولماذا؟».

قال: « لغير سبب؛ إنهم يسومون شيعتنا ذلك لأنها تجلُّ أبناء الرسول، لو قصصت عليك بعض الخبر لبكيت على حالنا».

قالت: « أحب أن أعرف شيئاً أنقله إلى مولاي أمير المؤمنين لعله يعجل خطواته في انقاذهم».

قال: « أذكر لك مثالاً صغيراً من مظالمهم؛ كان في الفسطاط منذ سنوات رجل من الشيعة اسمه إبن أبي ليث الملطي، بلغ خبره صاحب مصر فبعث في طلبه، فحملوه إليه فأمر بضربه مئتي سوط، ووضعوا في عنقه غلا ثقيلا وحبسوه، وجعلوا يبصقون في وجهه وهو في السجن حتى مات رحمه الله». قال ذلك وغص بريقه فلم تتمالك لمياء عن البكاء.

فاستأنف مسلم الحديث وقال: « لم يكتفوا بموته.. فبعد أن دفنوه نهض جماعة ممن لا أخلاق لهم وهموا بنبش قبره أيضاً. هل سمعت بأفظع من ذلك. هذا مثال صغير مما قاساه الشيعة في هذا؛ لا بل وناهيك بما نسمعه بآذاننا من الإهانات والنكايات. فإنهم يتعرضون للمارة فيطلبون من أحدهم أن يقول: (معاوية خالي) أو (معاوية خال علي). فإذا لم يقل أهانوه أو قتلوه».

وكانت لمياء تسمع وبدنها يقشعر، وعيناها تذرفان الدموع ومسلم يغص بريقه من فرط التأثر، ويعقوب يظهر التألم مما يسمعه؛ ثم تصدت للكلام وقد أبرقت عيناها وقالت: « لا تحزن يا سيدي قد دنا الوقت لانقاذ هذه الشيعة المظلومة؛ إن الله مع الصابرين».

فتنهد الشريف مسلم وقال: « لقد طال صبرنا يا بنية ولا نظننا نصل إلى ثماره. كأنه قد كتب علينا الاضطهاد وكتب على الخلافة أن تبقى في غير أهلها لحكمة لا نفهمها».

فقالت لمياء: « أليست الخلافة الآن في بيت الرسول بالقيروان؛ إنها ستبقى فيهم مدى الزمان؛ قد كتب لهم النصر ولا يمضي كثير حتى ترى أعلامهم تخفق على سائر البلدان بإذن الله».

وكانت لمياء تسمع وبدنها يقشعر، وعيناها تذرفان الدموع، ومسلم الشريف بما بدا من حماستها وقال: « إن وجود مثلك بين انصارنا يبشرني بفوز عظيم».

قالت: « أنا مسكينة حقيرة، إنما الأنصار هم القواد والأمراء، وفيهم

جوهر الصقلي الذي دوَّخ المغرب بسيف العبيديين؛ إن الفتح سيكون على يده وأيدي الأمراء من كتامة وصنهاجة وغيرهم من البربر، الذين باعوا أنفسهم في سبيل الحق». ثم اعترضت مجاري أفكارها صورة أبي حامد وسالم، وما كان من كيدهم حتى قُتل أبوها فانقبضت نفسها وسكتت، وراحت تفكر في سالم، وأنها تحب أن تطَّلع على حقيقة حاله، وتود أن تسمع خيانته بأذنها؛ ثم رأت أنه لا يستحق ذكره بين يدي الشريف، فرأت أن تستأذن في الانصراف حتى تخلو إلى يعقوب وتطلب منه ذلك، فتزحزحت تتأهب للذهاب فاستوقفها الشريف قائلاً: «إلى أين يا إبنتي؟ إنك ستقيمين عندنا بين أهلنا».

فقطعت كلامه قائلة: «ذلك حظ كبير لي، ولكنني لا أقدر على الاقامة هنا؛ وأتوسل إليك بجدك سبط الرسول أن تكتم أمري عن كل إنسان حتى عن أهلك فهل تعدني بذلك؟».

قال: «نعم كوني مطمئنة؛ والآن إلى أين تذهبين؟».

قالت: «إني سائرة مع المعلم يعقوب؛ وسأذهب إلى الخان أو غيره كما يتفق، ولا غنى عنك في كل حال».

فقال: «مهما يخطر لك من أمر فإنك تجدينني ملبياً مطيعاً».

ثم قبلت لمياء يده وخرجت وخرج يعقوب معها.

-١٤-

كافور الإخشيدي

أدرك يعقوب أن لمياء تعني خبرها مع سالم؛ وكان يعقوب قد أخلص النية للمياء إذ وقعت من نفسه موقعاً عظيماً، وأُعجب بما رآه من صدق غيرتها ومروءتها، وهو شريكها في غرضها السياسي؛ فقد كان يرى تغيير الدولة الإخشيدية بالفاطمية ليس حبا للشيعة أو انتصارا للحق، لكنه كان ذا مقام عند كافور، وكان يتوقع انقلاب الأحوال، ولا سيما بعد مرض كافور،

وقد أسرَّ إليه الطبيب أن كافور سيموت قريباً؛ وهو يعلم تغير قلوب الاخشيدية واضطراب أحوالهم، فرأى أن يصادق الفاطميين، فيمسك الحبل من الطرفين؛ وكان يخاف مطامع الإخشيديين في ماله، وهو يرى قرب زوال دولتهم؛ فلم ير بأسا في أن يكون وسيلة لنقل هذه الدولة إلى دولة جديدة فتية؛ فإذا جرى ذلك على يده أتته المنافع متعددة.

وكان عدوه اللدود في ذلك الحين ابن الفرات الوزير؛ وكان يعقوب يخافه ولا يأمن جانبه إذا مات كافور، فقد كان يحسده على منزلته عند كافور وينافسه على النفوذ؛ أما كافور فكان يقرِّب يعقوب ويكرمه وقد جعله موضع ثقته، فلما أشارت لمياء إلى أمر سالم ورغبتها في استطلاع حقيقته، رأى أن يسهل عليها ذلك وأن يطلعها على الأوضاع السياسية والأحزاب فقال: « أظنك تعنين أمر ذلك الخائن».

ففهمت أنه يعني سالماً، فأجفلت ولم تطق أن تسمع وصفه بالخائن مع أنها حكمت عليه بالخيانة من تلقاء نفسها؛ لكن ما رسخ في قلبها من حبه لا يزال له صدى في خاطرها حتى تتحقق الأمر فقالت: « إني لم أتحقق خيانته بعد».

فقال: « أما أنا فقد تحققته كما ذكرت في كتابي إلى المعز لدين الله».

قالت: « أليس من سبيل إلى تحقيق ذلك بنفسي؟».

وكانا قد خرجا من الزقاق، واقتربا من منزله، وسمع المؤذن في جامع عمرو يؤذن صلاة الظهر، فقال يعقوب: « هذا وقت الغداء فلندخل إلى منزلنا لنتغدى ثم ننظر في هذا الأمر».

ودخل منزله وهي في أثره، فأمر غلامه أن يهيء المائدة في المنظرة، ولم يحضر معهما أحد من أهل يعقوب إجابة لما أرادته لمياء؛ وبعد الغداء جلسا وكل منهما يفكر في أمره، وفيما هما في ذلك طرق الباب وأتى الخادم يقول: « الطبيب شالوم بالباب».

فلما سمع اسمه أبرقت أسرَّته كأنه جاءه الفرج بعد الضيق وقال

للخادم: « ادخله إلى ردهة الاستقبال ريثما آتي».

وبعد خروج الخادم قال يعقوب للمياء: « تعبت وأنا أفكر كيف أثبت لك خيانة الرجل، فأتى الطبيب ففُتح باب الفرج».

قالت: « من هو؟».

قال: « طبيب الأمير كافور يتردد عليه كثيرا ؛ولا سيما في هذه الأيام لانحراف صحته؛ ولكافور ثقة في علمه وطبه وكانا صديقين قبل أن صار هذا العبد أميراً».

قالت: « أي عبد تعني؟».

قال: « أعني كافوراً؛ ألا تعلمين أنه عبد! فلا بد إذن من أن أقص عليك خبره ليتيسر لك تفهم أحواله؛ اعلمي يا بنية أن كافور هذا كان في شبابه عبدا لبعض أهل مصر، ثم اشتراه محمد بن طغج الاخشيد مؤسس هذه الدولة هنا منذ حوالي أربعين سنة، وترقى في خدمته حتى صار (أتابك) ولديه أي مربياً لهما، وصار يعرف بالأستاذ كافور، وتمكنت قدم الاخشيد بمصر، واستقل بها في كنف الدولة العباسية كما هي حالنا الآن. وتوفي محمد الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ فخلفه ابنه الأكبر أنوجور ومعناه بالعربية (محمود)، فزاد نفوذ كافور في الدولة لأنه كان مربيا لانوجور، فصار وزيرا له فقام بتدبير دولته أحسن قيام، ولما توفي أنوجور سنة ٣٤٩هـ تولى بعده إخوة علي بن الاخشيد، فاستمر كافور في وزارته أو نيابته حتى توفي عليٌّ هذا منذ سنتين (٣٥٥هـ) فلم ير كافور بين الإخشيديين من يليق بالحكم».

ثم خفض صوته وقال: « ولعله طمع في الاستقلال، فاحتال في اظهار خلعة قال إنها جاءته من العراق، وهي شارة الولاية عندهم يرسلها الخليفة العباسي لكل وال جديد فيلبسها باحتفال شائق. وزعم أنه لُقِّب بأبي المسك، فاستبد بأمور الدولة واستوزر رجلا شديدا اسمه أبو الفضل جعفر بن الفرات هو وزيره الآن؛ ولولا ابن الفرات هذا لكان كافور من أحسن الأمراء».

فأعجبها ما سمعته عن أصل هذه الدولة، وعن كافور لكنها ما زالت تحب أن تستزيد من خبره فقالت: « قلت أن كافوراً كان عبدا فهل تعني أنه أسود اللون؟ أم هو مملوك أبيض! ».

فقال: « هو أسود شديد السواد؛ لكن سواده لم يمنع من خضوع القوم له وإن لم يخضعوا جميعا، وقد طال بنا الكلام والطبيب شالوم في انتظارنا». قال ذلك ونهض فنهضت لمياء معه فأتم حديثه وهما واقفان فقال: « اعلمي يا لمياء أن أمراء هذه المملكة وجندها الآن قسمان: قسم مع كافور ينصرونه ويأخذون بيده ويقال لهم الكافورية؛ وقسم مع آل الإخشيد ويعدون كافورا مختلساً ويقال لهم الإخشيدية وهم كثيرون؛ هذا وكافور الآن مريض ولا يدري أفي خطر هو أم لا؛ فإذا انتهى هذا المرض بالموت فإن أحوال مصر تضطرب وتتضعضع؛ إذ لا يوجد من يستحق الامارة بعده إلا غلام في الحادية عشرة من عمره؛ وسنعرف حال كافور في الصحة من الطبيب شالوم، هيا بنا إليه».

قال ذلك ومشى فمشت لمياء معه، وهي تتأمل فيما سمعته عن اضطراب أحوال هذه الدولة، وقد استبشرت بنجاح مهمتها.

وأطلا على الطبيب شالوم في ردهة الاستقبال، فتقدم يعقوب مسرعا نحوه ولمياء تمشي الهوينى لتبقى بعيدة حتى يدعوها، لكنها جعلت تتفرس في الطبيب عن بعد، فإذا هو كهل والذكاء يتدفق من عينيه؛ وعليه زي الأطباء في ذلك العصر، وألبسته ثمينة لتقربه من أمير البلاد وحظوته عنده، وحول خصره منطقة مذهبة فيها دواة من عاج، وقد التحف رداء كالعباءة من حرير عنابي اللون، وعلى رأسه كساء كالقبعة عليها طراز مزركش، وقد أرسل لحيته وسالفيه بلا هندام كما كان يفعل كبراء اليهود.

وكان شالوم جالساً على وسادة في صدر القاعة؛ وفي يده كتاب يطالع فيه باهتمام؛ فلما سمع خطوات يعقوب نهض وحياه، وابتسم له والاهتمام باد في عينيه، فدعاه يعقوب للجلوس وهو يقول: « مالي أرى حبيبنا شالوم

في شاغل؟ ما هذا الكتاب؟».

وقبل أن يجيبه لمح لمياء بلباس الغلمان في الحديقة واقفة تتلهى بقطف الزهور وهو يعرف غلمان يعقوب فاستغربها، وأدرك يعقوب استغرابه فابتدره قائلاً: «هذا غلام صقلبي جاءني برسالة في هذا الصباح».

قال: «من أين؟ يظهر لي من زيِّه أنه من المغرب، فهل أتاك برسالة من صاحبك المعز؟».

فعضَّ يعقوب على شفته السفلى اشارة التكتم وقال: «صاحبي؟! وهل تعتقد ذلك فيّ وأنا في خدمة الأمير كافور؟ ما لنا ولهذا؟ قل لي رأيتك تقرأ في هذا الكتاب باهتمام.. اقعد.. قل ما سبب اهتمامك؟ كيف صحة مولانا؟».

فقعد وقعد يعقوب بين يديه فقال الطبيب: «إن الأمير في خطر وقد أعيتني الحيل في تطبيبه، وهذا كتاب جاءني بالأمس ألفه طبيب من أشهر أطباء العراق».

فقطع يعقوب كلامه قائلاً: «أظنك تعني الرازي فهل هذا كتابه الحاوي؟».

قال: «وهذا جزء منه يبحث في العلة التي يشكو الأمير منها».

قال: «هل وجدت شيئاً جديداً؟».

فأومأ برأسه أن «لا».

فقال يعقوب: «فأنت إذن يائس من شفاء الأمير؟». فهز رأسه موافقاً.

فأطرق يعقوب، وبان الانقباض في جبينه، وعرف الطبيب سبب ذلك فقال له: «لعلك تفكر فيما سيؤول إليه أمرك إذا مات هذا الرجل؛ كم نصحت لك بأن تساير الوزير ابن الفرات وتداجيه؛ فإنه شديد الوطأة حسود وله مطمع ولا يخفى عليك».

فتنهد وقال: «إنه لا يداجى؛ ولا فائدة من مداجاته لأن الحسد يعمي ويصمّ». وأطرق وهو يعمل فكرته ثم قال: «لا أبالي؛ إن الأمر لا يطول في

يده، بل أنا لا أرى مصر يطول أمرها في قبضة هذه الدولة و . . » وتوقف عن الكلام بغتة .

فلم يفت الطبيب ما جال في خاطره فقال : « لماذا تخفي أمرك عليَّ يا يعقوب؟ . إن مصلحتنا في الأمر مشتركة، ولا يليق بنا أن يداجي أحدنا الآخر، وهؤلاء القوم وإن قدَّمونا وأكرمونا، فإنهم يكرهوننا؛ ولولا حاجة هذا الأمير الأسود إلى طلبي لما هشَّ لي ولا كلَّمني؛ وأنت مع طول عشرتك له منذ توليت عمارة داره وأنت شاب حتى صرت ملازما لبابه؛ ثم أجلسك في ديوانه الخاص وصرت تخدمه؛ وتتولى أعمال الحسابات، وتدخل بين يديه في كل شيء؛ فإنه لا يحبك وإنما هو في حاجة إلى عقلك وتدبيرك. هل غرَّك أنك كيفما دخلت أو خرجت وقف لك الحجاب والأشراف؟ إنه انما فعل ذلك لأنك خدمته باخلاص وغيرة، ولم تطلب منه مالا . وأنا أعلم الناس بالمال الذي رددته عليه ولم تأخذ منه إلا القوت، فأنت الآن موضع ثقته لا يمضي دينار ولا درهم إلا بتوقيعك، ومع ذلك هل تظنه يحبك؟ إنه لا يقدر أن يحبك ولا أن يحبني؛ لا أقول ذلك لأنك لا تعلمه بل أنا على يقين أنك أعلم به مني؛ ولكني قلته لأسهل عليك التصريح لي بما تحاول كتمانه عني وأنا أتوسمه فيك» .

وكان يعقوب يسمع كلامه ويعتقد صحة كل كلمة منه، ويعلم أن ميله إلى الفاطميين لم يخف عن صديقه الطبيب؛ وهو لم يفعل ذلك ليغدر بمولاه كافور، ولكنه توقَّع قرب سقوط هذه الدولة، وكان يعلم أن ابن الفرات يكرهه، وإنه إذا مات كافور يصبح في خطر على ماله وحياته؛ لذلك أحب أن يصل حبله بحبل الفاطميين مع البقاء على ولاء كافور، ولكنه كان يشق عليه أن يصرح بذلك لأحد، فلما سمع تصريح الطبيب شالوم، هان عليه الدخول في الموضوع فقال : « أراك يا صاحبي سيء الظن في هذا الرجل كثيراً» .

قال : « كلا أنا لا أسيء الظن به، لكنني لا أرى شيئاً يجمعني به غير

المصلحة، وأرى أسباب التفريق كثيرة؛ فنحن الآن لا ينبغي لنا أن نخون هذا الأمير أو نقصر في خدمته؛ لكنني أخاف على حياتنا بعده، أليس كذلك يا معلم؟ قل لا تخف، إني أسرُّ إليك أشياء كثيرة، ومع ذلك لا يهمني صرحت أم لم تصرح، فأنت صديق المعز لدين الله الفاطمي؛ وهذا الغلام رسوله إليك في شأن يمس الدولة؛ أصدقني لعلي أستطيع خدمتك».

فلم ير يعقوب بدا من الكلام وهو يثق بصديقه فقال: « لا تظن توقفي عن التصريح من ضعف ثقتي بك، فأنت تعلم ما بيننا من الأسرار القديمة والحديثة، ولكني مضطرب الرأي في الأمر، إن هذا الغلام رسول من المعز، نعم، ولكن كن على يقين أني لم أصاحب المعز لأخون كافور، فإني خادمه مقيم على ولائه ما دام حياً، وأما إذا مات فإني أخاف خلفاءه كبيرهم وصغيرهم، بل أخافهم على مصر وأهلها. إنهم لا يصلحون للحكومة لما تعلمه من انقسامهم واضطراب أحوالهم؛ فلا بد من خروج هذه البلاد من أيديهم، وإذا لم يكن بد من خروجها فمن تراه أولى بها؛ إن القوم في بغداد مشغولون بأنفسهم، إن بغداد مسقط رأسي وأحبها كثيرا لكنني أراها بعيدة عن مصلحة مصر؛ وهؤلاء الفاطميون دولة جديدة رشيدة كثيرا ما سمعت عن تعقل خلفائها وعدلهم، فإذا تولوها كان ذلك من أسباب سعادتها».

ثم تدارك ما قاله بلهفة قائلاً: « إما إذا اتفق الاخشيديون وولوا من يصلح للولاية ولم يؤذونا في أموالنا وأرواحنا فمن ضعف الرأي أن نستبدل بهم غيرهم؛ ألا توافقني على ذلك؟».

فأبرقت أسرَّة الطبيب شالوم من سماع ذلك الكلام لأنه لسان حاله، فابتسم وقال: « بارك الله فيك يا معلم لقد نطقت بلساني وعبَّرت عن جناني، نحن متفقان و، ».

فقطع كلامه قائلاً: « لم أشاهد الأمير كافور منذ أمس، لأني شغلت عن الذهاب إليه بسبب سأقصه عليك. كيف هو اليوم؟».

قال وهو يرفع حاجبيه: « إنه ليس على ما يرام؛ كانت الحمى شديدة عليه في هذا الصباح، وكنت أتوقع هبوطها فلم تهبط رغم ما اتخذته من الوسائل؛ ولما أعيتني الحيلة رجعت إلى كتاب الرازي وأخذت أطالع فيه؛ وخطر لي ما توقعته من تبدل الأحوال، فرأيت أن آتي إليك فحملت الكتاب معي؛ ولم أكلف غلامي حمله في جملة ما يحمله من الأدوات والعقاقير».

فلما ذكر الطبيب غلامه تنبه يعقوب لأمر لمياء، فالتفت نحوها فرآها تتمشى في الحديقة كأنها تتشاغل بمشاهدة الرياحين والمياه الجارية في الأقنية وبينها الحصى مرصوصة صفوفا، وهناك طوائف من الطيور الأهلية بألوانها الزاهية بين سارح وحبيس، ولم تكن لمياء ترى ما بين يديها كما يراه المتفرج لاشتغال خاطرها بسالم والطريقة المؤدية إلى مشاهدته.

ثم التفت يعقوب إلى الطبيب وقال له: « لقد أذكرتني أمراً أتوسل إليك في قضائه؛ أترى هذا الغلام».

قال: « نعم أراه، أليس هذا الرسول الذي تتكلم عنه؟».

قال: « بلى، وأحب أن أكلفك أمراً يتعلق به».

قال: « حباً وكرامة. ما هو؟».

فقال يعقوب: « أتعرف ذلك البربري الذي يتردد على مجلس الأمير؟».

قال: « أظنك تعني الرجل الغريب الأطوار ذا العينين البراقتين الغائرتين والأنف الأعقف والشاربين المسترسلين؟».

قال: « نعم أعنيه، وأعني شاباً يرافقه في أكثر الأوقات».

قال: « هو سالم ابنه أو إبن أخيه على ما أظن، نعم أعرفهما يترددان على الأمير كثيرا، وأنا أستغرب أمرهما ولا أعلم لهما محلاً سوى..».

فقطع كلامه يعقوب قائلاً: « أنا أعلم أنهما يحرِّضان أميرنا على فتح القيروان!».

فدهش الطبيب وقال: « أين نحن والقيروان؟! ألا يكفينا ما يشغلنا، وما الذي تريده مني؟».

قال: « إن هذا الغلام يطلب أن يحضر مجلس كافور، ويسمع ما يدور فيه خصوصاً عند وجود سالم وعمه، ولكيلا أخفي عليك شيئاً؛ أخبرك أن هذا الرسول ليس غلاماً وإنما هو فتاة بلباس الغلمان، فاحفظ ذلك سراً، لأن لها شأنا خاصاً مع سالم هذا. وقد بلغها عنه أقوال قالها لكافور لم تصدقها، فأحبت أن تسمعها بأذنيها؛ فالذي أراه أن تأخذها معك عوضاً عن غلامك الذي يحمل لك الأدوات والعقاقير، وتدخلها دار الأمير لتكون بمشهد ومسمع».

فاستغرب شالوم كونها فتاة وقال: « لا بد لهذه الفتاة من حديث هام، وقد تاقت نفسي لرؤيتها؛ أدعها لأعرفها».

فحول يعقوب بصره نحوها، فانتبهت لمياء، فأشار إليها فأسرعت، وقد توردت وجنتاها فظهرت الأنوثة فيها؛ ولكن القوة كانت بادية في وجهها وسائر حركاتها. فأعجب الطبيب بهيبتها وجمالها وبريق عينيها، فلما دخلت قال يعقوب: « هذا الطبيب شالوم طبيب مولانا الأمير كافور، وهو صديق حميم أثق به كثيرا، وقد أطلعته على مرامك، واتفقنا على أن تحضري مجلس كافور وتشاهدي كل ما تريدينه هناك». وضحك.

فأدركت من مخاطبته إياها بالتأنيث أن الطبيب مطلع على حقيقة أمرها، فبانت البغتة في عينيها وأطرقت، فابتدرها يعقوب قائلاً: « لا تخجلي يا بنية من اطلاع الطبيب على حقيقتك، فإنه على رأيي في كل شيء، وسيأتي إليك بثياب تتنكرين بها فلا يظن من يراك إلا أنك غلام الطبيب شالوم؛ وتمكثين هنا حتى يأتي هو فتذهبين معه أصيل اليوم؛ وأكون أنا قد سبقتكما إلى هناك، ولا بد لي من الذهاب حالا لأني أطلت الغياب عن المجلس، وإنما شغلني عنه القيام بأمرك، فامكثي هنا ريثما تأتي الثياب وتلبسينها؛ وسأوصي قيّمة المنزل بك خيراً وكل ما تطلبينه يُقضى».

فسكتت وقد شغل خاطرها بهذه المهمة؛ وما فيها من التجسس التي تأنف منه. ولكنها تحمَّلت ذلك بغية كشف حقيقة الرجل الذي خانها في

عواطفها.

ثم نهض الطبيب وودعهما وانصرف على أن يبعث بالثوب والأدوات والعقاقير، ثم ودعها يعقوب بعد أن لبس الثوب الذي يلقى به الأمير ومضى إليه.

وبعد قليل أتت أدوات الطبيب، فلبست لمياء ثوب غلامه كما كانت العادة يومئذ، وعلّقت جرابا من الديباج بعنقها وفيه أدوات الجراحة وبعض العقاقير الضرورية، فأصبح من يراها لا يشك في أنها غلام الطبيب شالوم، ثم مكثت في انتظاره.

-١٥-

في سرداق كافور

جاء الطبيب على بغلته إلى دار يعقوب في أصيل ذلك اليوم، وأومأ إلى لمياء أن تتبعه على بغلة ساقها إليها، فركبت وعلّقت الجراب في عنقها؛ ولم يمض كثير حتى أشرفا على البستان الاخشيدي وفيه السرادقات والأعلام؛ وقد وقف الحجّاب ببابه؛ والجند حول السرادقات بين ماش وواقف. ولم يدن الطبيب من باب البستان حتى تصدى له كبير الحجّاب وقال: «إن الأمير في انتظارك على أحر من الجمر».

فقال: «كيف حاله الآن؟».

فهز الحاجب كتفيه وقال: «يقولون إنه أحسن».

فترجل وأشار إلى لمياء أن تترجل وتتبعه ففعلت، ومشت وهي تراقب كل شيء، فرأت الوجوه متغيرة؛ والقوم هناك يجتمعون ويتفرقون زرافات كأنهم يتساءلون عما سيكون إذا مات كافور، فمرت بين السرادقات في طريق مستقيم يؤدي إلى سرادق كبير مبطن بالحرير الأحمر؛ وقد أرخيت الأستار المزركشة ونصب العلم في قمته. ووقف ببابه حاجبان بلباس خاص وفي يد كل منهما رمح قناته مكسوة بالديباج.

فلما دنا الطبيب من باب السرادق وسّع له الحاجبان، فدخل وأشار إلى لمياء أن تدخل معه، فلما دخلت كان أول شيء استلفت انتباهها سعة ذلك السرادق واحمرار باطنه، وقد فرشت ارضه بالبُسُط الجميلة، وأقيمت في جوانبه منائر من الفضة غرست فيها الشموع، ومواقف عليها المباخر يتصاعد البخور من بعضها، وقد علقت على أعمدته الاسلحة من السيوف والحراب والأقواس. وفي وسط السرادق دكّة فوقها قبة قائمة على أربعة أعمدة كالمظلة وقد استرسلت الستائر من جوانبها الثلاثة، وتُرك صدرها مكشوفاً ليظهر سرير الأمير للداخل من باب السرادق؛ والسرير مصنوع من الأبنوس المنزل بالعاج مكسو بالفرش الوثير وأصله من أسرة بني طولون.

وكان كافور مستلقياً على السرير، ولكن لمياء لم تره لأنه كان غارقاً في الفراش المصنوع من ريش النعام؛ ورأت إلى جانبي القبة جماعة واقفين باحترام واهتمام علمت أنهم خاصته وأحباؤه، غير الغلمان والأعوان. فأجالت نظرها فيهم لعلها تجد سالماً بينهم فلم تجده، وأدركت اهتمام القوم من وقوفهم على الأقدام مع وجود المقاعد والأرائك والوسائد لجلوسهم.

أما الطبيب فظل ماشياً نحو السرير، وقبل أن يدنو منه برز له من جانب القبة رجل عرفت لمياء أنه يعقوب بن كلس قد لبس ثوباً يليق بذلك الموقف، وتقدم يعقوب لملاقاة الطبيب بلهفة كأنه لم يره من قبل وقال له: « لقد أبطأت علينا يا طبيب».

فقال: « فارقت مولانا الأمير وأنا أرجو تقدمه إلى الصحة، فهل طرأ طارئ؟».

فقال يعقوب: « لا بأس عليه إنه اليوم أحسن من ذي قبل». قال ذلك بصوت عال ليسمعه كافور على عادتهم في طمأنة المريض وتخفيف جزعه، لكنه أشار إليه همساً أن الحال يدعو إلى القلق.

فتقدم شالوم حتى دنا من السرير، وأشار إلى غلامه أن يتبعه ليكون قريبا

منه إذا احتاج إلى عقار؛ فدنت لمياء من ذلك السرير المغشى بالأغطية المزركشة بالألوان الزاهية تكسوه كله إلا بقعة صغيرة عند الرأس شديدة السواد هي وجه كافور، قد أزيح عنه الغطاء، وكان سواده قبل ذلك يلمع؛ ولكن شدة الضعف أذهبت لمعانه إذ خالطه الاصفرار، وكان قد أغلق عينيه كأنه نائم وقد برز فكاه من الضعف، فافترقت شفتاه وبرزت أسنانه البيضاء من بينهما.

فلما أحس كافور باقتراب الطبيب منه، فتح عينيه وأجال بصره حتى وقع نظره على الطبيب، فبان الاهتمام في تينك العينين الحمراوين، وكأنه أراد أن يبتسم، فلم يزدد منظره إلا تكشيراً، فأسرع الطبيب إلى يده وجس نبضها وهو يظهر الرضا من حال النبض. والتفت إلى كافور وقال: «إن مولاي أحسن اليوم منه أمس بحمد الله». والتفت إلى أحد الغلمان الوقوف في خدمة كافور وقال: «أين قارورة الماء؟». يعني زجاجة البول.

فأتوه بزجاجة فيها السائل فتأمله وتفحصه، ثم عاد إلى السرير وهو يبتسم ويظهر الرضا وقال: «كيف ترى نفسك يا سيدي؟».

فقال: «إني أشعر بضعف ودوار».

قال: «هذا أمر بسيط، إليَّ يا غلام»؛ وأشار إلى لمياء.

فتقدمت وفتحت الجراب فأخرج منه قارورة صغيرة فتحها وأدناها من أنف كافور، فلما استنشقها أحس براحة وانتعاش، وبان ذلك في عينيه وجبينه، فتحرك في فراشه كأنه يريد الجلوس، فأعانه الطبيب على ذلك، وساعدهما يعقوب وأسنداه بوسادة من الوراء، فجلس وتناول مذبة كانت بجانبه ليطرد بها الذباب وهو كثير في تلك الساعة؛ ولم يشأ أن يتولى ذلك عنه أحد؛ فتقدم يعقوب وهو يبدي الاهتمام وقال: «إن الذباب كثير في هذه الساعة وسيدي الأمير منحرف المزاج، ألا تأذن لي أن آخذ المذبة عنك أو تأمر أن يقوم هذا الغلام باستعمالها». وأشار إلى لمياء؛ والتفت إلى الطبيب كأنه يستشيره.

فتقدم الطبيب وقال: « إن الأمير في حاجة إلى الراحة». ومد يده وتناول المذبة من يده ودفعها إلى لمياء، وأشار إليها أن تقف وراء السرير تطرد الذباب عن وجه كافور بدون أن تزعجه؛ وتكون قريبة منهم؛ وأدار كافور عينيه في جوانب السرادق كأنهما سراجان موقدان، ثم نظر إلى شالوم وقال: « بارك الله فيك أيها الطبيب إني أشعر براحة الآن».

فقال الطبيب: « وستشعر براحة أكثر بعد قليل». ومد يده إلى الجراب فأخرج منه قارورة فيها سائل صب منه قليلا في قدح، ودفع القدح إلى كافور فشربه، فازداد انتعاشا والتفت إلى يعقوب وقال: « إننا لا ننسى فضل طبيبنا هذا، بارك الله فيه إنه صديق محب».

فقال يعقوب: « كلنا عبيد مولانا نفديه بأرواحنا، فالحمد لله على سلامته، ولا أرانا الله مكروهاً فيه».

قال: « لله أنت يا يعقوب! إنك موضع ثقتنا، وسوف نكافئك على مودتك وصدق خدمتك».

فقال: « إنما نطلب أن يعافى الأمير وهذا خير مكافأة».

فقال الطبيب: « إن مولانا بحمد الله في عافية ولا يلبث أن يخرج على جواده في البساتين، أو يركب حراقته صعوداً في النيل».

فهز كافور رأسه وقال: « إن شاء الله.. إن شاء الله». وبدا الشك في صوته، وأشار إلى الوقوف بالخروج؛ ولم يبق إلا الطبيب ويعقوب ولمياء واقفة عند رأسه.

فلما خلا لهم المكان التفت كافور إلى يعقوب وقال: « إن الطبيب حفظه الله طمأنني وخفَّف عني، وقد صدَّقته لكنني ضعيف وأخاف..» واختنق صوته.

فابتدره الطبيب قائلاً: « لا ينبغي لمولانا أن يشك في قولي، أو يفكر في أمر لا يسره، إني لا أعول فيما أقوله على فعل العقاقير فقط، ولكني استبشرت أيضاً من دلالة النجوم، فقد تفقدت الطالع مساء أمس فوافق ما

أتوقعه؛ أنت في صحة والتوفيق خادم لك».

قال: « هذا ما أرجوه ولكن كيف اطمئن لحالي وأنا أرى ما أراه من الضعف؟». ثم وجه كلامه إلى يعقوب وقال: « بل كيف يرتاح خاطري وأنا أرى أحوال هذه الدولة؟ أنت تعلم يا يعقوب ما في قلبي؛ وأحب أن أشرك طبيبنا في الأمر لوثوقي به، وقد سلمت إليه روحي أفلا أبوح له بسرِّي؟ أنا لا أثق بأحد من هؤلاء الذين ترونهم حولي، إنهم لا يلبثون إذا لفظت نفسي الأخير أن ينقلبوا عليَّ، ولا أبالي هذا، ولكني أخاف على هذه الدولة، إذا مت، فإن الإمارة تفضي إلى غلام في الحادية عشرة من عمره وهو صاحب الحق فيها، أو يتنازعها أعمامه والقواد فتفسد الأمور و. .» وتنحنح وكأنه ندم على ما قاله فعاد وقال: « ولكن لا، إني سأعيش ريثما أدبر شؤونها، أليس كذلك أيها الطبيب؟».

فأسرع إلى الجواب وقال: « بلى يا سيدي هذا هو اعتقادي».

فتزحزح كافور في فراشه فنهض الطبيب وقال: « يحب مولاي أن ينام؟».

قال: « لا. لا. أرى بي ميلا إلى الرقاد لكني أحببت أن أغيِّر وضعي؛ هل رأيت وزيرنا أبا الفضل (ابن الفرات) اليوم يا يعقوب؟».

قال: « كلا يا سيدي لم أره. . هل تريد أن أبلغه أمراً؟ أم تحب أن ندعوه إليك إلى هنا؟».

قال: « لا لكنني استبطأته، ولعله لم يشأ أن يأتيني بما يشغل ذهني بأمور الدولة وآثر لي الراحة».

وهمَّ يعقوب بأن يجيبه فرأى الحاجب دخل ووقف في المكان الذي يقف فيه إذا كان آتياً بخبر فقال له كافور: « ما وراءك؟».

قال: « إن أبا حامد بالباب يا سيدي».

فلما سمعت لمياء اسمه اجفلت وتسارعت دقات قلبها حتى كاد ذلك يظهر عليها، ولحظ يعقوب اضطرابها فأومأ إليها أن تتجلد، فانزوت وراء

عمود القبة والمذبة بيدها بحيث لا يظهر وجهها ولا ينتبه لها أحد، وكان كافور يستأنس بالطبيب لما في كلامه من الذكاء وما يبسطه بين يديه من الآمال فقال له: « هل تدخل هذا الرجل علينا الآن، هل ترى بأساً من ذلك؟ إنه طلي الحديث حاد الذهن ولا يختار من الأحاديث إلا الطلي، وكلما زدناه اهتماماً بسماع حديثه زادنا مغالاة في غرائبه، إنه لطيف المعشر».

فقال الطبيب: « إنك يا مولاي في حاجة إلى من يؤانسك بالأحاديث الطلية المفرحة، فإذا كنت تجد في حديثه شيئاً من ذلك فادعه. . ».

ونظر كافور إلى يعقوب كأنه يستشيره فقال: « إذا شاء مولاي أن يدخله فليشترط عليه أن يقص علينا شيئاً كالذي قصه مرة من الأخبار المفرحة».

قال: « لكنه قصها علينا سرّاً».

فتصدى الطبيب للكلام قائلاً: « إذا كان وجودي مانعاً من سماع الأخبار المفرحة فإني منصرف» وتحفز للإنصراف.

فأشار إليه كافور بكلتا يديه أن يبقى وقال: « إذا استغنيت عن رجال الدولة جميعاً لا أستغني عنك؛ ولا أرى بعد ما رأيته من صدق مودتك وجميل صنيعك أن أخفي عليك سراً كهذا، فليدخل الرجل ويقص ما يقصه وأنت حاضر ولنفرح معاً إذا كان فيه ما يُفرح». وأشار إلى الغلام أن يُدخل أبا حامد.

فقال الغلام: « وهل يدخل وحده أم يدخل معه رفيقه؟».

قال: « ليدخل الإثنان».

فأدركت لمياء أن رفيقه هو سالم بعينه فأخذت تتجلد، وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب، وأخذ الفراشون ينيرون الشموع فأصبحت لمياء تخفيها ظلال الستائر بحيث لا ينتبه لها أحد؛ وهي ترى كل حركة وتسمع كل صوت، ولم تبق حاجة إلى المذبة بعد الغروب؛ وقد خفت وطأة الذباب، ونسي كافور وجودها عند رأسه فوقفت لا تتحرك. وبعد قليل دخل أبوحامد وقد تزيى بزي غير زيه المعهود، ودخل سالم في أثره وقد

تغير شكله وهندامه حتى كادت تنكره، لكنها ما لبثت أن سمعته يلقي التحية حتى تحققت أنه هو بعينه، فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وهي تتجلد وتتمالك لترى ما يكون. على أنها لم يكد يقع بصرها عليه حتى تذكرت تاريخ معرفتها به ،وكيف كانت تتفانى في حبه، وودت في تلك الساعة أن يخرج بريئاً من تلك التهم، واستعاذت بالله أن يكون كما قيل لها عنه، وندمت على مجيئها إلى ذلك المكان لتسمع أقواله بأذنها، وخافت إذا سمعت شيئاً يثير غضبها ألا تقوى على إمساك عواطفها فيفتضح أمرها لكنها استجمعت قواها وتجلدت.

***

أشار كافور إلى أبي حامد وسالم بالجلوس على كرسيين بين يديه، فجلسا متأدبين، وتصدى أبو حامد للكلام فقال: « كنا في قلق عظيم على صحة مولانا الأمير أعزه الله، ونرجو أن يكون قد عوفي». فتصدى الطبيب شالوم للجواب نيابة عن كافور تخفيفاً عنه وقال: « إن سيدي الأمير في عافية، وهو أحسن اليوم من ذي قبل ولا يلبث أن ينهض من الفراش».

فقال كلاهما معاً: « الحمد لله، الحمد لله على ذلك، إن اعتلال الأمير تعتل به الأمة كلها ولا سيما الآن وقد دنا الوقت الذي يظهر فيه نجمه ويتسع سلطانه».

فقال الطبيب: « إن مولانا الأمير في حاجة إلى التسلية بما يفرحه، وهو العلاج الذي يفيده حقيقة، فهل عندك شيء من هذا القبيل؟».

وهنا قال يعقوب: « لا أنسى حديثاً سمعته منكما في حضرة الأمير، ورأيت مولاي انبسطت نفسه منه».

فقال أبو حامد: « أظنك تعني حديث. . » والتفت نحو الطبيب ولسان حاله يقول: « إن هذا الحديث لا يُتلى جهاراً».

وكان كافور يسمع ويرى فلما رأى اشارة أبي حامد قال: « لا تحتشم من وجود طبيبنا إنه موضع ثقتنا».

فوقف الطبيب وأظهر أنه مستعد للخروج، فأشار إليه كافور أن يجلس فجلس، والتفت إلى يعقوب كأنه يستشيره فقال: « تفضل يا سيدي قل».

فاعتدل أبو حامد في مجلسه وقال: « لا يحلو تكرار حديثنا إن لم يكن مشغوفاً ببشائر النجاح؛ وقد جئنا الليلة نحمل بشارة يفرح لها كل مسلم يريد أن يستقر الحق في نصابه».

فقال يعقوب: « وما ذلك؟».

قال: « قصصت عليكم في المرة الماضية ما دبرناه في سبيل نصره الحق بانقاذ الدولة الإسلامية من أدعياء الخلافة في المغرب؛ أعني القوم الذين انتحلوا لأنفسهم نسباً كاذباً في القيروان؛ وزعموا أنهم من نسل فاطمة الزهراء، إن زعيمهم الذي سمى نفسه المعز لدين الله قد أصبح الآن في عالم الأموات. ولا بد من اضطراب دولته وقيام أمراء كتامة وصنهاجة عليه، وإنما نحتاج إلى جند يبعث بهم الأمير أعزه الله إلى أولئك الأمراء حتى يلتفوا حوله ويسلموا الأمر إليه. فيُدعى له على منبر القيروان كما يُدعى له الآن على مصر والشام والحجاز وحلب وانطاكية وطرسوس، فيستقيم له الأمر وحده لا يبقى لمنافسيه هنا مطمع في شيء لأن الباقين من آل الإخشيد غلماناً ونساء لا يستطيعون عملاً».

وكان كافور جالساً ينظر إلى أبي حامد وقد سرَّى عنه وبان السرور عليه، فلما سمع قوله ازداد سرورا وتنَّهد وقال: « إني لا ألبث أن أعمل بذلك حالما انهض من الفراش باذن الله». والتفت إلى الطبيب كأنه يستشيره في ذلك.

فقال الطبيب: « قريباً إن شاء الله». والتفت الطبيب إلى أبي حامد وقال: « يلوح لي أنك واثق من نجاح هذه المهمة؟».

فقال: « إني لا أقول غير الحق، وأنا منذ أعوام أعد المعدات وأهيء الأحزاب واجمع الأموال؛ إني على ثقة من انضمام قبائل البربر كلها لنصرة الأمير أبي المسك أعزه الله، وإنما كان ينقصنا أن نتخلص من رجلين هناك

خدمهما الحظ حينا، فغلب عليهما الغرور وقد ماتا الآن».

قال يعقوب: «من تعني؟».

قال: «أعني المعز وجوهر قائده، إنهما ماتا الآن ولا يمضي إلا بضعة أيام حتى تأتينا كتب الأمراء بذلك».

فأحب يعقوب أن يُسمع لمياء كلام سالم من نفسه، فوجه إليه الخطاب قائلاً« إن الفضل في هذا النجاح ليس للأمير أبي حامد فقط وإنما هو لك أيضاً، وإن حيلتك التي قصصتها في المرة الماضية غريبة في بابها». وضحك تحريضاً له على التصريح.

فقال سالم: «إن الفضل الأكبر لهذا الأمير، وهو صاحب الرأي الأعلى، وعنده الرجال والأموال، وأما أنا فعملي مقصور على اغراء فتاة جاهلة توهَّمت أني أحبها، فاتخذناها وسيلة لخدمة صاحب مصر أيده الله!».

ولا تسل عن لمياء وما أصابها عند سماع هذا الكلام، ورغم تجلدها أحست أنها مدفوعة لتكذيبه، وحدثتها نفسها أن تتقدم في تلك اللحظة وتكشف الحقيقة، وكان يعقوب يلاحظ حركاتها ويشير إليها خلسة أن تتجلد.

وفيما هم في ذلك رأوا كافوراً يتحرك في سريره حركة غير مألوفة، وقد تغيرت سحنته، فانتبه الطبيب ونهض إليه فرآه قد أصيب بنوبة سعال شديدة، فأومأ إلى القوم بالانصراف حالاً فنهض أبو حامد وسالم وخرجا، واشتغل الطبيب بمعالجة كافور، فأشار إلى لمياء أن تأتي بالجراب، فأسرعت وفتحت الجراب ويداها ترتعدان من التأثر، وقد احمرت عيناها من الكظم، فتناول الطبيب قارورة وقربها من أنف كافور وأعانه يعقوب على ذلك، وكافور لا يزداد إلا سعالا حتى كاد يغمى عليه.

وشغلت لمياء بهذا المنظر عما جال في خاطرها، وقضوا ساعة وهم يسعفون الأمير بالعلاج حتى سكن السعال، ومال إلى الرقاد.

ثم جس الطبيب نبضه وقال: « إنه مرتاح الآن فينبغي أن نتركه نائماً».

فقال يعقوب: « نذهب نحن إذن؟».

قال: « نعم. أما أنا فلا أتركه إذ أخشى أن تعاوده النوبة».

فقال يعقوب: « أنا ذاهب مع غلامك هذا وسأترك عندك أحد غلمان الأمير يقدم لك الجراب إذا مست الحاجة».

ففهم الطبيب مراده، فوافقه فدفعت لمياء الجراب إليه، وخرجت مع يعقوب وركبتاها ترتعدان من هول ما سمعته ورأته، وعيناها شائعتان خارج المعسكر تبحث عن أبي حامد وسالم فلم تر لهما أثرا.

ولحظ يعقوب قلقها، وأدرك ما يجول في خاطرها، فأشار إليها أن تتبعه، فوقفت وهي تكاد تسقط من شدة الاضطراب والغضب وقالت: لا أستطيع المشي يا سيدي.. بالله ماذا رأيت؟ ويل لك يا خائن!».

فالتفت يعقوب إليها فرأى وجهها وقد امتقع وتغيرت سحنتها، ومشت وهي تتساند وتخاف السقوط، فأشار إلى السائس أن يقدم لها الدابة فأسرع إلى تقديمها وأعانها حتى ركبت وركب هو دابة أخرى في أثرها، ولحظ في أثناء الطريق أن لمياء منزعجة، فأحس أنه مسؤول عن سبب انزعاجها لأنه هو الذي جمعها بذلك الخائن، وإذا أصابها سوء فمن شدة تأثرها مما سمعته ورأته.

وبعد قليل وصلا إلى منزل المعلم يعقوب، فترجل والتفت إلى لمياء فإذا هي لا تزال على بغلتها لا تتحرك ولم يعهد بها ذلك التواني، فتقدم نحوها ومد يده ليعينها على النزول؛ فلما مس يدها أحس بسخونتها وجفافها، فاقشعر بدنه فناداها أن تنزل فنزلت وهي لا تستطيع حراكا، فنادى بعض الخدم فأعانوه على حملها إلى دار النساء وهي غائبة عن رشدها كالمائتة.

فتأسف يعقوب لما أصابها، ونادى قهرمانة منزله وأشار إليها أن تسعف الفتاة ريثما يأتي الطبيب، وبعث رجلاً يدعو الطبيب شالوم إذ لا يريد أن

يطلع أحد غيره على وجودها عنده.

***

ظلت لمياء غائبة رغم ما استخدموه في ايقاظها من المنعشات والمنبهات، وأبطأ الطبيب في الحضور لاشتغاله بالأمير كافور، فاشتد القلق بيعقوب وأصبح لا يدري ماذا يعمل، فخطر له أن يبعث إلى الشريف مسلم لأنه ذو شأن في الأمر، فبعث إليه فجاء ولمياء لا تزال في تلك الحال، فسأله عن أمرها فقص عليه حقيقة خبرها، فجس نبضها فإذا هو يسرع كثيراً فعلم أنها مصابة بحمى شديدة؛ وأنَّ الأولى أن ينقلها إلى منزله ليخدمها أهله ريثما يأتي الطبيب، وكان قد استلطف الفتاة قبل أن يطلع على حقيقة أمرها مع الحسين بن جوهر وغيرتها على المعز وخبرها مع سالم، فلما اطلع على الحقيقة أحس بانعطاف شديد نحوها، وأمر بمحفة حملوها عليها إلى منزله وأخذ على عاتقه أن يعالجها طبيبه.

قضت لمياء في تلك الغيبوبة أياماً لا تأكل ولا تشرب غير ما يسقونها رغم ارادتها، ثم أفاقت وقد شحب لونها وبان الضعف في عينيها، ولما أفاقت التفتت إلى ما حولها وقد استغربت كل شيء، لكن الناظر في عينيها يرى أنها لا تزال تائهة رغم حركتها والتفاتها، وكان في الغرفة ساعتئذ الشريف مسلم نفسه وامرأة من أهله فتقدمت المرأة نحوها وقالت: « ماذا تريدين يا حبيبتي؟ ».

فلم تجبها لكنها عادت إلى استغراقها، وكانوا قد أعدوا لها لبناً تشربه فلم تستطع ذلك لأنها عادت إلى الرقاد، فأمر الطبيب أن تُسقى اللبن كرهاً، وكانت الحمى قد انخفضت ولم يطل مكث الغيبوبة هذه المرة. ففي صباح اليوم التالي سمعوها تئن أنيناً شديداً كأنها تشكو ضيقاً، فأسرع مسلم إليها فسمعها تقول بأعلى صوتها: « حسين! حسين! تباً لهم قبضوا عليك.. دعوه قبحكم الله.. أما كفاكم ما فعلتموه بأبي؟.. آه.. آه.. ». وسكتت ثم فتحت عينيها فجأة والتفتت إلى مسلم وهو واقف إلى جانبها، وتفرست فيه

وقد عاد إليها رشدها فعرفته فقالت: « العفو يا سيدي. أنت هنا. أين أنا؟ ماذا جرى لي؟ أين الحسين؟ قد قبضوا عليه؟.. ويل لهم..». وشرقت بدموعها.

ثم تراجعت كأنها انتبهت إلى نفسها وأدركت أن الحسين ليس هناك، فبان الخجل في وجهها، فتقدم الشريف نحوها بلطف وقال لها: « ما بالك يا بنية؟ إنك تهذين أو تحلمين، لا تخافي إنك في منزلي وأنت أعز من ولدي!».

فأخذت تفرك عينيها بكلتا يديها وهي تنظر حولها وقالت: « لست خائفة يا سيدي. لست خائفة. ولكن الحسين بن جوهر، رأيتهم أخرجوه مغلولا في فج الأخيار.. وأولئك اللصوص حوله كالزبانية.. رأيتهم رأي العين!».

فقال: « أنت يا لمياء في الفسطاط؛ وبيننا وبين فج الأخيار مسيرة أيام.. خففي عنك، وعودي إلى رشدك.. لا بأس عليك، وبعد هنيهة يأتي الطبيب ويشير بما يجب أن تفعلي».

قالت: « الطبيب! وأي طبيب؟ إني لا أشكو مرضاً ولكنني أشكو ظلماً وخيانة». قالت ذلك وغصّت بريقها، فأغرقت في البكاء حتى ملأ نحيبها الدار، فبعث الشريف يتعجل الطبيب، فأتى والفتاة مستغرقة في البكاء، فجس نبضها ثم أشار عليهم ألا يخاطبوها ولا يقصوا عليها خبرا بل يكتفوا بالغذاء اللطيف. ووصف لهم ما ينبغي عمله، وألح عليهم أن يتركوها هادئة ساكنة ما استطاعوا.

ظلت لمياء في الفراش أسابيع لا يخاطبها أحد إلا فيما لا بد منه، وهي تصحو تارة وتغيب أخرى، والطبيب يتردد عليها ويصف الأدوية والأغذية حسب الحاجة، ويعقوب يأتي كل يوم للسؤال عنها ويأسف أشد الأسف لما أصابها على يده - رغم اشتغاله في تلك الفترة بأمور ذات شأن أهمها موت كافور، وانتقال الامارة إلى أحمد بن علي بن الاخشيد وهو غلام لم يتجاوز

الحادية عشرة، وتحوَّل النفوذ إلى جعفر بن الفرات وزير كافور. ولم يكن ابن الفرات يستطيع عملا في حياة كافور، فلما صارت الامارة إلى ذلك الغلام، استبد هو بالأمر وأخذ في مطاردة رجال الدولة ومصادرة الأغنياء؛ وكان يعقوب من جملة المهددين، وخاف أن يصل الدور إليه فاستتر، وكان يقضي أكثر أوقاته عند الشريف مسلم بن عبيد الله بحجة السؤال عن لمياء، ويتحادثان في شؤون الدولة ويرون قرب سقوطها، لكنهما لا يتحدثان في شيء من ذلك أمام لمياء عملاً بإشارة الطبيب.

وبعد مدة تقدمت لمياء نحو الصحة وأصبحت في شوق إلى استطلاع الأحوال والطبيب يشير بالتزام الصمت، وبعد مدة أخرى أذن لهم أن يخاطبوها في الشؤون التي تريدها، وكانت لا تزال تتردد إلى الفراش وتنزل إلى الحديقة أو تمشي في الدار، ورأت وجهها في المرآة فانزعجت مما صارت إليه من الضعف فبكت، وعاد إليها رشدها فتذكرت ما انتابها في تلك المدينة، وكيف خلفت أهل القيروان على مثل الجمر في انتظار أخبارها من مصر، وتذكرت أنها رأت الحسين خطيبها مغلولاً، أو رأتهم يوثقونه ويضربونه كأنها رأت ذلك في يقظة.

كانت هذه الخواطر تمر بذهنها في أواخر أيام النقاهة ولا تجسر على التصريح لأحد بها، فلما أذن لها الطبيب في الكلام طلبت يعقوب وسألته عما جرى في أثناء مرضها، فقص عليها ما كان من موت كافور وتنصيب أحمد بن علي.

فقالت: «ألم تبعثوا بذلك إلى القيروان؟».

فابتسم ونظر إلى مسلم فابتسم أيضاً وفي وجهيهما علامات البشر فقالت: «ما الخبر؟».

قال يعقوب: «الخبر خير يا لمياء، إن أهل القيروان علموا بكل ما جرى هنا وقد جاءوا إلينا بخيلهم ورجلهم».

فصاحت: «اتوا إلى هنا؟ القائد جوهر أتى؟ المعز أتى؟ أين هم؟»

فقال: « المعز لم يأت ولكن القائد جوهر جاء بجند كثيف ونزل الإسكندرية، ووقع الرعب في قلوب المصريين، ولا ندري ما يكون».

فأبرقت لمياء وقد بان البشر في محياها، وأحست بنشاطها الأول كأنها كانت في رقاد وأفاقت، وتذكرت مهمتها التي جاءت من أجلها وأنها لم تستطع عملاً تخدم به المعز لأن المرض أعاقها، ثم تذكرت ما رأته من سالم فاقشعر بدنها فقالت: « وماذا جرى لذلك الخائن وعمه؟».

قال: « لا أدري لأني لم أرهما من يوم الجلسة، وأظنهما يشتغلان في دس الدسائس في قصر السيدة زينب بنت الإخشيد بعد موت كافور وضياع أملهما!».

فلما سمعت إسم بنت الإخشيد تذكرت أشياء أخرى أهاجت أشجانها، فأطرقت ومسلم ويعقوب يلاحظانها ولا يتكلمان. ثم انتبهت فجأة وقالت: « ماذا جرى لأمتعتي وجوادي؟».

قال يعقوب: « أي أمتعة تعنين؟».

قالت: « أعني ما حملته معي من الثياب والأمتعة من القيروان وتركته في الفندق مع الجواد والخادم والدليل».

قال يعقوب: « أي فندق؟ إن الفنادق كثيرة هنا..».

فقالت: « في الفندق الذي هداني صاحبه إلى منزلك».

قال: « لم أنتبه له».

قالت: « لقد آن لي أن أخرج من البيت ولا خوف عليَّ، أخرج بالثوب الذي يعرفني صاحب الفندق به فألاقية وأدفع له أجرته وآتي بالأمتعة.. والحق يقال إني أحس بقصوري في خدمة أمير المؤمنين، وقد شغلت عن خدمته بخدمة نفسي ثم شغلني المرض».

قالت ذلك ووقفت وقد عاد إليها نشاطها والتفتت إلى مسلم وعيناها تنطقان بالشكر على ما أبداه من الغيرة، فأجابها على الفور: « إنك ستعودين إلينا وتنزلين في دارنا، بل الأفضل أن تمكثي هنا فنرسل من يأتي إليك

بالأمتعة والجواد».

قالت: « أفضل الذهاب بنفسي وسأعود الليلة أو صباح الغد إن شاء الله».

فقال مسلم: « بل تأتين الليلة».

فأشارت مطيعة، واختلت في غرفة لبست فيها ثوب الصقالبة الذي دخلت به الفسطاط، واستأذنت في الانصراف وخرجت، وتذكرت الطريق التي جاءت بها، وتوهمت أنها مرت منذ بضعة أيام لا منذ بضعة أشهر؛ فلما وصلت إلى الفندق استقبلها صاحبه بالترحاب وأبدى الاستغراب لما رآها من النحول وسألها عن سبب غيابها، وذكر أنه شغل عليها كثيرا حتى خاف أن تكون قد ماتت، قال ذلك بين الجد والهزل.

فاستلطفت مجونه وقالت: « الحمد لله إني لا أزال حياً (لأنه يعرفها غلاماً صقلبياً) وماذا كنت تفعل بالجواد لو كنت مت؟».

قال: « أي جواد يا سيدي؟».

قالت: « الجواد الذي جئت عليه».

قال: « إن الجواد أخذه رفيقاك ومضيا» يعني الدليل والخادم.

قالت: « وكيف أذنت لهما في ذلك؟».

قال: « لما استبطأ قدومك استأذنا في الانصراف». وضحك لهذا التعبير.

فقالت: « وماذا فعلتم بثيابي وأمتعتي؟».

قال: « هي باقية في الغرفة التي كنت نازلاً فيها في صندوق مقفل، وقد جاء بعض المسافرين واستأجروا الغرفة مني فأبقيت الصندوق في بعض جوانبها على ما أظن».

قالت: « أعطني الأمتعة أين هي؟».

قال: « هي هنا ادخل يا سيدي» ومشى إلى الغرفة التي باتت فيها ليلة وصولها إلى الفسطاط، وهو يتثاقل في مشيته وهي تتبعه. فلما دنا من الغرفة

عالج بابها فوجده مغلقاً فقال: « لا أدري لماذا يغلقون الغرف كأنهم يخافون أن أسرق ثيابهم؟ ».

قالت: « ألا تستطيع أن تأتيني بالأمتعة الآن؟ ».

قال: « كلا . . أخاف أن أفتح الباب في غيابهم فيتهمونني بالسرقة. ليس كل الزبائن كرماء الأخلاق والوجوه مثلك يا سيدي، وهم لا يلبثون أن يأتوا؛ فهيا ننتظر في غرفتي، لأنك تبدو تعباً على أثر المرض ».

فمشت في أثره إلى غرفة بجانب تلك، وفتح الباب وأشار إليها أن تدخل وقال: « إن هذه الغرفة لي وحدي أضعها تحت أمرك ».

وكانت قد تعبت من المشي لأول مرة بعد المرض، فدخلت واستلقت على مقعد هناك، وأغلقت الباب خوفاً من إنكشاف أمرها، واستلذت الخلوة فأخذت تفكر فيما أصابها بالفسطاط، وطرق ذهنها الحلم الذي رأته في مرضها إذ رأت الحسين مغلولاً وفي ضيق شديد، وعبثاً حاولت أن تبعده عن ذهنها.

وتذكرت تلك الجلسة في بيت كافور وما تحققته من خيانة سالم فاقشعر بدنها، ولم تكد تتصوره حتى سمعت صوتاً مثل صوته يرن في أذنها؛ فذعرت وأصغت فإذا هي تسمع صوته فعلاً، فجلست وأصاخت بسمعها وهي تحسب ذلك حلماً آخر؛ فإذا هي تسمع وقع أقدام بباب الغرفة فنهضت وتهيأت للوثوب، واستعدت للمقاومة فإذا بالخطى تتجه نحو الغرفة الأخرى التي كانت لها، وسمعت صوتاً مثل صوت أبي حامد، فتسارعت دقات قلبها وأسرعت إلى باب غرفتها فأوصدته وجعلت تشعر أنها نائمة، ووجهت انتباهها لتتحقق هل هي في يقظة، فسمعت أبا حامد يقول: « أوصد الباب يا بني وتعال ».

وسمعته يوصده ثم سمعت قائلاً يقول: « أوصدته. هات ما عندك؟ ». وهو صوت سالم. فتأكدت أنهما نازلان في تلك الغرفة ففرحت للفرصة السانحة، لكن تأثرها كاد يذهب بنفسها لسرعة دقات قلبها؛ فتجلدت

وتذكرت ما كان في بسالتها ورباطة جأشها ومواقفها في ساحة القتال، فتماسكت وأصغت، فسمعت أبا حامد يقول: « ذهب الأسود ولم ننل منه وطرا؛ وهذا من سوء حظه».

فقال سالم: « وسوء حظنا أيضاً يا عماه».

قال: « ما أضعف عزمك يا سالم! أتحسب قدوم ذلك المملوك الصقلي (جوهر) يغيِّر عزمي؟ إنه لا يلبث أن يعود على أعقابه!».

قال: « كيف يعود؟ وقد أتى بجيش جرار، وقد رأيت القوم هنا خائفين منه».

ففهقه أبو حامد، فتصورت لمياء ما يرافق قهقهته من التكشير عن سنَّيْه البارزتين ثم سمعته يقول: « لا يلبث خوفهم أن يذهب متى وصل ذلك الغلام مغلولا».

قال: « وأي غلام؟».

قال: « أي غلام؟! . . ألم تعلم بعد بالقبض على الحسين؟».

فلما سمعت لمياء ذكر الحسين اختلج قلبها واضطربت، ثم سمعت سالماً يقول: « أقبضوا على الحسين؟. لم أعلم بذلك بعد. أين قبضوا عليه؟».

قال: « في فج الأخيار، لأن لمياء اللعينة أفشت السر، وأخبرت المعز عن المال هناك، فتطوع هو بالذهاب ليأتي به اليهم. وجاءني بالأمس أن رجالنا هناك قبضوا عليه وأوثقوه، وسألوني ماذا يفعلون به، فأجبتهم بأن يحملوه إلى هنا. فإذا جاء حبسناه وجعلناه رهناً، ما قولك؟».

فقال: « لم أكن أعلم ذلك، بارك الله فيك، كيف لم تخبرني به حتى الآن؟»

قال: « لأني لا أثق بأحد، ولو لم أر خوفك لما أخبرتك، ولكنني لا أعلم أين ذهبت تلك الفتاة المفتونة، فقد نقل إليَّ الجواسيس أنها خرجت من القيروان وأخفت جهة مسيرها».

قال: « ماظنك بها؟ ».

قال: « أظنها أتت إلى هنا لأن يعقوب اليهودي هو الذي أنبأ المعز بعزمنا على قتله فنجا؛ ويغلب ظني أن لمياء أتت إلى الفسطاط، لكنني لم أستطع البحث عنها في حياة كافور لأنه كان يقرب ذلك اليهودي ويصغي إليه؛ أما الآن وقد مات كافور؛ فإني أوغرت صدر إبن الفرات عليه فأصبح يطارده، ولا يلبث أن يصادر أمواله، وهو يسعى الآن في اقناع القواد بأن يستسلموا لجوهر. ولكنه لن يفلح لأنهم مختلفون لا رابطة لهم، وكل منهم يطمع في المال لنفسه، وهم طوائف أهمها الإخشيدية والكافورية والأتراك، وليس عليهم أمير حازم يجمع كلمتهم؛ وفي عزمي أن أجمع شتاتهم بواسطة السيدة زينب بنت الإخشيد لنفوذ كلمتها عندهم، لكنها امرأة لا نعلم كيف تعمل فضلاً عن اشتغالها بأمر نفسها، لا تخف يا بنيَّ. . كن على ثقة من تدبيري».

وكانت لمياء تسمع كلامه وفرائصها ترتعد فإذا بسالم يقول: « وقد أدهشتني يا عماه بهذا التدبير. بارك الله فيك».

فقال: « كيف لا وقد قضيت عمري في دس الدسائس عملا بوصية ذلك المقتول ظلماً؟ ولكن أين ذهبت تلك الملعونه لا أدري؟ ».

قال سالم: « ما لنا ولها فلتكن حيثما تكون».

ثم استولى السكوت كأن الرجلين ناما، وأخذت تفكر فيما سمعته، فرأت أنها عرفت أشياء كثيرة لم تكن تعرفها ولا سيما عن الحسين والقبض عليه، وأن المصريين يسعون في صلح جوهر والتسليم له، وأن الأمر رهن برأي بنت الإخشيد، وقد صدقت أنهم قبضوا على الحسين لأنها رأت ذلك رأي العين في أثناء الغيبوبة؛ فلم تعد تستطيع البقاء هناك واحتالت في الخروج فلقيها صاحب الفندق فسألته عن الثياب فقال: « هل أتى الأضياف؟» قالت: « أظنهم أتوا لأني سمعت حركة»، فقال« قبحهم الله يدخلون كاللصوص»، وأسرع وعاد إليها بالثياب، فتناولتها ودفعت إليه

أجره، وانطلقت تطلب بيت الشريف مسلم بن عبيد الله، وكان الليل قد أسدل نقابه؛ فأسرعت حتى وصلت فرأت الخيول متزاحمة في الباحة والناس وقوف بالباب، فاستأذنت في الدخول فأذن لها، وسألت عن الشريف فقيل لها إنه في خلوة مع جعفر بن الفرات، فجلست والاضطراب باد عليها وأصبحت في شوق لمعرفة ما يدور بين الرجلين، ثم رأت جماعة في لباس المصريين الوطنيين من التجار والزراع تجمعوا وهم يتذمرون ويتأهبون، وسمعت أحدهم يقول: « ما لنا وللحروب لقد خربت البلاد، واختنق الناس من القحط والغلاء حتى فرغ ما بأيدينا؛ وهذا الجند يمعن في اقتضاء الضرائب منا، وهم منعمون لا يهمهم إلا أخذ الأموال؛ إنهم معذورون إذا خافوا على سيادتهم وأحبوا قتال المغاربة».

فأجابه آخر: « ما لنا ولهم؟ خير لنا أن نصالح؛ وهذا الوزير قد وافقنا على طلب الصلح؛ إن هذه الدولة الجديدة رشيدة وقد سمعت الثناء على خليفتها وزهده في الأموال ورغبته في راحة رعيته».

فتقدم ثالث وقال: « وبلغني أن هذا الجند قادم إلينا وقد حمل الذهب على الجمال كالأرحية. أين ذلك من مصادرة جندنا وحكومتنا لأموالنا؟».

ثم سمعت رجلاً يضحك متماجنا ويقول: « كيف تدَّعون الفقر يا قوم؛ أليست الأموال مخزونة في بيت الإخشيدية والكافورية؟ هذه بنت الإخشيد قد فرشت منزلها بما لم تبلغه زبيدة زوج الرشيد، وعندها الجواري بالمئات.. وتقولون إننا فقراء؟ فضحك الجميع من مجونه، ثم شغلوا بحركة وضوضاء ظهرت هناك، فالتفتت لمياء فرأت ابن الفرات خارجاً وقد خرج الشريف مسلم لوداعه وابن الفرات يبالغ في الثناء عليه؛ ولما ودَّعه قال: « أتعدني يا سيدي بالذهاب غداً إلى الإسكندرية؟».

قال: « لينعم بالك، سأبذل جهدي في اقناع القائد بقبول الصلح».

ففهمت أن ابن الفرات يسعى في الصلح، وتذكرت ما سمعته من أبي حامد في هذا الشأن، وأرادت أن تكلم الشريف فرأته تحول إلى غرفته كأنه

في شاغل عن المقابلات، فأجَّلت المقابلة إلى فرصة أخرى، وذهبت إلى دار الحريم واستلقت على الفراش، وأخذت تفكر فيما سمعته فغلب عليها النعاس فنامت.

***

أفاقت في الصباح على ضوضاء القوم في الدار، فنهضت وسألت عن الشريف فقيل لها: إنه بكَّر إلى الإسكندرية مع وفد من أعيان المصريين ومعه كتاب الوزير ابن الفرات في طلب الصلح.

أما هي فما زالت في قلق لما علمته من مساعي أبي حامد، وأسفت لأنها لم تستطع مقابلة مسلم قبل ذهابه؛ وفيما هي في ذلك رأت يعقوب داخلاً فأحست براحة وأسرعت إليه؛ فلما رآها هشَّ لها وتقدم نحوها فأومأت إليه أن يجلس وقصت عليه ماسمعته بالأمس؛ فاستغرب قولها وأدهشه عزم أبي حامد وما دبره فقالت: «لا حاجة بي إلى أن أخبرك عمَّا يهمني مما قصصت عليك».

قال: «أما الحسين فإذا صح ما قالوه عنه وإنه آت إلى هنا فهو في مأمن، ولا شك إن ذلك الغادر مغرور». ثم أطرق وهو يحك عثنونه وقال: «ولكن..» وسكت.

فقالت: «ولكن ماذا؟ هل أستطيع أن أعمل عملاً؛ إني أشعر بتقصيري في مهمتي لأني شغلت بنفسي عن خدمة مولاي المعز، ما بالك؟ قل».

قال: «فهمت من حديثك أن ذلك الملعون يهدد سعينا في الصلح بدسائسه عند بنت الإخشيد، ولا سبيل لي إلى هناك وأنا رجل، فلا أستطيع التنكر».

فأدركت أنه يشير إلى استطاعتها ذلك لأنها فتاة فأطرقت ثم قالت: «وهل أقدر أنا على ذلك؟».

قال: «طبعاً ولكن..».

قالت: «قد أدركت الآن مركز بنت الإخشيد في هذه الدولة، ويظهر أن

الكل يثقون بها رغم ما بلغنا عن انغماسها في اللهو، فما الذي تراني أستطيع القيام به؟».

قال: « أرى أن تدخلي دار بنت الإخشيد وتتسلطي على عقلها حتى تصير أطوع لك من بنانك».

فرأت أنه يحبب إليها التجسس وهي أكبر نفساً من ذلك؛ فتوقفت عن الجواب لحظة وهي تنظر في مرآة معلقة في الحائط أعجبها شكلها وهي صنع مصر، ولم تكن رأت مثلها من قبل، كانت تنظر إلى المرآة وهي تفكر في أمر تنكرها، فابتدرها يعقوب قائلاً: « لا ترددي يا بنية، إذا كنت تحبين المعز وتريدين الفوز لجوهر، فالأمر في يدك ولا يستطيعه سواك».

فلما سمعت قوله تحمست وهان عليها كل صعب فقالت: « روحي فداء أمير المؤمنين، فما العمل؟».

قال: « تعلمين شغف بنت الإخشيد باقتناء الجواري الحسان؟ . . ».

فقالت: « نعم أعلم ذلك».

قال: « أرى أن تتنكري بثوب جارية مغربية وأن أجعلك هدية لبنت الإخشيد، ولا ريب عندي أنها لا تلبث أن تستسلم لرأيك عند التعرف إليك والأمر بعد ذلك إلى فطنتك».

فنهضت وقالت: « هأنذا على أهبة الذهاب، من يأخذني؟ وكيف أصنع؟».

قال: «تمهلي . . سأعود بعد قليل، وإنما أتقدم إليك أن تلبسي ثوباً مثل أثواب الجواري». قال ذلك وخرج.

فأصلحت شعرها وغيرت هندامها حتى لا يشك من يراها في أنها جارية، وقد زادها الضعف جمالاً وهيبة، ثم عاد يعقوب ومعه رجل عرفت أنه تاجر الرقيق الذي قبضوا عليه في القيروان، ووقف بين يدي المعز، واعترف أنه جاء ليبتاع جواري لبنت الإخشيد فتجاهلته، ثم تقدم يعقوب: «هذه هي الجارية يا سيدي، كيف تراها؟».

قال: « لا بأس بها».

فضحك يعقوب وقال: « لا تقل لا بأس بها بل قل إنها جميلة؛ وأظنها تعجب مولاتنا كثيرا نظرا لما فطرت عليه من الذكاء والأدب فضلاً عن الجمال».

فقال الرجل: « ما اسمها وكم ثمنها؟».

قال: « اسمها سلامة، وأما الثمن فإني لا أتاجر بالرقيق كما قلت لك، وإنما أردت أن أقوم بخدمة لمولاتنا، خذها إليها ويكفيني أن تقبلها هدية مني؛ وهذه الفتاة عزيزة عليَّ لأني أعرف منشأها، فلا ينبغي أن تعامل مثل سائر الجواري؛ قل هذا للسيدة بنت الإخشيد إذا شئت».

قال: « سأفعل». وأشار إلى لمياء فتبعته وهي تتجلد.

-١٦-

بنت الإخشيد

كانت بنت الإخشيد تقيم بقصر قرب دار عبد العزيز أكبر دور الفسطاط، وقد تقدم ذكرها، وذكرنا ما فيها من الغرف وعدد من فيها من الناس، وهي واقعة على ضفة النيل الشرقية يقابلها في الغرب جزيرة الروضة. وقصر بنت الإخشيد فخم يطل على النيل وقد فرش بأثمن الرياش؛ والدولة الإخشيدية يومئذ في إبان بذخها، تقلد العباسيين باقتناء ما في دورهم من الرياش الفاخرة، والأثاث الثمين من الأبسطة المطرزة والأستار المزركشة المشدودة إلى الجدران بمسامير من الفضة، ومن الأسرة المصنوعة من الذهب أو الأبنوس المنزل بالعاج؛ ونصبوا منائر الفضة عليها والشموع العنبرية إذا أوقدت فاحت رائحتها حتى تملأ الفضاء.

فلا غرو إذا دهشت لمياء عند دخولها ذلك القصر بعد أن رأت بساطة دار المعز في القيروان؛ وكانت تحسب دار أبيها في سجلماسة قبل زوال دولته قد بلغت أرفع أحوال الحضارة، فإذا هي لا تعد شيئاً إذا قيست بدور

الإخشيديين، خصوصاً هذه الدار؛ فإن بنت الإخشيد كانت لفرط اعجابها بنفسها تقلد نساء الخلفاء العباسيين في البذخ ولا سيما زبيدة زوج الرشيد، فقلدتها باصطناع قبة من الفضة والأبنوس والصندل، كلاليبها من الذهب ملبسة بالوشي والسَّمُّور والديباج الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق. رغم ما كانت عليه البلاد من الضيق.

تلك كانت سياسة الحكومة في تلك الأيام، ولا سيما في أواخر الدولة فما كان الحاكم يسأل إلا عن جمع المال لنفسه، والتلذذ بالشهوات، وقد يبلغ من استمتاعه أن يموت من التخمة والناس من حوله يموتون من الجوع.

وكانت بنت الإخشيد في حدود الكهولة تظهر لأول وهلة أنها قوية الخلق؛ وهي في الواقع ضعيفة الرأي لكنها جسورة لا تبالي ما تفعل ولا تقدر العواقب، فكانت مثالاً لطبقة المترفين من أهل ذلك العصر لا يفوتها ضرب من ضروب الملذات، ولكنها وجيهة نافذة الكلمة؛ ليس في رجال الدولة من لا يخشى بأسها؛ ولا سيما بعد موت كافور؛ وصارت الأمور إلى أحمد بن علي حفيد أخيها وهو غلام؛ فأصبح طوع ارادتها هو وكل رجال دولته إلا جعفر بن الفرات إذ أحب أن يستأثر بالنفوذ فأغضبها وأغضبته، فمال إلى الأهلين الراغبين في التسليم لجوهر قائد جند المعز، وأما سائر الأجناد فكانوا يلتمسون رضاها ولا يبرمون أمراً إلا برأيها.

وكانت جميلة الخلقة لا تزال الملامح التركية ظاهرة في محياها، لأن أباها فرغاني؛ ولم تتزوج رغبة في استبقاء عصمتها في يدها؛ فانصرفت قواها إلى الاستمتاع بالحياة والتماس النفوذ والشهرة، فجعلت قصرها مباءة لرجال الدولة؛ وكانت في هذه الفترة مشغولة الخاطر لما بلغها من عزم المصريين على التسليم ومعهم ابن الفرات، لكنها لم تكن تتوقع حدوث ذلك فعلاً إذ لم تكن على بينة من حقيقة حال الأهالي؛ ولا مقدار ما بلغوا إليه من الضنك، ولم يخطر لها أنهم يتجرأون على مخابرة الأعداء، وكان

ينبغي ألا يفوتها ذلك، ولكن حكام ذلك العصر لم يكونوا يحسبون للأمة حسابا إذ كان كل همهم منصرفاً إلى احتلابها وابتزاز أموالها.

وأصبحت بنت الإخشيد ذلك اليوم وهي تتوقع أن يأتي رجال الدولة يشكون إليها ما فعله إبن الفرات؛ وقبل نهوضها من الفراش أتتها المواشط والولائد يخدمنها فيما تحتاج إليه من الغسل أو اللبس أو تسريح الشعر وتصفيفه؛ وقضين في ذلك ساعة يتسابقن إلى استرضائها بالاطراء أو المجون، وفيما هي في ذلك أتتها جارية تقول: « إن صاحب الرقيق يستأذن على مولاتي».

قالت: « دعيه ينتظر في البهو الكبير حتى أخرج؛ وهل هو وحده؟».

قالت: « معه فتاة لعلها جارية».

قالت: « جارية سوداء؟».

قالت: « كلا بل جارية بيضاء جميلة لم أشاهد مثلها قبل الآن».

فاهتمت بنت الإخشيد بالخبر، وأمرت الماشطة بأن تسرع في إلباسها.

أما لمياء فكانت قد أقبلت مع النَّخَّاس على قصر بنت الإخشيد؛ وهو يمتاز بفخامة بنائه وبوقوف الحجاب ببابه- فدخلت في حديقة طرقها مرصوفة بالحصى الملونة على أشكال الطير والوحوش، فتقدمها النخاس وهي تتبعه حتى دخل باب القصر إلى ردهة واسعة فرشت بالسجاد، وبعض السجاجيد عليها وشي جميل بأشكال الزهور أو بعض الحيوانات أو أبيات من الشعر، فاستقبلتها القهرمانة قيّمة القصر وعليها الأساور والدمالج وحول عنقها العقود، فقالت لمياء في نفسها: « إذا كانت القيّمة هكذا فكيف تكون السيدة؟». فدعتها القهرمانة إلى بهو الاستقبال، فدخلا ولمياء تزداد شوقا لمشاهدة بنت الإخشيد، وذهبت القيّمة لابلاغ الخبر.

وبعد قليل أقبلت السيدة تجر ذيل ردائها الوردي، وعلى رأسها عصابة مرصَّعة قلَّدت بها العالية أخت الرشيد، وصففت شعرها تصفيفا خاصاً لا يجسر أحد من الفسطاط على تقليده، وشبكته بإكليل من الذهب بشكل

طائر، وتمنطقت بمنطقة مزركشة لها عروة مرصعة على شكل الكروييم - قلدوا به بعض ما على الآثار المصرية من الرسوم. وشعرت لمياء بقدومها من حركة الخدم في الدهليز ومما تضوَّع من الطيب، فوقفت ووقف النَّخَّاس وتقدم حتى أكبَّ على يد الأميرة كأنه يقبلها، وفعلت لمياء مثل ما فعله؛ فظهر التكلف في حركاتها لأنها لم تتعود مثل ذلك.

فحالما رأتها بنت الإخشيد وقعت في نفسها موقعاً جميلاً، وأعجبها ما في عينيها من المعاني التي زادها الضعف سحراً، فتقدمت إلى لمياء، ووضعت يدها على كتفها كأنها تحاول أن تضمها، فاستأنست لمياء بها ووقفت مطرقة، فأشارت إليها أن تجلس، وجلست على مقعد من الإبنوس فرشه مكسو بالحرير وقالت للنخاس: «من أين لك هذه الفتاة؟».

قال: «هذه هدية من عبدك يعقوب بن كلس، رآها لا تليق بأحد سواك نظراً لما هي عليه من الأدب والذكاء، وقد كلَّفني أن أنوب عنه في تقديمها».

فلما سمعت إسم يعقوب مر على ملامحها شيء من الإنقباض لكنها أظهرت الشكر وقالت: «إنها هدية نفيسة لا أظن يعقوب أهدى مثلها في حياته؛ وربما يرمي إلى التماس خدمة منا بعد أن أغضب الوزير، إن اليهود أمرهم عجيب.. قد قبلنا هذه الهدية مع الشكر بارك الله فيك».

قالت ذلك ومدت يدها فأخرجت خاتماً من إحدى أصابعها ودفعته إليه فتناوله وقبَّله ومضى، وظلت لمياء صامتة وقد أدهشها ما رأته من التباين العظيم بين حال الأمة المصرية وحال حكامها، وقابلت بين بنت الإخشيد بمصر، وأم الأمراء في القيروان، ورجح لديها قرب سقوط هذه الدولة؛ وفيما هي في ذلك أتى الحاجب فوقف قرب الباب، فعلمت بنت الإخشيد أنه يريد مخاطبتها في أمر، فأومأت إليه فتقدم فقالت: «ما وراءك».

قال: «إن بعض القواد الإخشيدية يلتمسون المقابلة».

فأظهرت استنكافها وقالت: «دعهم ينتظروا»، ونهضت وأشارت إلى

لمياء أن تتبعها وسألتها: « ما اسمك؟ ».

فبُغتت وأوشكت أن تقول اسمها الحقيقي فبلعت ريقها وقالت: «سلامة يا سيدتي».

فقالت: « إسمك جميل». وصفّقت ونادت القهرمانة فأتت فقالت لها: « كيف ترين هذه الفتاة المغربية؟ ».

فنظرت إليها وهي تبتسم وقالت: « ما شاء الله! إنها جديرة بأن تكون في قصرك».

قالت: « فإليك هي، افردي لها غرفة خاصة لترتاح الآن».

فأشارت مطيعة وانصرفت ولمياء تتبعها حتى ادخلتها غرفة بها نافذة تطل على النيل، فاستأنست بمجرى الماء، لكنها لم تأت إلى ذلك القصر وتركب ذلك المركب الخشن لتتمتع بالمناظر الطبيعية؛ فأخذت تفكر فيما ينبغي أن تفعل، وتذكرت أن الحاجب أنبأ بنت الإخشيد وهي في حضرتها عن قدوم بعض القواد لمقابلتها وهي فرصة لا ينبغي أن تفوتها، والوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل، فأخذت تفكر في حيلة تستنبطها لحضور تلك المقابلة لعلها تستطلع شيئاً.

وفيما هي في ذلك جاءت القهرمانة تتهادى في مشيتها وتشمخ بأنفها عجبا؛ فلما دنت من لمياء وقفت هذه تأدبا فقالت القهرمانة: « يظهر أنك وقعت من نفس مولاتنا موقعاً جميلاً لم توفق إليه غادة قبلك! ».

قالت ذلك وضحكت، فبانت أسنانها متفرقة لأن الزعل ذهب بنصفها، وكانت جميلة في صباها ولكن عيشة الرعب أسمنتها وداهمتها الشيخوخة، فجعلت جلدها طيات يتقطر العرق من بينها؛ فإذا مشت خطوتين أُرهقت، ولكنها كانت خفيفة الروح؛ فاستأنست لمياء بها، وسرَّها ما سمعته من إعجاب بنت الإخشيد؛ لأن ذلك يعجل ما ترجو الاطلاع عليه أو الوصول إليه في سبيل خدمة المعز، فأطرقت وقالت: « ليس فيّ ما يدعو إلى اعجاب سيدتي الأميرة، ولكنها ربما أشفقت على الضعف الظاهر في وجهي».

فقطعت القهرمانة كلامها قائلة: « إن هذا الضعف يزيدك جمالاً ولطفاً، والآن فإن مولاتنا الأميرة كلفتني أن أصلح من شأنك، وآخذك إليها لتتناولي الغداء معها».

فشغلها ذلك التلطف عن التفكير في أبي حامد ورفيقه، واشتغلت القهرمانة بالاصلاح من شأنها، فأتتها بثوب من الحرير الناعم الملون نسيج مصر، وعليه صور تأخذ الأبصار وحوله منطقة مذهبة، وأخذت الماشطة في اصلاح شعرها وتضفيره على نسق خاص، فضايقها ذلك وتقدمت إلى القهرمانة أن تعفيها من هذا التصفيف فأجابتها: « هكذا تريد مولاتنا». فقالت: « اسأليها لعلها تعفيني لأن ذلك يضر برأسي».

فمضت ثم عادت وهي تقول: « وهذا دليل على حب مولاتنا لك، فإنها سمحت أن تكوني كما تشائين وأن تسرعي في الذهاب إليها فإن المائدة قد أعدَّت».

فسرَّحت شعرها بيدها تسريحاً بسيطاً وضفرته ضفيرتين أرسلتهما إلى الوراء إلا خصلاً صغيرة أرسلتها على الصدغين، وأبت الإكتحال أو التزجج، وكانت بين يديها جارية سوداء تحمل لها المرآة، فنظرت إلى وجهها فيها فرأت أنها أجمل مما كانت تظن، ثم مشت في أثر القهرمانة في دهليز يؤدي إلى قاعة واسعة في صدرها دكَّة مرتفعة قد نصبت عليها المائدة؛ ويشرف الجالس إليها على ضفاف النيل فيرى السفن ذاهبة جائية ووراءها جزيرة الروضة؛ وفيها الأبنية الفخمة وفي جملتها المقياس، ووراء ذلك بر الجيزة إلى الأهرام.

والقاعة مفروشة بالبسط والسجاد مثل أكثر غرف تلك الدار، غير الأرائك والوسائد والمقاعد وكلها مذهبة أو منزلة بالعاج والإبنوس، وقد أرخيت الأستار المزخرفة على الجدران التي تكسوها، ومنها ستارة على عرض القاعة مرفوعة بأمراس من الحرير تُرخى عند الحاجة فتحجب مجلس الأميرة عن سائر الجلوس، كانت هذه القاعة فرشت لعقد المجالس

الكبيرة؛ فإذا حضرت بنت الإخشيد المجلس أرخت الستارة ودار الحديث أو المفاوضة ولا يراها أحد من الحضور، فنصبوا لها بجانب المائدة مقعداً مكسوّا بالخز المطرز باسمها؛ فجلست عليه والتفّت بملاءة كالمطرف من القطيفة الحريرية وقد طرزت بالقصب، ورصعت بالأحجار الكريمة بأشكال بديعة تمثل شجرا وطيورا وحيوانات أخرى؛ مما قلدت به نساء العباسيين في إبان بذخهم، ولعلها قلدت بها بساطا لأم الخليفة المستعين، عليه الطراز والترصيع على صورة كل حيوان من جميع الاجناس، وصورة كل طائر من ذهب وأعينها من يواقيت وجواهر.

دخلت لمياء وبنت الإخشيد متكئة على المقعد؛ والمطرف على جبينها يأخذ لمعانه بالأبصار، والمائدة بجانبها عليها الأطعمة. وقد وقف الخدم من الجواري يحملن الأطباق فيها الحلوى أو الفاكهة، وهنَّ في أجمل ما يكون من الأثواب وتصفيف الشعور إلا لمياء فإنها ظلت على بساطتها.

فتقدمت القهرمانة أولاً وأنبأت السيدة بنت الإخشيد بقدومها وانصرفت، فدخلت لمياء وعليها ذلك الثوب الجميل الذي زاد وجهها اشراقاً وهيبة، ولم تتمالك بنت الإخشيد عند دخولها عن الجلوس، ووسعت لها مجلساً على المقعد، ودعتها إلى القعود بجانبها فقعدت، فرحبت بها وقالت: «إن هدية إبن كلس اليوم قد كفَّرت عن سيئاته وسيئات شيعته»، وضمتها وقبلتها ولمياء مطرقة وقد زادها الحياء وقاراً. والحياء من أجمل ما تزدان به المرأة بل هو أجمل أثواب زينتها الحقيقية.

ثم سألتها أن تتناول الغداء معها، وأشارت إلى خادم بيده طبق أن يضعه على المائدة بين يديها وفيه سكباج، فتناولت قطعة وناولت لمياء قطعة تشجيعاً لها، فأطاعتها وتناولت مما حضر من الألوان؛ ولم يكن بينها شيء لم تعرفه إلا لونا في جام أنكرته ولم تستلذ طعمه، ولحظت بنت الإخشيد ذلك فقالت: «يظهر أنك لم تستطيبي هذا اللون مع أن الدرهم من وزنه يساوي عشرات الدنانير، لأنه مصنوع من أدمغة نوع من الطير لا يوجد في

غير مصر؛ ونحن ننفق في جمعه الأموال الطائلة لأن دماغه كثير الغذاء؛ واللقمة منه تغني عن عدة أطباق من أطعمة أخرى».

ثم أمرت بالحلوى فأتوا بعشرات من أشكالها بين معاجين ومطبوخات وفاكهة. وكانوا يقدمون في أثناء الطعام باقات الأزهار الطيبة الرائحة، غير ما يرشُّونه في أرض القاعة من ماء الزهر أو العطر، وما يحرقونه في المباخر المنصوبة بين الأبواب من الند أو العود.

وكان فيما قدموه على المائدة سائل محمرُّ اللون (خمر) لم تعرفه لمياء، ولا مدت يدها إليه، بل اقشعر بدنها حالما وقع بصرها عليه؛ لأنها ذكرت الشراب الذي ذهب بحياة أبيها، على أنها كانت تنظر إلي كل ذلك مبهوتة، وتقابل بين ما كانت تراه من تقشف المعز وأم الأمراء؛ والأموال عندهم في الخزائن وسلطانهم في إبانه، وبين ذلك الرخاء والبلاد في ضيق والناس يتضورون جوعاً.

وكانت بنت الإخشيد تأكل بنهم ولذة، وتعجب لتعفف لمياء، وتحسبها تفعل ذلك لعلة لأنها تعودت أن ترى غاية الإنسان في دنياه الاستمتاع بالملذات على اختلاف أشكالها وضروبها؛ فلم تتصور أن يمتنع المرء عن لذة إلا إذا عجز عن نيلها؛ ذلك شأن المنغمسين في الشهوات؛ وهم يكثرون في أواخر الدولة قرب سقوطها؛ إذ تذهب ملذاتهم العقلية أو الأدبية بذهاب مجدهم ونفوذهم، فلا يبقى لهم غير الملذات البدنية فينصرفون إليها فلا تزيدهم إلا ضعفا وانحطاطا. إن ملذات الرجال في أوائل الدولة تقوم بالنصر أو الفوز، واستباق الفتح أو نيل المناصب؛ وتقويمها وتوسيع دائرتها؛ لا تهمهم الملذات البدنية إلا قليلا، فإذا ذهب المجد وأخذ أصحابه في التقهقر لا يبقى غير هذه الملذات.

***

أمرت بنت الإخشيد برفع المائدة، وقد امتلأت معدتها وانتفخت عروقها وأسرعت دورتها، وبان ذلك في عينيها فاستلقت على المقعد،

وأحبت لمياء أن تنتقل إلى المقعد الآخر، فأمسكتها وأقعدتها بجانبها، وأخذت تحادثها فبدأت بالسؤال عن بلدها فقالت: « من أين أنت يا سلاَّمة؟ ».

فلم تدر بماذا تجيب، لأنها لا تريد أن تكذب، ولا أن تقول من هي، فأجابت جوابا وسطا فقالا: « إني من إفريقية (بلاد المغرب) ».

فوقع إسم إفريقية وقعاً شديدا على سمعها لأنه شغلها الشاغل منذ أشهر، فتصاعد الدم إلى وجهها؛ لكنها تجاهلت وابتسمت وقالت: « إن إفريقية واسعة فمن أي قسم منها أنت؟ ».

فقالت: « لا يطلب من الجواري معرفة أنسابهن، لأنهن ينتسبن إلى مواليهن فأنا في دار السيدة بنت الإخشيد، وإنما أنتسب إليها وكفى». فاستحسنت جوابها الدال على الذكاء، وأحبت تبديل الحديث؛ وإذا بالحاجب دخل وقال: « القواد الإخشيدية لا يزالون في انتظار الإذن لهم بالمقابلة يا سيدتي ».

فتأففت وهزت رأسها وقالت: « أقلقوا راحتي بمقابلاتهم. . ماذا أصنع لهم؟ هذا أميرهم أحمد فليقابلوه. . . » قالت ذلك ونظرت إلى لمياء.

فرأت لمياء ألا تضيع هذه الفرصة فابتسمت وقالت: « صدقت يا سيدتي إن المقابلات تزعج؛ ولكنك تعلمين أن الرأس عرضة للأوجاع، ولولا ثقتهم بتعقلك وسداد رأيك لم يطلبوا مقابلتك؛ فإذا جاز لي أن أشير عليك فأرى أن تأذني في دخولهم وتشجيعهم وتنصحي لهم فإن أميرهم صغير السن. . ».

فقطعت بنت الإخشيد كلامها قائلة: « أحسنت يا سلامة، لكنني لا أستطيع مجالستهم الآن بعد الطعام، فأرى أن أؤجل الاجتماع إلى المساء».

فقالت: « ذلك لك إذا شئت، لكنني لا أظنهم يلحون في طلب المقابلة هذه الساعة إلا وهم في حاجة إليها، وإذا استثقلت الانتقال إلى قاعة أخرى، فاستقدميهم إلى هنا، وأنزلي هذا الستر بينك وبينهم وخاطبيهم بما تريدين».

فأعجبها هذا الرأي كثيراً لأنه يمكّنها من الاستمتاع براحتها في الجلوس أو الإتكاء وقالت: « هذا الرأي صواب وابقيْ أنت معي ».

ففرحت لمياء إذ نالت مناها وقالت: « إذا لم يكن بأس من وجودي فإني أبقى طوع أمرك ».

قالت: « إن وجودك يؤنسني، ولا تستغربي ما ترينه بإعجابي بك لأول مرة رأيتك فيها، فإني لم أجد هذه الأخلاق في واحدة من الجواري فأنت أميرة بأخلاقك »؛ ثم التفتت إلى الحاجب وقالت: « إذا شاء القواد فليدخلوا إلى هنا ». وأمرت بعض الخدم أن يرخوا الستر، فأصبحت القاعة قاعتين بينهما ذلك الستر وهو من الديباج المطرز، وفيه ثقوب ترى منها ما تشاء من الجلوس ولا يرونها.

وبقيت لمياء جالسة تنظر من أحد الثقوب لتتعرف الداخلين، وما لبثت أن سمعت وقع الأقدام وقعقعة السيوف؛ وإذا بثلاثة عليهم الألبسة الفاخرة، والعمائم الصغيرة والدِّرَّاعات المزركشة مما يلبسه كبار القواد، وقد تقلد كل منهم سيفاً يجره إلى جانبه، فلما دخلوا ألقوا التحية، فأمرتهم بنت الإخشيد بالجلوس، وهمست للمياء: « هؤلاء ثلاثة من قواد جندنا المخلصين ويعرفون بالإخشيدية نسبة إلى أبي الإخشيد رحمه الله ».

فأظهرت لمياء الاعجاب، فقالت بنت الإخشيد بصوت عال: « مرحبا بقوادنا الأجلاَّء عسى أن يكون مجيئكم لخير؟ ».

فأبطأوا في الجواب هنيهة لحظت لمياء في خلالها أن كلا منهم يدعو الآخر للكلام، ثم تصدى أكبرهم سناً وقال: « إننا جئنا لخير إن شاء الله، ونأسف إذ أزعجنا مولاتنا، ولكننا لم نر بدا من ذلك والعدو على الأبواب، وهؤلاء الكافورية لا يزالون ينازعوننا على هذه الدولة؛ وكنا نحسب مبايعة مولانا الأمير أحمد توقفهم عند حدهم فيكفُّون عن اعتدائهم، فإذا هم على ما كانوا عليه؛ يفسدون الجند علينا، ويوغرون القلوب على مناوأتنا، والوزير جعفر يزداد استبدادا في الدولة؛ وقد قبض على الأموال فلم يترك

بيضاء ولا صفراء؛ وقد بلغنا أنه راسل العدو طالباً الصلح، فهل مولاتنا ترضى بهذا العمل؟ أم تراه استخف بأميرنا لصغر سنه؟».

فقالت بنت الإخشيد: «أنا لا أرضى بذلك، هذا لا يكون أبداً.. أنسلم البلد إلى العدو وعندنا الجند والقواد؟ كيف يفعل الوزير ذلك؟ لا بد من عزله».

فأجاب أحد القواد: «إنما فعل ذلك بإيعاز الكافورية لأنهم على رأيه، وقد ساءهم كما ساءه أن يعود الأمر إلى نصابه، ويتولى الملك أهله وأصحابه ويخرج من أيديهم، فأرادوا أن يخرج من يد أميرنا، ولو صار إلى عدونا!».. قال ذلك والحنق باد في كلامه.

ولم تكد بنت الإخشيد تتدبر كلامه حتى سمعت ضوضاء بباب القاعة، ثم دخل بضعة رجال عرفت أنهم من قواد الكافورية؛ وكأنهم كانوا بالباب؛ وقد سمعوا الطعن فيهم وأرادوا الدخول، فمنعهم الحجَّاب فدخلوا قهراً وتصدى واحد منهم للكلام،، ووجهه إلى الطاعن وقال: «تقولون إنا أفسدنا الدولة وإنها لكم وقد اختلسناها، إننا لم نختلسها ولولا أميرنا كافور لصارت هذه الدولة في خبر كان؛ فهو الذي حفظها ونظَّمها، وثبَّت دعائمها من أول أمرها منذ تولاها مولانا الإخشيد؛ فقد كان له خير ناصح ومشير، ولو ظل كافور حياً لما تجرأ العدو على حربنا، وها أنتم أولياء الأمر فأخرجوا العدو من الدار».

فأجابه الإخشيدي: «نعم نخرجهم إذا تركتمونا ولم تمالئوهم وتطلبوا صلحهم؛ دعونا وشأننا معهم، نعدْهم على أعقابهم!».

فصاح فيه قائد آخر: «ويحك! أتجسر على هذا الكلام بين يدي مولاتنا؟ أنحن نمالئ الأعداء في طلب الصلح؟».

فاغتصب ضحكة وقال: «إنه يفعل ذلك برأينا.. وقد والله أحسن صنعا. لأن دولتكم قد شاخت، وإذا أنكرتم ذلك هلم إلى العدو حاربوه وأخرجوه».

فحمي غضب الإخشيدية وصاحوا بصوت واحد: « لا نصبر على هذه الاهانة بين يدي مولاتنا ومولاتكم !». وتقدم أحدهم ويده على قبضة حسامه وقال: « والله لولا حرمة هذا المكان لضربت أعناقكم بهذا الحسام، وألحقتكم بأميركم العبد الأسود الذي تفاخروننا به، لقد صدق فيه قول المتنبي». إشارة بذلك إلى هجاء المتنبي لكافور.

فتصدى رجل من الكافورية واستل حسامه وقال: « أتطعن في الأموات؟ إنها قحَّة لم يكن لمولاتنا بنت الإخشيد أن تسكت عنها».

وعلت الضوضاء فصفَّقت بنت الإخشيد وصاحت: « ويحكم ما هذا؟ أتتشاتمون في حضرتي؟ أنسمع الطعن في أسلافنا بأذننا؟ هذا أمر لا نرضاه، وليس هذا وقت الخصام والعدو بالباب، وأنتم يا أصحاب كافور، إنه لم يكن إلا خادما أمينا رحمه الله فما بالكم تفاخروننا به. أما امارته فقد كانت فلتة انتحلها لنفسه أو انتحلها له بعض ذوي الأغراض، وزعم أن الخلعة أتته من بغداد، ما لنا ولهذا الآن؟ إنه خصام في غير أوانه!».

فوقف الكافورية جميعاً وقال كبيرهم: « أما وقد سمعنا هذه الاهانة من فم مولاتنا؛ فلم يبق لنا إلا أن نخرج ونترك الأمر لأصحابه وولاة أمره». قالوا ذلك وخرجوا والغضب باد في كل حركة من حركاتهم.

وكانت لمياء في أثناء ذلك تزداد وثوقاً بنجاح جند المعز، فقد رأت بعينيها، وسمعت بأذنيها اختلال أمور الدولة وانقسام قوادها، وتباغضهم مما لا سبيل إلى تداركه.

فلما خرج الكافورية التفتت بنت الإخشيد إلى لمياء كأنها تستشهدها على هذه القحَّة وقالت: « أرأيت أجهل من هؤلاء؟. ويلاه كيف نحارب الأعداء، إننا لا نقوى على قتالهم؟».

فاستبشرت لمياء بالفوز وقالت: « على رسلك يا سيدتي، وعسى أن يكون هناك باب للفرج».

وكأنَّ بنت الإخشيد ندمت على ما فرط منها فاستأنفت الكلام وقالت:

«لا أطيق أن أتصور أن يدخل البلاد عدو غريب يحكم في رقابنا؟»؛ ورأت أنه كان عليها أن تلين القول للكافورية؛ وانها أخطأت فأرادت أن تلقي التبعة على سواها شأن ضعيف الرأي. فالتفتت إلى الإخشيدية وكانوا لا يزالون واقفين يتحدثون بما أتاه الكافورية وقالت: « ما كان أجدركم بألا تغلظوا لهم الكلام وهم اخوانكم وعليهم المعول في الحرب».

فأجابها أحدهم: « وأنت أيضاً تلقين التبعة علينا؟ أما سمعت الإهانة التي لحقت بنا وبك وبسائر آل الإخشيد؛ فليكن ما تشائين.. أو لعلنا أخطأنا إذ بايعنا الأمير على صغر سنه، لكننا لم نفعل ذلك إلا اعتماداً على نصرتك؛ فإذا كنت ترين أننا غير أكفاء فلنذهب». قال ذلك وخرج وتبعه رفاقه.

فأحست بنت الإخشيد عند ذلك بضعف عزيمتها، وأنها أصبحت لا نصير لها إلا إذا تذللت واستعطفت، فانقبضت نفسها وبان الإنقباض في وجهها، وسكتت هنيهة ولمياء تراقب حركاتها وتقرأ ما يجول في خاطرها. فلما رأتها على تلك الحال قالت: « ما بال سيدتي كئيبة؟. أمن أجل كلمة تنقبض نفسك؟».

فتنهدت وقالت: « آه يا سلامة! ليس انقباضي من أجل كلمة، ولكن هؤلاء الناس لا يقدرون العواقب، وقد خرجوا يتوعد بعضهم بعضا، وهم يدنا وساعدنا وجندنا، فبمن نحارب عدونا؟ لا نصالح ولا نقدر أن نحارب؛ ويلاه ما العمل؟». ودمعت عيناها، فأكبت لمياء عليها وضمتها وقبلتها وقد أشفقت عليها وقالت: « لا بأس عليك يا سيدتي لا تخافي».

فاستأنست بذلك الحنو وقالت: « كيف لا أخاف؟؛ فإذا كان العدو قوياً كما يظنون وقدر له الغلب فماذا يصيبني؟».

قالت: « لا يصيبك شيء يا مولاتي».

قالت: « لا تلطِّفي الأمر عليَّ».

قالت: « إني لا ألطفه ويجب ألا تيأسي من النصر، ولكن هبي أن العدو

اغتنم هذا الضعف وتغلب فأنت في أمان، لأن هؤلاء المغاربة على كونهم أعداء أقرب إلى الضن بكم من هؤلاء الأجناد المتمردين!».

فرأت في لهجتها شدة وعزيمة فقالت: «وكيف عرفت ذلك؟».

قالت: «عرفته لأني من بلاد المغرب كما تعلمين، وكان سيدي الأول ذا صلة متينة بأهل القيروان وتعرَّف إلى المعز وقائده؛ وكثيرا ما سمعتهم يتحدثون عن طباعهم؛ إنهم أقرب إلى الخير من هؤلاء الأجناد و..»

فقطعت كلامها قائلة: «هل تعرفين المعز وقائده؟».

قالت: «نعم يا سيدتي اعرفهما معرفة جيدة وهما يعرفانني أيضاً».

فضحكت مسرورة بهذه البشرى، وأحست بنفوذ تلك الفتاة، وأحبت أن تقول شيئاً فمنعها الحياء وحالت دونه الأنفة، فأدركت لمياء غرضها فبادرتها قائلة: «انظري يا مولاتي؛ إن ما لقيته من لطفك ومحبتك يقتضيني أن أغار عليك، فهل أذنت لي في كلمة..» قالت: «قولي».

قالت: «إنكم الآن في حرب مع المغاربة، وقد سمعت الآن أنَّ ابن الفرات ساع في الصلح، فإذا وُفِّق إليه فثقي بأنك تكونين معززة مكرمة، فإني أعرف أم الأمراء زوج المعز وهي من أكرم خلق الله وتحبني حبا جما؛ فأنا أضمن لك ما يصون مقامك؛ وإذا لم يفلح ابن الفرات وجرت حرب؛ فإذا فاز المصريون فأنت صاحبة السيادة، وإذا غُلبوا على أمرهم فأنا أفديك بروحي وأكون وسيلة لحفظ كرامتك وأموالك».

ففرحت بنت الإخشيد، ولكنها أحست بصغر النفس، وندمت على تصريحها بما قالته، وخافت أن تستضعفها لمياء أو تحتقرها فقالت: «ولكن الفوز راجح لنا بإذن الله».

فقالت لمياء: «إن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء، وقد قلت لك ما أستطيعه والأمر لله من قبل ومن بعد».

فضمتها بنت الإخشيد إلى صدرها وقالت: «إني أشكر لك غيرتك أيتها الحبيبة».

***

كانت الشمس قد مالت إلى الأصيل، فتحفزت بنت الإخشيد للنهوض، فوقع بصرها على قارب يجري في النيل مسرعاً، والتفتت لمياء وتفرست فيه فلم تطلْ تفرسها حتى عرفت جماعة فيهم أبو حامد وسالم، فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وعلتها البغتة وتوردت وجنتاها، لكنها تجلدت وتجاهلت فقالت بنت الإخشيد: « هل ترين هذا القارب؟ يلوح لي أنه قادم إلينا وقد تعبنا اليوم من المقابلات». قالت ذلك وأطلت من الشرفة ولمياء معها فرأتا القارب وقف عند المسناة بقرب باب القصر فقالت: « إنهما قادمان إلينا بلا شك فهل أقابلهما؟».

قالت لمياء: « تسألينني يا سيدتي؟ إني لا أرى بأساً من المقابلة من وراء هذا الستر لعل مع القادمين خبراً جديداً، فإذا أعجبنا استفدنا منه وإلا أهملناه».

قال: « لله درك من حكيمة عاقلة، يا ليتني ظفرت بك من قبل».

وبعد هنيهة جاء الحاجب يستأذن لرجلين من أعيان المغرب، فأذنت بنت الإخشيد في ادخالهما، وأخذ قلب لمياء يخفق حتى خافت أن تخونها عواطفها، فتشاغلت بالالتفات إلى النيل لئلا يبدو ارتباكها، ثم دخل الرجلان فرأت من وراء الستر أنهما أبو حامد وسالم فجعلت تغالب عواطفها لترى ما يكون، وهي تتوقع أن ترى شيئاً جديداً يتم لها به ما كشفته في تلك الجلسة؛ وكان قد أقلقها ما سمعته من أمر الحسين.

فلما دخلا ألقيا التحية، فأمرت لهما بنت الإخشيد بالجلوس ورحبت بهما، ولمياء تتفرس فيهما فرأت سالماً على غير ما تعرفه من حسن الطلعة، فظنت السفر غيَّره، والواقع أن ما عرفته من خيانته وغدره قلل كثيرا من جماله.

أما أبو حامد فقد كان أقوى خلقاً وأثبت عزيمة، يدلك على ذلك بقاؤه على المطالبة بدم أبي عبد الله الشيعي دهراً لا يرى لنفسه عنه متحولا، رغم ما لقيه من الفشل المتتابع وآخره فشله في أمر كافور، وكان قد أوشك أن

ينجح لو بقي كافور حياً ولم يصب جند مصر ما أصابه من الانقسام؛ ومع علمه بانقسام الجند وضعفه؛ فإن عزمه بقي ثابتاً لا يتزحزح عما عزم عليه منذ أعوام وهو يسوق سالماً معه فيطيعه ويقول بقوله.

فلما جلسا قالت بنت الإخشيد: « مرحباً بالأضياف، من أين أتيتم؟ ومتى كان قدومكم؟ ».

قال أبو حامد: « أتينا مصر منذ بضعة أشهر، ونحن من أمراء المغرب في سجلماسة أصابنا ما أصاب سائر أمراء المغرب من ظلم العبيديين؛ فقد فتحوا بلادنا واستبدوا وطلبوا الينا التسليم فأبينا، وجئنا مصر لنعيش في ظل الإخشيديين حيث لا يقع بصرنا على أحد من أعدائنا؛ ولعلنا نستطيع خدمة الدولة، وقد علمنا أن أدعياء الخلافة بالمغرب زحفوا على مصر بقيادة المملوك الصقلي، فتوقعنا أن تجتمعوا لدفعهم، فالأمر يهمنا وعدو عدوي صديقي، لكننا سمعنا بما أصاب قلوب بعض القواد والوزراء من الوهن حتى تحدَّث بعضهم بطلب الصلح، فعجبنا لهذا الضعف، وأحببنا أن نري الجند خطأهم فلم نر أوجه من بنت الإخشيد؛ فإن الأمير حفيد أخيها وهو غلام فهي صاحبة الرأي الأعلى ».

فقالت بنت الإخشيد: « بارك الله فيك، وبماذا جئتنا من أسباب الطمأنينة؟ ».

قال: « إن ما جئتك به يا مولاتي هو أن أسعى في التوفيق بين القواد الإخشيدية والكافورية، وهذا لا يكون إلا إذا ثبت لهم أن جند المغاربة لا يستطيع أن يفتح هذه البلاد، وإن ما وقع من انقسام كلمتهم، إنما مرده خوفهم من الفشل، وهذا طبيعي في كل زمان ومكان، لا يختصم شريكان إلا إذا خسرت تجارتهما. فإذا أقنعتهم بأن أولئك الأدعياء لا يستطيعون فتح مصر، تشجعوا واتحدوا وطردوا العدو من بلادهم ».

فأعجبت بنت الإخشيد بفصاحته وقوة حجته، ونظرت إلى لمياء فوجدتها مصغية ولم تتنبه إلى ارتباكها فقالت لأبي حامد: « وما هو

دليلك؟».

قال: «دليلي أن قائد المغاربة رجل اسمه جوهر الصقلي، ولهذا الرجل ابن اسمه الحسين عزيز عليه، وقد علم الحسين هذا بمال كنا خبأناه في بعض الأماكن قرب سجلماسة لنستعين به على استرجاع ملكنا، فاغتنم فرصة غيابنا وذهب بشرذمة من الجند ليستولي على المال، ولكن رجالنا هناك قبضوا عليه وأرسلوه إلينا مغلولا، فإذا شئت دفعناه إليك تجعلينه رهينة تهددين به أباه».

وتذكرت بنت الإخشيد قول لمياء إنها تعرف المعز وقائده وجميع رجال الدولة في القيروان، فلما سمعت ما قاله أبو حامد عن الحسين بن جوهر التفتت إليها فوجدتها لا تزال شاخصة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحديث فقالت لها همساً: «هل تعرفين الحسين بن جوهر؟».

قالت: «نعم أعرفه وأحب أن تأمري باحضاره لئلا يكون هذا الرجل كاذباً».

قالت: «وهل تعرفين هذين الرجلين؟».

قالت: «نعم رأيتهما في القيروان وسمعت عنهما ما يضعف الثقة بهما، فإذا أمرت بإحضار أسيرهما لنراه كان ذلك أقرب إلى التثبت».

قالت بنت الإخشيد من وراء الستر: «أين ذلك الأسير؟».

قال أبو حامد: «هو عندنا وإذا شاءت مولاتي أتيناها به».

قالت: «افعل».

فأشار أبو حامد إلى سالم أن يمضي ويأتي به، فمضى ولبثت لمياء على مثل الجمر تتماسك وتتجلد لئلا تغلبها عواطفها، وهي تحب أن يكون كاذبا في قوله فيكون الأسير رجلاً آخر، لكنها ما لبثت أن سمعت ضوضاء قرب الباب وسالم يقول: «تقدم يا جبان لتراك مولاتنا بنت الإخشيد».

فتطاولت لمياء بعنقها حتى وضعت عينها على ثقب الستر؛ وإذا بالحسين يدخل والأغلال الحديدية في عنقه ويديه، لكنه مشى بقدم ثابتة

والتفت إلى سالم وقال: « متى رأيتني أحاول الفرار حتى تدعوني جباناً؟ ».

فالتفتت بنت الإخشيد إلى لمياء لتستطلع رأيها في الرجل فرأتها ترتعد وقد احمرت عيناها وكادت تغلب على أمرها فقالت: « هل هذا هو الحسين كما يقول؟ ».

فأشارت برأسها أن « نعم» ولم تفه بكلمة لئلا يختنق صوتها فيفتضح أمرها، فاستغربت بنت الإخشيد ما بدا من اضطرابها لكنها وجهت خطابها إلى الحسين قائلة: « أأنت الحسين بن جوهر قائد جند المعز؟ ».

فأجابها وهو رابط الجأش ثابت الجنان: « نعم أنا الحسين بن جوهر فاتح افريقية وقائد جند المعز ليفتح مصر عما قليل».

فوكزه سالم بيده وقال: « اخرس يا نذل، أبمثل هذا تخاطب مولاتك؟ ».

فرفسه الحسين برجله وقال: « اخرس أنت، فهي مولاتك أنت، ولو عرفتك لتبرأت من هذه الولاية، أما مولاي فهو المعز لدين الله الفاطمي».

فتصدى أبو حامد للكلام وهو يضحك وقال مستخفاً: « ألا تزال تسمي ذلك الدعيَّ فاطمياً وفاطمة بريئة من نسبه؟ ».

فقال الحسين: « إنه فاطمي رغم خيانتك وغدرك».

فقالت بنت الإخشيد: «ما أوقعك في الأسر؟ ».

قال: « وقعت فيه تفانيا في خدمة مولاي المعز، وقد فزت والحمد لله بما أردت، فأخذت المال الذي خزنوه في فج الأخيار وبعثت به إلى القيروان فصبوه قطعاً كالأدحية حملوها معهم على الجمال إلى هنا».

قال أبو حامد: « لا تكذب».

قال: « إنما الكاذب أنت! إني فعلت ما طُلب مني وأرسلت المال إلى مولاي المعز، وسيستعين به على فتح مصر، ولا يغرنك ما أتاه رجالك من القبض عليَّ فإن ذلك غير ضائري؛ قد قمت بما عليَّ وإذا مت الساعة لا أبالي؛ فإن الأعلام الفاطمية لا تلبث أن تخفق فوق الفسطاط، وإذا لم أوفق

إلى رؤيتها وأنا حي فإن عظامي تراها وتفرح».

فأعجبت بنت الإخشيد بجرأته التي لا تقدر أن تتصورها، ولا سمعت بمثلها لما نشأت عليه من الخمول والرخاء، فالتفتت إلى لمياء فرأتها مع عظم تأثرها قد غلب البشر على محياها فقالت همساً: « أستغرب ما أسمعه! ».

قالت: « لا تستغربي يا سيدتي، فهذا شأن هؤلاء القوم، وهم لم يفتحوا افريقية إلا بمثل هذا التفاني».

قالت: « رغم ما سمعته من هذا الشاب فإني أشعر بانعطاف إليه ولم يعجبني تطاول هذا السجلماسي».

فلم تتمالك عن الانتصار للحسين فقالت: « فكيف لو علمت الفرق بين أخلاق الرجلين؟ ».

قالت: « هل تعرفين شيئاً عنهما؟ ».

قالت: « إن أهل القيروان يتحدثون بذلك، أما الآن فمري إذا شئت أن يكون هذا الأسير في دارك، واصرفي الرجلين إلى الغد».

قالت: « أحسنت»؛ وصفّقت فأتى بعض غلمانها فقالت: « خذ هذا الأسير إلى غرفة يقيمَ بها حتى ننظر في أمره، واحلل وثاقه فلا خوف من فراره».

فقاده الغلام بيده، وخرج، فوقع هذا العمل من نفس لمياء موقعاً جميلاً وكاد قلبها يطير من الفرح، ولحظت بنت الإخشيد ذلك فيها فظنتها فعلتها لشعور مثل شعورها فعذرتها، والتفتت إلى أبي حامد وقالت: « سننظر فيما عرضته علينا، وسأقص ما رأيته على قوادنا فعسى أن ينفعنا الله بكم»؛ ففهم أبو حامد أنها تصرفهما، فنهض وخرج مع سالم، وقد سقط في أيديهما، وإن لم يفهما ما جال في خاطرها.

***

ونهضت بنت الإخشيد لتوها وهي تتثاءب وتقول: « ما أثقل هذا

اليوم! . لقد تعبت من المفاوضات؛ إن هذا لا يستطيعه إلا كبار الرجال، وقد أخطأنا بتولية هذه الإمارة غلاماً صغيراً».

فنهضت لمياء معها وقد غربت الشمس، وأخذت الظلال تتكاثف وتتحول إلى ظلام، وأصبحت تود الاختلاء بنفسها للتفكير فيما تراكم في ذهنها من الحقائق الجديدة، وما أصاب قلبها من الصدمات المتوالية، فرأت بنت الإخشيد تحولت إلى غرفتها وأشارت إليها أن تتبعها فأطاعت، وقد أدهشتها تلك الغرفة بما فيها من الرياش الثمين وفي صدرها سرير من الأبنوس المنزل بالعاج والذهب؛ فوقه كلّة من الحرير الشفاف (الملس) وكل ما في الغرفة زاه زاهر عكس قلب صاحبته المسكينة؛ فإنها خرجت من تلك الجلسة وقد تراكمت عليها الهموم والمخاوف؛ ولم تكن تشعر بشيء من ذلك قبلا. وأصبحت شديدة التعلق بلمياء ولا سيما بعد ما آنسته من تعقلها والخدمة النافعة التي عرضتها عليها، فجلست على سريرها وأمرت لمياء أن تقعد بجانبها فقعدت وهي تفضل الخلوة؛ لكنها أطاعتها ولحظت ما هي فيه من القلق؛ فاشتركت في احساسها وشعرت انها امتلكت قلبها.

وظلتا هنيهة صامتتين، وبنت الإخشيد مطرقة، ويمناها على كتف لمياء، واليسرى على قلبها، كأنها تتقي صداعاً أصابه، ثم تنهدت ونظرت إلى ما حولها تتحقق خلو المكان من الناس، ثم التفتت إلى لمياء، وضمتها إلى صدرها، وقبلتها في عنقها، وأطالت تقبيلها، فشعرت بسائل حار يقع على عنقها، فأجفلت وعلمت أن بنت الإخشيد تبكي وهي تحبس نفسها لئلا تلحظ لمياء ضعفها. فتلطفت لمياء ورفعت رأسها وضمتها وهي تقول: «ما بالك يا سيدتي؟ خففي عنك، إني لا أرى باعثاً على ذلك، ومن كان فيما أنت فيه من الوجاهة والنفوذ لا مندوحة له عن امثال هذه المشكلات».

فرفعت رأسها وتنهدت ثانية وقالت: «لا تعجبي من ابداء ضعفي بين يديك في أول يوم عرفتك فيه، فإني أشعر كأني عرفتك منذ أعوام؛ وقد اطلعت على حالنا الليلة فأشيري عليّ.. أشيري عليّ يا حبيبتي».

فسرت لمياء من وثوق تلك المرأة بها، وأحست بالعطف عليها، واستغربت انقلابها بهذه السرعة عما كانت عليه من الزهو والتيه لما رأتها في ذلك الصباح، وشاركتها في البكاء، وليس أسهل عليها من ارسال الدمع؛ فإن مصائبها تترى واحساسها حيٌّ فقالت: « هوِّني عليك يا مولاتي، إني لا أرى باعثاً على هذه الشكوى؛ وقد ذكرت لك ما أقدر عليه في خدمتك، وقد فُتح لنا باب جديد بوجود الحسين بن جوهر أسيراً في قصرك وتحت رعايتك، ولا ينفعك أن تثقليه بالقيود والأغلال، فإن ذلك لا يؤذيه؛ ولا أقول لك أطلقي سراحه فإن في ذلك خيانة لبلدك، ولكنني أقول لك أكرمي مثواه وأحسني وفادته، فإذا قدر النصر لجند مصر كان الحسين من أسرى الحرب ، وإذا فاز القيروانيون وانهزم المصريون، عرف الحسين فضلك وسعى في صيانتك وحفظ كرامتك».

فدهشت بنت الإخشيد لهذا الرأي الذي لا يأتيه الباطل فقالت: « بورك فيك، ولعلك علمت أني غضبت لهذا الشاب وساءني ما أتاه معه ذلك من التباين في أخلاقهما بأني ميالة إلى محاسنة الحسين وسأفعل . . »

فأطرقت لمياء لحظة ثم قالت: « وعندي رأي أظنك توافقينني عليه، أعني أننا إذا صارت حالنا إلى الخطر استكتبناه كتاباً إلى أبيه يوصيه بك وبمن في دارك خيراً».

ونهضت تظهر رغبتها في الانصراف، فأحست بنت الإخشيد أنها أتعبتها في ذلك اليوم، فنهضت وقبلتها وقالت: « اذهبي إلى فراشك يا عزيزتي واستريحي فقد أتعبتك اليوم».

فودعتها وانصرفت إلى غرفتها، وقد امتلأ صدرها أملاً بالفوز، وأصبح همها أن تنقل ما شاهدته من فساد أحوال الدولة والجند إلى يعقوب، حتى ينقله إلى معسكر جوهر بالإسكندرية، فلبثت تترقب الفرص.

***

كان الحسين قد ذهب إلى فج الأخيار في شرذمة من الفرسان، فاستطاع

الإستحواذ على الأموال وارسالها إلى القيروان، ثم غافله حراس ذلك المخبأ فعقروا فرسه، وبعد معركة جاهد فيها جهاد الأبطال تكاثروا عليه حتى سقط فشدوا وثاقه، ووضعوا الأغلال في يديه ورجليه وعنقه، وبعثوا به إلى أبي حامد بمصر، ولم يخبروه أنه تمكّن من حمل المال قبل القبض عليه، أ و لعلهم أخبروه وتجاهل، ووصل الحسين بأغلاله إلى مصر وهي في تلك الحال؛ فرأى أبو حامد أن يتخذه وسيلة لإنجاح مساعيه، فحمله إلى بنت الإخشيد، لكنه أحس قبل خروجه من حضرتها أنه لم ينجح، ولكنه تجاهل أمام سالم وأوهمه أنهما نائلان ما يريدان عن قريب، وأن الجند القيرواني سيعود بالفشل، وكان يحسب التوفيق بين الأجناد أسهل مما رآه على أثر ذلك النزاع في مجلس بنت الإخشيد.

أما الحسين فشعر بالفرج جاءه عندما سيق إلى القصر وحُلَّت أغلاله، فبات ليله مرتاحاً؛ وفي صباح اليوم التالي أتوه بثياب نظيفة، وفرشوا له غرفة خاصة، وأوقفوا له خادماً يقوم على حاجته من طعام وشراب؛ كل ذلك باسم السيدة بنت الإخشيد؛ فلم يكن ينقصه غير الخروج من القصر إذ كان هذا محظوراً عليه؛ فكان يقضي أوقاته مفكراً فيما مر به وصورة لمياء لا تبرح أمامه. ولم يكن يعرف أين ذهبت، وكلما تصوَّر معاملة سالم وأبي حامد غضب وتوعد؛ وكان في أثناء الطريق قد علم بحملة أبيه ونزوله إلى الإسكندرية، وسمع وهو في قصر بنت الإخشيد أن بعض المصريين يسعون في الصلح والتسليم، وود لو أنه مطلق ليشترك في المعارك، وقد شكر لبنت الإخشيد اكرامها إياه بلا سبب يعلمه

وبعد أيام جاءه رسول يدعوه إلى لقاء بنت الإخشيد في قاعتها، وأدخله الحاجب القاعة ونادى السيدة من وراء الستر قائلاً: « هذا يا سيدتي الحسين بن جوهر في حضرتك»». وتركه هناك وخرج.

فتقدم الحسين وألقى التحية، فردت السلام وقالت: « كيف ترى نفسك يا حسين؟».

قال: « أراني مقيداً».

قالت: « ألم تُحلَّ قيودك؟».

قال: « بلى وهذا فضل منك لا أنساه، فقد فعلت ما هو أليق بالكرام؛ ولكنني لا أزال أراني مقيداً؛ إني كالمسجون في هذا القصر».

قالت: « لا ألومك لضجرك من هذا الحبس، ولو كنت مكاننا لما فعلت غير ذلك. إنَّ أباك حاملٌ علينا بخيله ورجله؛ ووقع ابنه في يدنا وبلغنا أنك من خير القواد، فهل نطلقك لتكون عوناً لعدونا علينا؟ أما كفاك أننا حللنا قيودك، وأطلقنا لك الحرية وقمنا بما تحتاج إليه من أسباب الراحة؟!».

فرأى حجتها دامغة فقال: « لا أنكر فضلك يا مولاتي، والحق يقال إنني لا أنسى هذا الجميل.. والدنيا دول..».

فقالت: « عسى أن تنتهي هذه الحرب صلحاً ونجتمع على مودة، وقد بعثت إليك الآن فإذا كنت ترى تقصيرا في خدمتك فنصلحه».

قال: « لا أشكو من أي تقصير».

قالت: « تقدم لأقول لك كلمة».

فتقدم حتى دنا من الستر فقالت له: « سأرسل إليك بعد قليل جارية اسمها سلامة تطلب منك أمراً فاقضه لها، وقد لا أحتاج إلى إرسالها فاذهب بسلام».

فتراجع حتى فتح الباب فلقيه الحراس فرافقوه إلى محبسه، وقد شغل باله ما اقترحته عليه، وكان ذلك بتدبير لمياء لزيادة اطمئنانه، حتى إذا احتاجوا إلى كتاب توصية لا يكون ثمة ما يمنعه من الإجابة.

-١٧-

الحرب

قضت لمياء أياماً وهي ترى نفسها بقرب الحبيب، وأنها تستطيع الوصول إليه، لكنها لم ترض أن تلقاه، فقد عاهدته وعاهدت نفسها لتصبرنَّ

حتى تضع الحرب أوزارها، وكانت تخاف إذا عرف الحسين بوجودها هناك أن يحدث ما يعرقل مساعيها، فتجلدت حباً في سلامته وكرامته؛ ومع شجاعتها ورغبتها في أن يشترك الحسين في فخر الفتح كانت نفسها تميل إلى صيانته من خطر الحرب؛ وكانت على ثقة من قدرة جند المعز على الفتح بدون الحسين فلماذا تعرِّضه للقتال فقد يجيئه سهم يصيب به مقتلاً وهي حريصة على حياته.

وأفاقت ذات يوم على أصوات المنادين في أسواق الفسطاط، وكانوا لا يفعلون ذلك إلا لأمر هام يريدون نشره، مما يعلن عنه في الصحف أو تنشر به المنشورات الرسمية في هذه الأيام، فكانت حكومة ذلك العصر تذيعه على أفواه المنادين، فسمعت لمياء صوت المنادي يقول: « يا أهل الفسطاط قد جاءنا عدو من إفريقية يعتدي على بلادنا بلا ذنب اقترفناه سوى طمعه في الإستيلاء علينا، وقد وقع إلى مولانا الأمير أن بعض الخونة المارقين أغرى جماعة من الأعيان بالاستسلام، فكتبوا بذلك كتاباً بعثوا به إلى الإسكندرية، فاعلموا أنه خديعة ترمي إلى الإيقاع بالدولة، واعلموا أن الأمير أعزه اللهوسائر رجال الدولة والقواد الإخشيدية والكافورية والأتراك وغيرهم لا يقبلون صلحاً، وإنما يحتكمون إلى السيف، وذلك حتى يكون الناس على بينة في أمرهم فلا يُخدعون بقول ولا يصغون لوشاية؛ وهؤلاء جنودنا خرجوا بمضاربهم إلى بر الجيزة لملاقاة العدو إذ قد جاءت الأنباء بقدومه إلى هناك، فعليكم يا أهل الفسطاط أن تأخذوا بأيدي الجند، وتبذلوا لهم ما تستطيعونه من العون، تقدمونه إلى من يأتيكم من عند الوزير أو الأمير؛ ولا تضنوا بالمال فإنه أقل ما يبذل في سبيل الذود عن الدولة والملة، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء وهو على كل شيء قدير».

فأطلت لمياء من نافذة عالية تشرف على الطريق، فرأت المنادي يسير ووراءه الجماهير من الرجال والأولاد، وقد علت الضوضاء وساد الاضطراب، فقالت في نفسها: « لا بد أن يكون لذلك اللعين أبي حامد ضلع

في جمع قلوب الجند على الدفاع، ولكن القلوب متنافرة والنيات فاسدة والضغائن متبادلة فلا أمل في نجاحهم».

وفيما هي في ذلك أتتها القهرمانة تدعوها إلى بنت الإخشيد، فأسرعت فرأتها جالسة على شرفة من القصر تطل على النيل وما وراءه إلى الجيزة، فابتدرت لمياء قائلة: « يظهر أن السجلماسي قد أفلح في جمع قلوب الأجناد. انظري كيف يعبرون النيل في القوارب إلى الجيزة، وهذا الجسر الآخر بين الروضة والجيزة كذلك أيضاً؛ وهذه الجسور مصنوعة من السفن الموضوعة جنباً لجنب؛ وفوقها سقائف من الخشب وطبقة من الرمال والحصى يتوهم غير العارف أنها ضعيفة وهي متينة، هل ترين معسكر الأعداء؟ إني لا أراه».

وكانت لمياء في أثناء ذلك تجيل بصرها في ذلك المعسكر، ولم تفرغ السيدة من كلامها حتى ظفرت لمياء بمكانه فصاحت: « انظري يا سيدتي إلى ذلك الغبار المخيِّم إلى اليمين وقد نصبت الخيام والفساطيط، هل ترينها؟».

فقالت وقد امتقع لونها: « نعم رأيتها، ويظهر أنهم جند كثيف، ما العمل الآن؟ ماذا ترين؛ هل تظنين جندنا يُغلب؟».

قالت: « أما سمعت قول المنادي إن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء؟».

قالت: « ما العمل الآن؟».

قالت: « أما نحن هنا فلا خوف علينا».

قالت: « هل أخذت الكتاب من الحسين؟».

قالت: « هذا وقته، هل تأذنين لي في ذلك؟».

قالت: « افعلي ولكن من يوصله إلى القائد جوهر؟».

قالت: « أنا أوصله، وإنما أحتاج إلى ثوب أتنكر فيه بزي الرجال، فمري لي بذلك وبجواد أركبه».

قالت: « وهل تستطيعين ركوب الخيل؟ ».

قالت: « نعم تعودتها منذ صباي ».

فأمرت لها بما طلبته فلبست ثوب أحد الأجناد، وتلثمت ونزلت إلى الحسين وقلبها يخفق من هول تلك المقابلة؛ لكنها صممت على التكتم.

وكان الحسين قد سمع المناداة كما سمعها غيره، وأصبح كالأسد الهائج إذا رأى الفريسة وهو مقيد، وقعد على سريره؛ وإذا بذلك الجندي قد دخل عليه فقال: « من أنت وماذا تريد؟ ».

فخفضت لمياء صوتها واجتهدت في تغييره وقالت: « أنا سلامة الجارية، أتيت لأطلب منك ما وعدت به مولاتي بنت الإخشيد ».

فقال: « وما ذلك؟ ». قالت: « أن تكتب كتاباً إلى أبيك تذكر له فيه أنه عليه إذا قُدِّر له النصر ودخل الفسطاط ظافراً أن يأخذ رجاله بحماية هذا القصر جزاء ما لقيته من رعاية أصحابه؛ هل تفعل؟ ».

قال: « نعم، إن لصاحبته فضلاً عليَّ لا أنساه.. ». قال ذلك وأخذ قرطاسا وكتب فيه بخطه رسالة بهذا المعنى ودفعها إلى لمياء، فتناولتها وأسرعت في الذهاب خوفاً من أن تُغلب على أمرها ويتسلط قلبها على عقلها؛ وركبت جوادها وخرجت تخترق الصفوف تطلب منزل مسلم بن عبيد الله وهي تراقب ما تراه من أحوال الناس؛ فرأت الحماسة مقصورة على الأجناد، وانهم قد اتخذوا ذلك النداء ذريعة لابتزاز الأموال.

والمصريون لا يريدون حرباً لأنهم ملوا استبداد هذه الدولة، ومالوا إلى استبدال دولة أخرى بها، وقد لا تكون أقل منها استبداداً ،لكنهم يحبون الجديد؛ فرأت الجند يسوقون جماعة من أعيان التجار ويضربونهم ويهينونهم لأنهم لم يؤدوا الاعانة، والناس يصيحون ويستغيثون ويشكون فراغ جيوبهم؛ ثم جفلت لسماعها صوتاً كصوت سالم فالتفتت فرأته ومعه عمه في جماعة من القواد سائرين على أفراسهم إلى الروضة وهم يحرضون الناس على الطاعة، وسمعت سالماً يقول لبعض الأغنياء من الأهلين رآه

يستغيث من تطاول الجند عليه في طلب المال: « أخرجوا الأموال فإن هذا الجند يذبُّ عن أرواحكم وأموالكم ألا تسعفونهم بالمال؟». فعلمت أنَّ للرجلين يداً في جمع كلمة الجند ونكث الصلح.

وبعد قليل وصلت إلى بيت الشريف مسلم فرأت بابه مزدحما بالناس بين راكب وراجل وأكثرهم من الأهلين جاءوا يتظلمون أو يستظلمون، وسمعت نقمتهم على الأجناد وغضبهم لنقض الصلح؛ فاخترقت الصفوف حتى وصلت إلى الباب فوسعوا لها مكرهين يحسبونها جندياً جاء لمصادرة أو اغتصاب، حتى دخلت وطلبت أن ترى الشريف فقيل له إنه في شاغل فقالت: « قد جئت في رسالة مستعجلة».

فوسعوا لها فدخلت عليه بعد أن ترجلت وسلمت الجواد إلى بعض خدمه؛ وكان مسلم مختليا في غرفته مع بعض الأعيان والتجار وقد علت أصواتهم بالاحتجاج على نقض الصلح؛ فلما قيل لهم إن جنديا بالباب سكتوا فدخلت لمياء بلثامها وأشارت إلى مسلم بأنها تريد مقابلته على حدة، فدخل معها إلى غرفة فأوصدت الباب وراءها ثم أزاحت اللثام فدهش لرؤيتها وقال: « ما وراءك . . من أين أتيت؟».

فقصت عليه خبرها وقالت: « إن الحسين في القصر بمأمن، وانها احتالت في المجيء محتجة برسالة تؤديها، وإنما غرضها أن تبلغ القائد جوهر حا ل الدولة من الاختلال والضعف حتى لا يغتر بالصياح؛ فأُعجب الشريف بحميتها وبسالتها وقال: « لله درك من فتاة باسلة مخلصة، هل تريدين الذهاب إلى القائد بنفسك؟».

قالت: « نعم لأني أستطيع بذلك أن أزيده بياناً وعلماً بالأمور».

قال: « حسناً تفعلين وسيفرح بلقياك لأنك تنقلين إليه خبر الحسين وأنه حيٌّ آمن، وقد سمع بوقوعه في الأسر ولا يدري أين هو».

قالت: « أين المعلم يعقوب؟».

قال: « ألم تسمعي بما أصابه؟».

قالت: « كلا . . ماذا جرى له؟».

قال: « إن الوزير ابن الفرات صادر أربعة آلاف وخمسمائة دينار علم بوجودها عنده، وأراد قتله فالتجأ إليَّ ثم فر إلى معسكر القائد جوهر، وقد حمَّلته ما استطعت من الأخبار والآراء؛ وستكون رسالتك أهم عنده لأنك استقيت الخبر من مظانِّه؛ اركبي. وسأرسل معك بعض رجالي. . لا خوفاً عليك، وإنما ليدلوك على الطريق».

فقبلت وخرجت فامتطت فرسها وركب معها بضعة رجال من رجال الشريف؛ وساروا قاصدين معسكر القائد جوهر، فقطعوا جسراً على النيل أسفل الفسطاط؛ والشمس قد مالت على خط الهاجرة فوصلوا إلى المعسكر قبيل الغروب، وكان رفاقها قد عرفوا فسطاط جوهر فساروا تواً لا يعترضهم معترض.

***

كان جوهر جالساً في فسطاطه وقد أوقدت الشموع؛ واجتمع قواده حوله وهم جلوس، وجوهر مطرق يفكر في فقد ابنه الحسين، وكان قد سمع من الذين حملوا إليه الأموال من فج الأخيار أنه تخلف عنهم، ولعله قتل أو وقع أسيراً، وفيما هم في ذلك دخل الحاجب وقال: « إن بالباب رسولاً من الفسطاط يطلب أن يرى القائد على انفراد».

فصرف جوهر الحاضرين، وأمر بإدخال الرسول فدخلت لمياء بثوبها ولثامها وأزاحت اللثام وأكبَّت على يده تقبلها فلم يتمالك عن النداء « لمياء لمياء».

فأشارت باصبعها على شفتها أن يكتم أمرها، فضمها إلى صدره كأنها ابنته وهو يحبها كما يحب الحسين، لكنه تذكر الحسين فانقبضت نفسه، وكادت الدموع تترقرق في عينيه فقالت: « جئتك يا سيدي ببشرى مزدوجة».

قال: « ما هي؟». قالت: « الأولى أن سيدي الحسين في أمان، ولو عرفني عندما حمَّلني رسالته هذه إليك لكلَّفني بإلقاء التحية ولكني اضطررت

للتستر؛ والثانية إنَّ عدوكم الذي يحاربكم وتسمعون صياحه ونداءه انما هو كالقصبة المرضوضة أو كالطبل صوته قوي وقلبه فارغ».

قال: « ماذا أرى؟ أأنت لمياء؟ وقد جئت بهاتين البشارتين وأهمهما وجود الحسين حياً بعد أن يئست من وجوده، أين هو وكيف عرفت ذلك؟ أخبريني».

فجلست وقصت عليه ما رأته وقاسته منذ تركت القيروان إلى أن أخذت تلك الرسالة من الحسين، ودفعتها إليه، فقرأها وقال: « سأفعل ذلك حباً وكرامة؛ وأين ذلك الخائن وعمه؟». فتنهدت وقالت: « رأيتهما مع الجند يحرضانهم على الحرب وسينالان الجزاء، كيف فارقت مولانا المعز وأم الأمراء؟».

فقال: « إن مولانا المعز أعزه الله وأتم نصره من معجزات الزمان».

قالت: « ومن أسباب سعادته أنك قائده».

قال: « كلا، إني لو سفكت دمي عند قدميْه لا أكافئه على صنيعه؛ أنت تعلمين منزلتي عنده؛ ولكنني لو أخبرتك بما فعله يوم خروجي من القيروان على رأس هذه الحملة لرأيت عجباً؛ إنه أمر بافراغ الذهب في الأرحية، وأن تحمل معي ظاهرة، وأمر أولاده وإخوته والأمراء وولي العهد وسائر أهل الدولة أن يمشوا في خدمتي وأنا راكب، وكتب إلى سائر عماله يأمرهم إذا قدمت عليهم أن يترجلوا، فلما أتيت برقة عظم على صاحبها أن يفعل ذلك، فافتدى ترجُّله ومشيه في ركابي بخمسين ألف دينار ذهب، فأبيت إلا يفعل ما أمر به أمير المؤمنين ففعل، أمثل هذا الخليفة يكثر فيه أن أفديه بالروح؟!».

قالت: « صدقت والله إنه نابغة الخلفاء، وهل أنسى أنا ما أكرمني به حتى كاد يناديني ابنته، وهل مثل هذا الخليفة يكون نصيبه من حربه غير النصر؟ وهل تصلح الدولة إن لم يكن رجالها قلبا واحداً في طاعة أميرهم؟ أين ذلك من جنود مصر ودولتهم فقد سمعتهم يختصمون على أمور تافهة، ورأيتهم

يضربون الناس لابتزاز الأموال؛ لا شك أن الله أذن بانقضاء دولة الإخشيديين.. هل ترى أن أعود إلى الفسطاط. وما هي العلامة التي نجعلها على دار بنت الإخشيد حتى لا يمسها أحد بسوء؟».

فضحك وقال: «كأنك واثقة من دخولنا ظافرين؟».

قالت: «لا شك عندي في ذلك».

فربَّت على كتفها بيده وقال: «بارك الله فيك انصبوا على باب القصر علماً أخضر، وسأوصي الجند بأن يجتنبوا ذلك الباب».

قالت: «أتأذن في انصرافي؟».

قال: «تبيتين الليلة هنا ونرى ما يكون في الغد، ولا باعث على العجلة في الذهاب». فأطاعت.

أما أهل الفسطاط، فكانوا بعدما قاسوه من الظلم والاهانة والسلب اصبحوا يفضلون الفاطميين.. وأما بنت الإخشيد فإنها مكثت بعد ذهاب لمياء وقد تولتها الدهشة لما شاهدته من مروءة هذه الفتاة وبسالتها، ولبثت تنتظر رجوعها وقضت أكثر أوقاتها في الشرفة المطلة على الجيزة لتراقب حركات الجنديين، وقلما كانت ترى شيئاً منهما لبعدهما عن مجال البصر؛ لكنها كانت تتلهى بذلك ووجهت عنايتها للحسين وأمرت باكرامه ورعايته.

وكان الحسين بعد ذهاب لمياء قد أحس بشيء أذكره حبيبته فلم يعد تذهب صورتها من ذهنه وهو لا يدري السبب. والسبب أن صوتها لم يخل من غنة تعوَّد قلبه أن يطرب لها يوم اجتماعه بها، فطرب لها الآن وهو لا يعلم أن مخاطبته خطيبته.

قضى الحسين ليلته وهو يفكر في لمياء وأين هي، وتذكر قولها يوم وداعه أنها ستلاقيه في الفسطاط؛ وتمثلت له حماستها ووثوقها بالظفر من ذلك الحين، فاختلج قلبه وأحس بشوق إلى رؤيتها أو معرفة خبرها.

مضت أيام ولم ترجع لمياء بالجواب من جوهر، فقلقت بنت الإخشيد ورجح لديها فوز الفاطميين يوما بعد يوم، فأصبحت خائفة على حياتها؛

وانما طمأنها أن الحسين بن جوهر أسير عندها تحتمي به عند الحاجة؛ ولما اشتد قلقها بعثت إليه فجاءها فسألته عما يراه من أمر تلك الحرب.

فقال: « لا ريب عندي في فوز جندنا يا سيدتي».

قالت: « عجبا... كيف تؤكد ذلك؟».

قال: « لأننا متحدون قلباً وقالباً في خدمة أمير المؤمنين نساء ورجالاً، ليس فينا إلا من يفدي أمير المؤمنين بروحه، فهل أنتم كذلك؟».

فقالت وقد غلبت على عواطفها: « لا يا بنيَّ. لسنا كذلك لسوء الحظ».

قال: « أما نحن فلا همَّ لنا إلا التفاني في نصرة الخليفة، أضرب لك مثلاً على ذلك فتاة خطبتها في القيروان، وجاء ذكر الحملة على مصر فأبت أن يتم الزواج إلا في الفسطاط بعد فتحها، ثم هجرت بيتها وسافرت في خدمة الدولة تمهيداً لهذا النصر ولا يعلم أحد أين هي؛ ولا أنسى قولها ساعة الوداع: (سنلتقي في الفسطاط في قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل)؛ ذلك لوثوقها بالنصر والجند لم يتحرك من القيروان».

فاستغربت بنت الإخشيد قوله وقالت: « لله درك من فتاة نادرة المثال وأين هي الآن؟».

قال: « إن قلبي لمثل الجمر لأجلها، ولكنني واثق أننا سنلتقي هنا».

قالت: « يظهر أن نساء بلادكم أقوى من نساء بلادنا وأشد حماسة، فإني عرفت جارية مغربية أهداها إليَّ يعقوب بن كلس بالأمس لم تر عيني أعقل منها ولا أطيب من قلبها؛ وهي مع ذلك شجاعة باسلة لا تبالي ركوب الأخطار، وقد قالت إنها تعرفك وتعرف أباك والخليفة وتعرف أيضاً الأميرين السجلماسيين اللذين حملاك إلينا أسيراً».

قال: « ما اسمها؟». قالت: « سلامة..».

قال: « أهي التي أتتني متنكرة بثوب جندي وأخذت الكتاب إلى أبي؟».

قالت: « نعم هي بعينها لله درها!. إني لم أعهد مثل هذه الحماسة

والبسالة في النساء حتى لقد قلت لها مرة: (ليست هذه الأخلاق من أخلاق الجواري)..».

فرأى الحسين شبهاً بين أخلاق لمياء وبين ما سمعه عن سلامة وتذكر خروج لمياء من القيروان لخدمة المعز.. فأطرق يقول في نفسه: «هل يمكن أن تكون سلامة هي لمياء متنكرة؟».

واستبطأت بنت الإخشيد جوابه، ورأت اطراقه، فتصورت أنها جددت ذكرى خطيبته وهو بعيد عنها، فلم ترد أن تشغله عن تأملاته فحولت بصرها نحو النافذة المطلة على النيل والجيزة وراءه؛ فرأت الروضة تعج عجيجاً بالناس وفيهم الفرسان بالرماح والسيوف والمشاة بالحراب في غير زي المصريين، وقد تطايرت السهام وأبرقت السيوف فصاحت: «ويلاه هذه هي الحرب، قد دخل العدو بلدنا».

فالتفت الحسين إلى الروضة، وأجال نظره في تلك الجهات فقال: «قُضي الأمر يا مولاتي، هذا جندنا يقطع الجسر، وهذه أعلامنا ولا يلبث أن يدخل الجند الفسطاط ظافراً.. لا تجزعي إني أفديك بدمي هأنذا نازل لأقف بالباب وأمنع رجالنا من دخوله»؛ قال ذلك وأسرع نحو الباب الخارجي الكبير وكانوا قد أوصدوه. فرأى جندياً مغربياً يتسلقه وخدم القصر يستغيثون به ويتقدمون إليه ألا يفعل لأنهم لا يحاربون وهو لا يبالي؛ فصاح فيه الحسين: «انزل يا رجل إن الذي يخاطبك هو الحسين بن جوهر».

فلم يكترث الجند لقوله بل ظل في عمله حتى وصل إلى عتبة الباب العليا فأخرج من جيبه علماً أخضر نصبه فوقها، وتحول إلى الداخل وأشار إلى أهل القصر أن يتركوا الباب مغلقاً، فنظر الحسين في وجهه فرآه ملثماً فقال له: «من أنت يا رجل؟ لماذا لم تجبني؟».

فأومأ إليه أن اسكت الآن، ودخل مسرعاً، فتذكر الحسين الجارية سلاّمة وكيف تركته متنكرة بثوب جندي مصري، وما خامره من الشك فيها عند سماع خبرها من بنت الإخشيد. فأصبح شديد الميل إلى تحقيق ذلك

فلحق بها؛ ولم ينتبه له أحد من أهل القصر لاشتغالهم بالحذر والخوف، وبما قام من الضوضاء في المدينة بين عويل وصياح. وقد أرعبهم دخول ذلك الجندي المغربي؛ لكنهم ما لبثوا أن رأوه ينصب الراية الخضراء، حتى اطمأنوا ولكن الذين رأوه داخلاً يعدو ولم يروا الراية ذعروا.

أما الحسين فما زال مسرعا حتى دخل القاعة، وطلب إلى الحاجب أن يدعو السيدة بنت الإخشيد، فناداها فأتت ولم ترسل الستر بينها وبينه، وانما اكتفت بالنقاب، وحالما وقع نظره عليها استغرب ما عليها من الأثواب الثمينة والحلي وهو يسمع بما عليه أهل مصر من الضنك، أما هي فحالما رأته صاحت: «ماذا جرى؟».

قال: «كل شيء في أمان، وهذا علم أبي قد نُصب فوق الباب؛ وهو علامة الأمان فلا يجسر أحد أن يمس هذه الدار بسوء لا تجزعي».

قالت: «ومن غرسه هناك؟».

قال: «جندي مغربي أظنه الجندي الذي حمل رسالتي إلى أبي وقد أسرعت لأراه».

قالت: «أتظن سلامة رجعت؟ أين هي؟». وصفقت فأتت القهرمانة وهي تلهث من الخوف، فضحكت بنت الإخشيد من منظرها وقالت لها: «ما بالك يا خالة لماذا تلهثين؟».

قالت وهي تقطع صوتها: «إن الأعداء دخلوا.. الفسطاط.. و.. دخل رجل منهم هذه الدار..».

قالت: «لا تخافي إن هذا الجندي جاءنا بعلَم الأمان من قائد جند المغاربة، اطمأني لا بأس علينا؛ وهذا الحسين ابن القائد.. أين سلامة الجارية؟».

قالت: «لم أرها منذ أيام».

قالت: «ابحثي عنها وادعيها الينا».

وقعدت وأشارت إلى الحسين أن يقعد، فقعد وعيناه شائعتان نحو

الباب ينتظر وصول تلك الجارية، ولحظت بنت الإخشيد قلقه فقالت: «مالي أراك قلقاً كأنك تنتظر أن تأتيك سلامة بكتاب من أبيك؟».

قال: «كلا. فإن هذا العلم يكفي جواباً. ولكنني أتوقع أن تكون سلامة هذه غير ما تتوهمينها».

قالت: «وكيف ذلك؟».

قال: «تمهلي ريثما نرى».

وإذا بالقهرمانة عادت وهي تقول: «لم أجد سلامة هناك ولكنني رأيت جنديا فخفت ورجعت».

فنهض الحسين وقال: «أين هذا الجندي؟ أوصليني إليه».

-١٨-

لقاء الحبيبين

مشت القهرمانة وبنت الإخشيد والحسين حتى وصلوا إلى الغرفة، فوجدوا الجندي واقفا إلى النافذة يراقب حركات المتحاربين لا ينتبه إلى أحد في الدار، فمشى الحسين مسرعاً حتى وقف وراءه بحيث يرى ما يراه، فرأى المغاربة تكاثروا والإخشيدية يفرون أمامهم إلى المدينة، وقد تراكم القتلى منهم على الجسر، وتجاوزهم بعض المغاربة على خيولهم، وظهر الفوز واضحاً لهم فصاح الجندي: «الحمد لله قد كتب النصر لنا». والتفت فوجد الحسين، فبُغت ووقف لا يبدي حراكاً فصاح فيه الحسين قائلاً: «من أنت؟».

فلم يجب وإنما أشار إلى ثوبه أنه جندي فقال: «أنا الحسين بن جوهر فانزع هذا اللثام عن وجهك».

فأطرق ولم يجب، فقالت بنت الإخشيد: «هذه سلامة حبيبتنا إكشفي وجهك للحسين يا بنية إنه حامي ذمارنا».

فلم تجب؛ فتقدمت بنت الإخشيد ورفعت اللثام بيدها، فأرادت لمياء

أن تحوِّل وجهها حتى لا يراها الحسين فرآها وعرفها وصاح: « لمياء . . » .

وأمسك بيدها وأدارها نحوه ليتحقق ظنه وهي تحوِّل وجهها عنه حياء، فدهشت بنت الإخشيد لما رأته وتذكرت ما قاله عن خطيبته، فعلمت أنها هي نفسها فتقدمت وساعدت الحسين عليها وأمسكت بيدها الأخرى وقالت: « أنت لمياء خطيبة هذا البطل وتزعمين أنك جارية؟ تكلمي . . » .

فالتفتت إلى الحسين لفتة تعودها منها فأثرت في قلبه تأثير السهم وقال: « تكلمي ما بالك؟ » .

فقالت وعيناها تلمعان: « لقد تعاهدنا أن نلتقي هنا بعد فتح مصر . . فهل فُتحت؟ » .

قال: « أوشكت أن تُفتح . . » .

قالت: « اصبر لا تفرح قبل تمام النصر؛ أنت هنا منذ أيام وأنا عالمة بذلك، ولم أشأ أن أطلعك على وجودي لئلا نشتغل بالقلوب عن السيوف؛ ولا أزال على ذلك حتى الآن. إن خدمة المعز مقدمة على كل شيء؛ فإذا فرغنا منها وفتحنا البلد، واستقر لنا الأمر فإني أمتك أترامى عند قدميك . . » . قالت ذلك وأبرقت عيناها وبان الهيام فيهما واسترخت عزائمها؛ والحسين ينظر إليها نظر الإعجاب والخجل وقال: « أبيت يا لمياء إلا أن تكوني السابقة إلى الفضل في خدمة أمير المؤمنين، إني متفان في خدمته؛ ولكنني دهشت لرؤيتك هنا وأنا أعهد مقرك منذ افترقنا بالقيروان. الحمد لله على هذا اللقاء » .

فنظرت إليه نظرة عتاب وقالت: « وذانك الرجلان اللذان ساقاك إلينا في القيود والأغلال؛ إني لا أعد النصر تاماً وهذان الرجلان على قيد الحياة؛ وأنا في شوق إلى سماع ما جرى لك في أثناء هذا الغياب، وأنت مشتاق إلى حديثي، فإذا تم النصر كما نريده تحدثنا كثيراً » .

فلما تذكر أبا حامد وسالماً هاج الدم في عروقه فقال: « أين هما؟ » .

قالت: « سأقص عليك نبأهما عمَّا قليل » .

والتفتت بنت الإخشيد إلى لمياء وقالت لها: « سنتركك حتى تغيِّري ثيابك».

قالت: « كلا يا سيدتي لا أريد أن أغيِّر شيئاً قبل الفراغ من هذا العمل؛ وهل ترين منظراً أجمل مما أرى هنا؛ ليس في الدنيا ألذ من النصر في ساحة الحرب.. لا صبر لي على هذا المنظر هيا بنا إلى المعركة».

قالت ذلك وأسرعت فتبعها الحسين وهو يقول: « المعركة؛ لست أشد مني غيرة على الدولة ولكنك شغلتني». ونزلا فركب كل منهما فَرسه وتسلَّحا وبنت الإخشيد ترى وتُعجب؛ فلما خرجا قالت في نفسها: إن قوماً أنصارهم مثل هذين حري بهم أن يفتحوا العالم».

ولم يسيرا إلا قليلا حتى رأيا رجلا من أتباع الشريف مسلم حاملاً علماً أبيض يؤمن الناس فنادته لمياء فوقف فقالت: « من أرسلك بهذا العلم وكيف الحال؟».

قال: « لما غُلب الإخشيدية وقُتل منهم خلق كثير ارتدوا إلى مصر وأخذوا في دورهم ما قدروا عليه، وانهزموا فخرج نساؤهم إلى الشريف أبي جعفر وطلبن منه أن يكاتب القائد جوهر بالأمان، فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله إعادة الأمان، وهذا جوابه معي يؤمنهم، وهذا العلم الأبيض شاهد على ذلك؛ فاطمأن الناس وخرج الأشراف والعلماء ووجهاء البلد بموكب حافل يتقدمه الوزير ابن الفرات وجماعة الأعيان إلى الجيزه لملاقاة القائد عند دخوله الفسطاط ليعودوا به؛ ألا تسمع المنادي ينادي بذلك؟».

فالتفتت لمياء إلى الحسين وقالت: « قد تم النصر والحمد لله، فلا حاجة إلى الخروج بل ننتظر وصول الموكب».

وفي عصر يوم ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ اقبل الموكب حتى دخل الفسطاط بالسلاح والعدة، فدخل جوهر وطبوله وبنوده بين يديه، وعليه ثوب ديباج مثقل وتحته جواد أصفر، فرافقوا الموكب حتى شق البلد، ونزل في مكان أناخ فيه جوهر جماله، وبنيت فيه القاهرة بعد ذلك.

فالتفت الحسين إلى لمياء يستشيرها فيما ينبغي أن يفعلا فقالت: « هلم بنا إلى مقر ذينك اللعينين في الفندق».

فتبعها وساقا الجوادين وقد قاربت الشمس الغروب حتى أتيا الفندق؛ فلما رآهما صاحبه رحب بهما خوفا منهما؛ وإن كان المنادون قد نادوا بالامان، ثم وقع نظره على لمياء فعرفها ورآها بلباس جند المغاربة فاستأنس بها وقال: « هذا صديقنا الصقلبي! ».

فضحكت وقالت: « إننا في حاجة إلى تلك الغرفة الآن ».

قال: « قد دخلها الرجلان في هذه الساعة ».

فالتفتت إلى الحسين وقالت: « قد تم سعدنا »، وساقا الجوادين إلى داخل الفندق حتى صارا في وسطه، وترجلا وأسرعا إلى الغرفة، فطرقا بابها فسمعا لغطا، ولم يُفتح الباب، فاستل كل منهما خنجره وصاح الحسين: « افتح ».

فأجابهما أبو حامد من الداخل: « لن أفتح لكما.. ليس خوفاً على حياتي؛ ولكنني لا أريد أن أموت بيد أحدكما.. ولا ينبغي لي أن أبقى حياً بعد هذا الفشل؛ وأخاف أن يجبن هذا الغلام فيستعطف ويتذلل، وأنا أعرف ضعفه وجبنه؛ فأنا الآن قابض على عنقه وها إني طعنته فمات، وهذه طعنة في قلبي؛ وهذا الباب قد فتحته لكما فاستلما جثتين بلا روح! ».

ثم سمعا وقوع الجثة، وفُتح الباب فوجدا الرجلين يتخبطان بدمهما، فغطت لمياء عينيها حتى لا ترى ذلك المنظر الرهيب وقالت: « هلم بنا إلى المعسكر، فقد قُضي الأمر وتم النصر ».

فتبعها وهو يقول: « كنت أود قتلهما بيدي ».

وفيما هما خارجان اعترضهما صاحب الفندق وهو يبكي ويقول: « قتلتما الرجلين الآن يتهمونني بقتلهما ».

فتقدمت لمياء إليه وقالت: « قُتلا بأمر القائد جوهر، وهذا هو الحسين بن جوهر القائد لا تخف ».

فأكبَّ على ركاب الحسين يقبله ويقول: « اعذرني يا سيدي والله إن هذا الصقلبي رجل طيب. مع السلامة يا سيدي ».

وانصرفا حتى أتيا المعسكر وقد أظلم الليل، ولكن الأنوار كانت تسطع

في تلك الأنحاء، وقد أقبل المصريون زرافات ووحدانا على جوهر يهنئونه بالنصر، وعرفا فسطاطه من كبره وكثرة من حوله من الحجاب، فما زالا حتى وقفا بالباب، واستأذنا في الدخول، فلما قيل لجوهر إن الحسين يستأذن عليك، نهض وضمه إلى صدره وقبَّله فقبَّل الحسين يده؛ ثم تقدمت لمياء بثوب الجند فقبَّلت يد القائد فدعاها إلى الجلوس هي من جانب والحسين من الجانب الآخر؛ وكان في جملة الحضور أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الشريف فعرفهما إليه فرحب بهما وهنأهما بالنصر.

وإذا بصوت خرج من جوانب الخيمة يقول: «يعقوب؟». فعلمت لمياء أنه صوت يعقوب بن كلس، فالتفتت إلى جوهر وقالت: «لا أقدر أن أصف لك الفضل الذي أولاني إياه الشريف أبو جعفر والمعلم يعقوب، فإننا مدينون لهما بكثير من أسباب النصر ولولاهما لكنت في عالم الأموات».

فقال الحسين: «فالفضل إذن عليَّ أنا».

وبعد قليل انصرف المهنئون، وبقي جوهر ومسلم ويعقوب والحسين ولمياء، وكان اجتماعهم هنيئاً على أثر ما عانوه من التعب؛ حتى كُتب لهم النصر، فقص كل منهم ما عاناه في أثناء الغياب، والتفت جوهر إلى لمياء وقال: «قد صحَّت نبوءتك يا بنية فالتقينا في الفسطاط بعد فتحها؛ ألم يئن أوان العقد؟».

فقالت: «الحمد لله على ذلك ولكننا اشترطنا أن يكون العقد في قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل..»

قال: «ألم تصر الفسطاط كلها قصراً له؟»

قالت: «بلى ولكنني أريد قصره الخاص به».

فضحك جوهر وقال: «إنك تريدين أن يؤجل الاقتران حتى يحضره المعز بنفسه فإنك أهل لذلك. وفي الغد نبدأ ببناء القصور لمولانا؛ وبعد قليل يأتي إلى مدينته ويعقد لكما بيده المباركة».

وأخذ جوهر في اليوم التالي في بناء القاهرة، ثم بنى القصور وبعث إلى

المعزِّ بأخبار الفتح، فانتقل المعز إلى مدينته، وأقام بها وتوارثها أعقابه بعده على ما هو مدَّون في كتب التاريخ، وكان أول عمل عمله أنه عقد للحسين على لمياء باحتفال لم يُسمع بمثله.

obeikandl.com